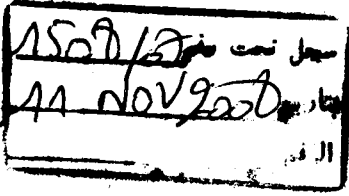


١٥٥٩ - ١١ / ١١



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية اللاداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم الثقافة الشعبية

شعبة الفنون



العمارة الإسلامية

أصولها الفكرية ودلالاتها الثقافية والبيئية

من خلال بعض النماذج

أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في الفنون

إشراف الدكتور:

معروف بلحاج

من إعداد:

بلحاج طرشاوي

لجنة المناقشة:

| | | | |
|--------------|----------------------|--------|-----------------------|
| جامعة تلمسان | أستاذ التعليم العالي | رئيسا | أ.د عبد الحميد حاجيات |
| جامعة تلمسان | أستاذ التعليم العالي | مشرفاً | أ.د. بلحاج معروف |
| جامعة بلعباس | أستاذ التعليم العالي | عضوا | أ.د. محمد مجاود |
| جامعة وهران | أستاذ التعليم العالي | عضوا | أ.د. دحو فغور |
| جامعة تلمسان | أستاذ محاضر | عضوا | د. بسنوسي الغوثي |
| جامعة بلعباس | أستاذ محاضر | عضوا | د. حنيفة هلايلي |

السنة الجامعية 2006-2007 الموافق 1428-1429

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الإهداء

إلى:

الوالدين العزيزين

زوجتي التي تجشمت معي عناء هذا العمل.

قرة العين: دعاء، أيمن، سجي

شكر

إنّ هذا العمل ما هو إلا ثمرة تكاتف جملة من الجهود، أذكر
منها الجهد الذي بذله أستاذي الدكتور: بلحاج معروف،
الذي لن تفي كلمات الشكر برد ولو بعض فضائله، فله مني
جزيل الشكر، وأسمى معاني التقدير والاحترام.
وشكري الخالص لكل من ساهم في إنجاز هذا العمل.

المقدمة

مقدمة:

لقد شبهت العمارة ولفترة طويلة بأداة تعبيرية، تتكون من مفردات تشكيلية كل واحدة منها دالة بذاتها، ومجموعها دال في تراكيب مختلفة ووفق قواعد مختلفة¹ فهي بهذا تتساوى واللغة في الخاصية الدلالية والتركيبة ولكنها تختلف عن اللغة كونها لا تملك قواعد ثابتة ومفردات واضحة يتشارك فيها كل مستعملها، وهذا ما يعطيها مرونة في التنوع والاختلاف من ثقافة إلى أخرى.

وللعمارة ثقافة خاصة بها هي جزء من الثقافة العامة في أي مكان وجدت فيه، ولبنة عامة من لبناتها، كما هو حال غيرها من العناصر الثقافية، هذا الانتماء للثقافة العامة هو عنصر هام، وفاعل في عملية تصور وتصميم العمارة قبل الشروع في بنائها وأثناء تنفيذها واستخدامها، والتفاعل معها والحكم عليها بعد بنائها، وهو عنصر هام في عملية فهمها وترميزها وتحميلها جملة من المعاني والدلالات المختلفة.

والعمارة في أي جغرافية كانت تخضع للتنوع الجغرافي الذي ينكشف عن نماذج معمارية متعددة تؤثر فيها خصائص المجتمع المحلية التي يحددها المكان - الجغرافيا - والمناخ والتراكمات الثقافية لذلك المجتمع، الذي ينشأ فيه الفعل المعماري، وبهذا فالعمارة متأثرة ببعدين هامين: بعد مادي يحكم أسلوبها، وبعد اجتماعي وثقافي واقتصادي يعطي للمنشأة معناها ومدلولها.

وإن كان هذا هو شأن العمارة عموماً، فإن العمارة الإسلامية لا تكاد تخرج على ما ذكرناه فهي ليست وليدة الصدفة، بل هي انعكاس مباشر للمنظومة الفكرية، التي جاء بها الإسلام، و هي نتيجة لتراكمات ثقافية أيضاً. فالمنشآت المعمارية الإسلامية تقوم على مبادئ وأحوال عمرانية مستنبطة من الشريعة الإسلامية بوجه عام.

وتمثل العمارة الإسلامية انعكاساً للبعد: الإقليمي والمناخي، فيؤثر عامل المناخ، تأثيراً بالغاً في صياغة العمارة الإسلامية، فينشأ عن تنوع المناخ تنوع الطرز المعمارية في مختلف أقطار العالم الإسلامي.

إن تزاوج هذه العناصر كان سبباً هاماً في ظهور وتطور العمارة الإسلامية.

1- ناصر الرباط: ثقافة البناء وبناء الثقافة، ط1، بيروت، رياض الريس للكتاب، لبنان، 2002، ص8

ونعتقد أنّ العمارة الإسلامية في انطلاقتها الأولى قد تأثرت بعناصر الحضارات التي سبقتها والتي تخضع بدورها لمنظومة فكرية معينة، وتراكمات ثقافية مختلفة أيضاً، ولكن هذا التأثير هو في جانبه التقني الإنشائي أما في الجانب الفكري (الفكر المعماري)، فإن العمارة الإسلامية استقلت بفكرها الخاص، فأخضع المعماري المسلم الإنشاء إلى ثقافته الإسلامية وسخره لوظائف تتماشى وجوهر الدين الإسلامي.

إن هذا الموضوع هو امتداد للبحث الذي قمت به في رسالة الماجستير ولقد غلبت فيه الجانب التقني، لهذا رأيت من الضروري التركيز على الجانب التنظيري للعمارة الإسلامية، فلا يزال هذا الموضوع خصبا يحتاج إلى الكثير من الجهد.

كما أحاول أن أربط العمارة الإسلامية بالتراث الفقهي، ربطا لا تكاد تتفك عنه، لما بينهما من الصلة الوثيقة وخاصة في الجانب التشريعي المتعلق بـ: " فقه العمران"، ولا أزعم أن هذا غير موجود في كتب التراث، فهو كذلك كما سنثبت من خلال هذا العمل، ولكن يحتاج إلى تكاتف الجهود من أجل إخراجه إلى النور، وفصله عن كتب التراث الفقهي، ليستفيد منه القراء، خاصة الطلبة منهم المهتمين بهذا الموضوع...

أقصد بالأصول الفكرية، الأصول النظرية التي اعتمدها المعماري للمسلم والمتمثلة أولا في الموروثات الحضارية السابقة للعمارة الإسلامية، كالعمارة الفارسية والبيزنطية، ثم المصادر الإسلامية متمثلة في نصوص الشريعة الإسلامية وثقافة المجتمع الإسلامي، وكذا مؤسساته المختلفة التي ساهمت في إثراء المنظومة العمرانية، وأثرت على عملية البناء داخل المدينة الإسلامية.

فإلى أي مدى أثرت هذه الأصول الفكرية في العمارة الإسلامية؟

أما الأسس الثقافية: فهي مجموعة التراكمات الثقافية (مجموعة المبادئ، التقاليد والعادات والمواقف الفكرية والعاطفية المعرفية والتغيرات الاجتماعية والتاريخية والذكريات المشرفة...)، التي أثرت في العمارة الإسلامية عند تصميمها وتنفيذها، والتفاعل معها والحكم عليها بعد بنائها وتحميلها بالرموز والدلالات، ومقارنتها بغيرها من العمارات عندما تصبح جزء من الثقافة التي أنتجتها:

فإلى أي درجة أثرت هذه التراكمات الثقافية على تصور وإنشاء العمارة الإسلامية؟

والأسس البيئية والمناخية، فنقصد بها التأثير البيئي والمناخي على العمارة الإسلامية. فكيف تمكن المعماري المسلم من التعامل مع المشاكل البيئية والمناخية؟ ولقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي عند الحديث عن المنشآت المعمارية التي سترد في هذا البحث، فكثيرا ما احتجت إلى وصف ما كانت عليه المدن الإسلامية الأولى أو وصف المساجد والمدارس. والحديث عن نشأة المدن الإسلامية، الأولى أو الحديث عن ظهور وتطور بعض المرافق الحيوية كالمدارس والمستشفيات يقتضي استعمال المنهج التاريخي الذي رافقني في أغلب مراحل هذا البحث، كما اعتمدت على المنهج التحليلي، في القراءات الدلالية للعوامل الثقافية والبيئية.

وقد قسمت هذا البحث إلى مدخل أتناول فيه ماهية العمارة الإسلامية؟ ثم باب أول أعالج فيه مظاهر للعمارة الإسلامية، أما الباب الثاني فقد خصصته لتتبع مراحل إنشاء المدن الإسلامية الأولى، أما الباب الثالث فأتناول فيه المصادر المختلفة (أجنبية، إسلامية، بيئية وثقافية) التي أثرت المنظومة المعمارية.

اهتم علماء الإسلام منذ العصور الإسلامية الأولى بالأمور المختصة بالبناء وما يتعلق به من حقوق وواجبات وكانت اغلب هذه الأحكام منثورة في أبواب الفقه المختلفة، ففي هذه الأبواب حقوق الإرتفاق و نحديثها كحق المرور والشرب وحق المجرى وحق المسيل وحق التعلّي، ومن هذه المباحث نجد مباحث الإحياء وما يرتبط به من أحكام ومباحث الوقف والإجارة والكراء والقسمة... ونحوها من المباحث وهي ترتبط ارتباطا وثيقا بمجال العمران داخل المدينة الإسلامية.

واهتم صنف آخر من علماء الشريعة بإفراد تأليف خاصة بمجال العمران وما ينبغي أن يكون عليه من تنظيم و يمكننا تقسيم المؤلفات في هذا النوع من الفقه إلى عدة أقسام.

وهي المؤلفات التي أفرد أصحابها مؤلفاتهم للحديث عن أحكام البنين بجمع مسائله المنشورة في كتب الفقه المختلفة، وقاموا بتنظيمها و تنسيقها. وجعلوا لها فصولا و أبوابا منتظمة، فصار بذلك فقه البنين علما فقهيا مستقلا بذاته، خارجا عن دائرة الفقه المعتادة، له قواعده وأسس ورجالاته، ويمكن القول أن هذه التأليف المفيدة قليلة و يصعب على الباحث أن يحصل على القدر الذي يريد لاستكمال بحثه والإلمام بموضوع هذه المؤلفات، ومع ذلك فقد تمكنا بفضل مساعدة الأساتذة الحصول على مجموعة من العناوين كان لها التأثير البالغ على هذا البحث ومن بين هذه المؤلفات نذكر:

- كتاب الحيطان لابن مازة البخاري.
- إعلان بأحكام البنين لابن الرامي.
- القسمة و أصول الأرضيين للفرسطاني

أما المصادر الأخرى فلقد تمكنا من الإطلاع عليها من خلال المؤلفات الحديثة التي تناولت موضوع العمارة بالدراسة و التحليل. ومن المصادر التي اعتمدها في هذا البحث.

كتاب الحيطان:¹ مؤلفه حسام الدين عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري المتوفي سنة 536 هـ،* و حقق هذا المؤلف عبد الله نذير أحمد. والكتاب عبارة عن جهود متراكمة لمجموعة من العلماء، فبدأ بجمعه المرجعي التقفي ثم قام بشرحه أبو عبد الله الدامغاني الكبير ثم قام المؤلف ابن مازة بتهذيبه وتنقيح أبوابه وشرح فصوله و التعليق عليه. والكتاب يتضمن عشرين بابا.

ينتاول الباب الأول استحقاق الحائط بالجذوع، فيقول المؤلف: "إذا تنازع اثنان في حائط وهو متصل بينهما فهذا على وجهين: إما أن يكون متصلا بملك أحدهما، أو

¹ ابن مازة: كتاب الحيطان دراسة فقهية لأحكام البناء و الارتفاق، برهان الأئمة حسام الدين عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاري، تحقيق عبد الله نذير أحمد، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ط1، 1996. * الزركلي: الأعلام، رتبه وعلق عليه زهير ظاظا، شركة دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ج2، ص336.

بملكيها وليس لواحد منهما تربع* ولا حمل عليه، ففي الوجه الأول، صاحب الاتصال أولى، لأنه في يده، والظاهر أن ما في يد الإنسان ملك له".¹

كتاب الإعلان بأحكام البنين: لمؤلفه محمد بن إبراهيم اللخمي المعروف بابن الرامي* والكتاب حققه عبد الرحمن بن الأظرم، وما يميز كتاب ابن الرامي ويجعل منه عمدة في هذا الباب، هو أن صاحبه ليس فقيها ولا قاضيا، بل هو ممن امتهنوا صناعة البناء، لهذا اشتهر بالبناء، فهو لا شك صاحب خبرة واسعة في مجال البناء وهو يصرح في بداية مؤلفه أنه بناء أجير، و يعتذر عما قد يقع منه من خطأ العبارة " أما قولنا على كل فصل قال المعلم محمد ليعلم من قرأ كتابي هذا أنني بناء أجير، فيعذرني إن وجد فيه خطأ في اللفظ أو الترتيب".²

ولم يكن ابن الرامي بناء بصيرا بعمله فحسب، فقد تولى ولاية الحسبة على الأسواق، وكان أغلب مهامه يدور في فلك صنعته فقد يحتسب في عيوب الدرر ويتفقد الحيطان فيأمر بهدم ما كان أثلا إلى السقوط منها و يتفقد الشوارع وما يقع فيها من مناكر والأخذ منها بالبناء قال ابن الرامي: " وقد نزلت عندنا مثل هذه كثيرا، فأمرني القاضي بهدمه، وعمل النظر في الأسواق في كل ما يراد فيها بالبناء وغيره".³ وكان القضاة والمفتون في تونس يرجعون إلى رأيه، ويبعثونه لاستقصاء حقائق المنازعات، فلا يخرجون عن رأيه يقول ابن الرامي: " وقد نزلت هذه عندنا بتونس فاشتكى بعض الناس إلى الشيخ الفقيه أبي إسحاق بن عبد الرفيح، فسألنا النظر فيها فكتبنا في وثيقة: إن دخانها كثير مضر بالجيران فأمر بقطعها".⁴

كتاب القسمة و أصول الأراضين:⁵ وهو من تأليف أبي العباس أحمد محمد بن بكر الفرستائي النفوسي وهو من تحقيق محمد ناصر وبكر بن محمد الشيخ بلحاج،

* أن يوضع الخشب على الحائط وهو شكل مربع.

¹ - ابن مازة: المصدر السابق، ص 73.

* محمد بن إبراهيم اللخمي، بناء من أهل تونس، ت سنة 734هـ - (الأعلام، ج 1، ص 464).

² - ابن الرامي: الإعلام بأحكام البنين، تحقيق ودراسة عبد الرحمان الأظرم، مركز الدراسات الإعلام، الرياض، ط 1، 1995، ص 122.

³ نفسه، ج 1، ص 293.

⁴ نفسه، ج 1، ص 208.

⁵ - طبع في مكتبة الضامري للنشر و التوزيع السلطنة عمان.

عاش الفرستائي بين (420 هـ - و 504 هـ)¹، ويعالج صاحب التأليف موضوع العمارة الإسلامية أو البناء داخل القصور في منطقة وادي ميزاب، فتناول فيه تخطيط المدن، والمنازل، وغرس الأشجار، والنخيل، ومد السواقي، وشق الطرق والأزقة وحقوق الناس وواجباتهم أمام أحكام الشريعة. ومن الكتب التي عالجت موضوع البناء والتي لم أتمكن من الإطلاع عليها:

كتاب القضاء في البنين لعبد الله بن عبد الحكم ت 191 هـ.*

كتاب الجدار لعيسى بن دينار ت 212 هـ،* و هذين الكتابين لا أثر لهما.

كتاب الجدار لعيسى بن موسى التطيلي ت 386 هـ، واشتمل الكتاب على واحد وخمسين مبحثاً كلها في البنين ومتعلقاته، فذكر فيه القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر، والقضاء في الدار تكون بين الرجلين، والقضاء القضاء في الرفوف تخرج على أزقه المسلمين، القضاء في فتح الأبواب، والقضاء في الرجل يعلن بناءه فيمنع جاره الريح و الشمس.²

تعرض أغلب فقهاء الشريعة إلى مواضيع أحكام البنين في كتبهم الفقهية على شكل مسائل متفرقة و موزعة على أبواب الفقه المختلفة. وأغلب هذه المباحث تدور حول القسمة والكراء والإجارة وأحكام الوقف والإقطاع وإحياء الموات وحريم النهر والعين والبر.

ويمكن أن نلحق بكتب الفقه نوع آخر من الكتب وهي كتب الفتاوى مثل كتاب "فتاوى ابن رشد" أو "مسائل الوليد ابن رشد"، وهو يتعرض فيه لكثير من الفتاوى المتعلقة بأحكام العمران وخاصة ما يتعلق بفض النزاعات بين الفرق المتنازعة أو بين العقارات المتجاورة.

وهناك مؤلفات أخرى لها نفس الطابع وهي كتب الأقضية وقد خصص أصحابها أبواباً وفصولاً للبنين والقضاء في المسائل المرتبطة بالعمران ومن أمثلة هذه المؤلفات

¹ - مقدمة كتاب القسمة: أبو العباس أحمد بن بكر الفرستائي، تحقيق محمد صالح ناصرو بكر بن محمد الشيخ بلحاج، ط1، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، 1992، ص 24.

* عبد الله بن عبد الحكم، فقيه مالكي من أصحاب مالك ت 214 هـ (الأعلام، ج1، ص122).

* عيسى بن دينار الغافقي، فقيه الأندلس في عصره ت 212 هـ (الأعلام، ج1، ص220)

² - ابن الرامي: مصدر سابق، مج1 ص 26.

نجد كتاب " البهجة في شرح التحفة" للتسولي ومن المسائل التي عرضها في باب البيوع، يذكر المؤلف عيوب الدور وما ينشأ عن ذلك عند وجودها وفي باب الإجارة جملة من أحكام تأجير الدور وما يتصل بذلك.¹

ويمثل كتاب الحاوي للفتاوي للسيوطي مصدرا هاما ومميزا في مجال البناء، فخصّص عنوانا لهدم الأبنية المحدثّة وسماه " هدم الجاني على الباني " وتحدث فيه عن حريم المساجد، وعن الإقطاع وذكر فيه حكم إقطاع الشوارع والطرق، وحكم البناء على النهر.² ويمكن أن نعتبر هذا المؤلف نقطة تحول وواصلة ربط بين مؤلفات الفقه العامة وبين المؤلفات المتخصصة.

ومن كتب الفقه التي يمكن أن نذكرها كتاب "إعلام الساجد بأحكام المساجد"³ للإمام الزركشي المتوفي سنة 794 هـ،* والكتاب مصدر هام لمن أراد البحث في بناء المساجد وما ينبغي أن يتوافر من شروط عقد بناء المساجد أو بعد الانتهاء من بنائها وهو كما جاء في مقدمته أول كتاب صنف مستقلا في أحكام المساجد فسار كالمنار ومرجعا لمن أتى بعد المصنف.⁴ وقد وجدت أن الكثير ممن كتب في هذا المجال قد أشار إليه.

واهتمت كتب الحسبة بالعناية بجزء هام في مجال العمران داخل الإسلام وبيّنوا الشروط التي يجب أن تتوفر في المحتسب وحددوا مجالاته واختصاصاته فالمحتسب مكلف بالسهر على نظافة الطرقات ويراقد السير الحسن داخل الأسواق ويقف دون وقوع المنكرات وانتشارها داخل المجتمعات وتحدثت كتب الحسبة عن البناء وخاصة فيما يتعلق بمواد البناء ومراقبة البنائين ومن هذه المؤلفات " معالم القرية في أحكام الحسبة " لمحمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت 729).*

¹ - أنظر مقدمة ابن الرامي: مج1، ص 19.

² - الحاوي: جلال الدين السيوطي: الحاوي للفتاوي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، لمكتبة العصرية، 1990، ط1، مج1، ص 169.

³ - طبع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

* الزركشي: محمد بن بهادر، من علماء الشافعية وهو تركي الأصل، ت79 (الأعلام، ج1، ص493).

⁴ - أبو صالح أيمن صالح شعبان: مقدمة كتاب إعلام الساجد، ص 5.

* محمد بن محمد القرشي (ابن الإخوة)، محدث، ت729 (الأعلام، ج1، ص461).

وكتاب "الحسبة في الإسلام" لتقي الدين أحمد بن تيمة (670 هـ - 740 هـ)، وكتاب الحسبة للفاسي. وتعرض لأحكام الحسبة كل من الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية" والقاضي أبو يعلى محمد بن الحسن الفراء في الأحكام السلطانية. وأهم مصدر اعتمدنا عليه هو نوازل الونشريسي*، وقد تولى قضاء فاس وقد خص جزءا هاما من الجزء الثامن من المعيار لنوازل الضرر المتعلقة بالبناء وسماه "نوازل الضرر والبنيان" وقد ساق فيه الكثير من النوازل وأورد الكثير من فتاوى وأقضية الفقهاء والقضاة، وهو في غالبه يستند إلى آراء المذهب المالكي.¹ وقد أوردنا في متن هذه الرسالة عددا هاما من الأمثلة لنوازل الونشريسي.

بعد التخلص من ربقة الاستعمار وظهور بوادر ما يعرف بالصحة الإسلامية، ظهرت طليعة من الباحثين كرسست جهودها لدراسة تراث الأمة الإسلامية وتخليصه من المناهج الاستشراقية التي سيطرت عليه لفترات طويلة وحاولت إفراغه من محتوياته الثقافية والدينية.

ومن أهم هذه الدراسات التي ساهمت في بعث التراث المعماري الإسلامي ودفعت الأجيال الجديدة للاهتمام بهذا المجال نذكر مجموعة من التأليف.

"عمارة الأرض في الإسلام" لجميل أكبر وهو مؤلف ضخمة وقسمه صاحبه إلى تسعة فصول، و تفوق صفحاته خمسمائة صفحة..

وما يميز الكتاب ثلاثة أمور:

- مقارنة بين أحكام الشريعة و الأحكام الوضعية.
- أنه ثري بالصور التوضيحية.
- أنه تعرض لكثير من الآراء الفقهاء في بعض أهم مسائل البناء وعرض لها بالنقد والترجيح.

* أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني، فقيه مالكي، نكب ونهبت داره، ت913هـ (الأعلام، ج1، ص540)
 1 - أنظر الونشريسي، أحمد بن يحيى: المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى علماء إفريقية والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، ج8، ص 435 إلى ص 458.

" فقه العمارة الإسلامية " لـ « خالد عزب " وهو أيضا كتاب على صغر حجمه إلا أنه مهم فهو كتاب يدور فلكه في دور الفقه في التنظيم العمراني ودوره في تنظيم الوحدات التجارية و السكنية.¹

"المدينة الإسلامية" وهو من تأليف عبد الستار عثمان وهو مخصص لتطور ونشأة المدن الإسلامية وخصائصها، فتحدث فيه عن شوارع المدينة وطرقاتها ثم تحدث عن المرافق العامة والخاصة داخل المدينة الإسلامية.²

ولا يمكننا في هذه المقدمة أن نذكر كل المؤلفات التي تناولت هذا الجانب العام من تراثنا بالدراسة و التحليل لهذا فقد ذكرت ماظننت أنه هاما وما هو غير مشهور من التأليف.

1 - و للمؤلف كتاب آخر لا يقل أهمية و هو كتاب - تخطيط و عمارة المدن -

2 - محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الرسالة، الكويت، 1988، ص 169.

المدخل:

مفهوم العمارة الإسلامية:

المدخل:

مفهوم العمارة الإسلامية:

يمكننا أن نحدد محورين لتحديد مفهوم العمارة الإسلامية، المجال الأول يعتمد أساسا على العامل الجغرافي، ومن هذا المنطلق فإن العمارة الإسلامية هي مجموع المباني والمنشآت المتواجدة في مدن الإسلام أوتلك المناطق التي كانت تابعة في يوم من الأيام إلى حاضرة الإسلام كالأندلس وصقلية.

أما المجال الثاني، وهو التاريخي فإن تاريخ العمارة الإسلامية يمتد من القرن 7م إلى بداية القرن 19 م أي منذ ظهور الإسلام إلى بداية القرن الذي سيطر فيه النموذج الغربي في جميع مجالات الحياة وفرض تصوراته السياسية والاقتصادية والفنية.

ويمكننا أن نحدد مفهوما آخر للعمارة الإسلامية من خلال مجال ثالث وهو مجال شكلي هذا المجال يحدد العمارة الإسلامية في جملة من الأشكال والطرز ويربطها ربطا وثيقا بها كالأقواس والقباب والباحات والمآذن والأواوين والمشربيات.¹

ويرى بعضهم أن العمارة الإسلامية ما هي إلا انعكاس لعامل البيئة فهي عبارة عن ردود أفعال لمعطيات هذه البيئة فيقول شاحت: "إن فن العمارة مرتبط أكثر من غيره من الفنون بالبيئة التي ينشأ فيها".²

ويعتبر التفسير التاريخي والجغرافي هو التفسير الأكثر شيوعا وهيمنة ويسوقنا هذا التفسير إلى اعتبارات ثقافية ودينية وعرقية فهو عادة ما ينسب الإبداعات المعمارية التي حدثت في فلك الإسلام إلى أطر ذات مكونات حضارية مختلفة، فنطلق عن العمارة في مصر العمارة القبطية وفي العراق وإيران العمارة الفارسية... إلخ . وإطلاق هذه التسميات المختلفة أمر فرضه منهج البحث الأوربي ولكنه لا يعبر عن حقيقة تاريخية، فربط العمارة الإسلامية بظرف سياسي أمر خاطئ، ذلك أن السلطة التي سيطرت على هذه المناطق لم تكن واحدة ولا ثابتة، فكانت تتغير باستمرار ولكن سكان

¹ - ناصر الرباط: ثقافة البناء وبناء الثقافة، ط1، رياض الريس للكتاب، بيروت، 2002، ص 24.

² - شاخت وبزورت: تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي، عالم المعرفة، ج1، ع1985، ص8، ص14.

هذه المناطق لم يتغيروا، وهؤلاء السكان هم الذين يصنعون الثقافة والفن، وهم الذين كانوا فاعلين في إطار السلطة، أما السلطات فقد تعطي أو تفرض بعض الملامح.¹ ومن هذا المنطلق فلا يمكن القبول برأي المستشرق شاخت الذي يعتقد أنه من المستحيل أن نتكلم عن عمارة إسلامية وكل ما في الأمر أن هناك عددا محددا من الطرز المعمارية الإقليمية المنفصل بعضها عن بعض لا تصبح إسلامية إلا بطريقة عرضية، ويرى أنه لا يمكن الحديث عن طرز معمارية أصيلة لأن هذه الطرز التي نسميها إسلامية إنما حدثت نتيجة تغييرات محددة أدخلت على عدد كبير من الطرز المعمارية المختلفة.²

وهذا التقسيم لا شك يهدف إلى التلميح أكثر إلى تأثير هذه الأطر في الحضارة الإسلامية، دون أن نذكر بأن هذه الطرز قدنمت ضمن الإطار الحضاري للإسلام وساهمت فيه وتأثرت به.

ونحن نتساءل كيف تبلور هذا المفهوم ليصبح هوالمفهوم الرسمي والشائع لمفهوم العمارة الإسلامية ؟

إن هذا المفهوم لمدلول العمارة لم يأت من فراغ ولم يأت دفعة واحدة فهونتاج لعمل أوربي منظم ودعوب كان القصد منه فرض النموذج المعرفي الأوربي في جميع الميادين خاصة منها الميدان الفني المعماري.

ففي بداية القرن 19 م ومع النهضة الأوروبية حاول العلماء والمتقنون الأوروبيون إيجاد جذور تاريخية لفنهم وحضارتهم وكان نتيجة هذه الجهود أن وضعوا سلسلة تاريخية متميزة ذات جذور مصرية مفترضة وكلاسيكية إغريقية ورومانية إلى بيزنطية مسيحية ثم قوطية، وأثناء هذا البحث حاول الأوروبيون إبعاد كل عامل قد ينسب إليه الفضل على الحضارة الأوروبية من غير جذورها وروافدها المزعومة.

ولهذا نجدهم قد غيّبوا ذكر الكثير من الحضارات التي قد يكون لها الفضل على الحضارات المتعاقبة والمتأخرة عنها، فاستثنوا من سلسلتهم التاريخية المزعومة العمارة

¹ - عفيف بهنسي: الفن العربي في بداية تكوينه، ط1، دمشق: دار الفكر 1983 مرجع سابق، ص 07.

² - شاخت وآخرون: مرجع سابق، ص 25.

الرافدية (سومرية- بابلية ...) واستثنوا كذلك العمارة الكلدانية والفينيقية على الرغم من أسبقيتها وفضلها على تاريخ العمارة وهو فضل ثابت تاريخيا وأكاديميا.¹

ولو استطاعوا إنكار فضل العمارة المصرية لفعلوا، ولكن الأدلة في أسبقية العمارة المصرية وتأثيرها على العمارة الإغريقية لا يمكن إنكاره.

أما العمارة الفارسية ومع أنها أثرت في العمارة البيزنطية فإن الأوروبيين قد أغفلوا كل أثر قد يدل على تأثر العمارة البيزنطية بالعمارة الفارسية وهي وريثة العمارات الرافدية والتأكيد على التأثير بالعمارة الفارسية يستجيب لأهداف أخرى فقد اتفقوا على أن فارس دخلت البلاد العربية عن طريق بلاد ما بين النهرين فأثرت فيها فأخذت العراق كل العناصر المعمارية والزخرفية التي انتشرت في أرجائها ابتداء من الفتوحات الإسلامية، ثم انتقل هذا التأثير من فارس إلى أغلب البلاد الإسلامية خاصة بلاد الشام وهي محاولة للتأكيد أن بلاد ما بين النهرين كانت فقيرة معماريا، والمعروف أن بلاد الرافدين سبقت حضارتها حضارة الساسانيين بآلاف السنين في مجال الحضارة والعراق هو مهد لحضارات عظمى كالحضارة السومرية والآشورية والبابلية، ومع ذلك فإن المستشرقين يعضون الطرف عن هذه الحقبة التاريخية الحافلة ويقفزون إلى الفترة الإسلامية.²

أما العمارة الإسلامية ومع أنها عاصرت العمارة البيزنطية وتأثرت بها وأثرت فيها، وهي لا شك حلقة ذات أهمية في سلسلة العمارات المختلفة، فإننا نجدها قد حذفت من تاريخ العمارة العام.

فظهر نتيجة لذلك مصطلح العمارة الإسلامية للدلالة على إنتاج معماري معين اختص بدراسته المستشرقون دون غيرهم، الذين حرصوا على دراسته من خلال منظور معرفي أوروبي، مما حصر دراسة العمارة في إطار تاريخي وجغرافي، ففرضت الأشكال نفسها على هذه الدراسات.

¹ - ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 27.

² - محمد الباجي بن مامي: "ملاحظات حول دراسات المستشرقين للفنون والآثار العربية الإسلامية"، المجلة التاريخية المغربية، ص 5.

ومع إنكار المستشرقين لفضل العمارة الإسلامية عملوا جاهدين على إرجاع أصولها إلى العمارة البيزنطية في غالب الأحيان، فإن لم تسعفهم الأدلة بحثوا عن جذورها في العمارات الأخرى كالفارسية والقوطية.

وغلب على الدراسات الشرقية للعمارة الإسلامية الجانب الوصفي الذي يقوم أساسا على وصف الأشكال المعمارية وصفا دقيقا.

وهو المنهج الذي استعمل في كثير من الدول الإسلامية في دراسة الآثار الإسلامية،¹ وقد حاول هذا المنهج تجريد العمارة الإسلامية عن كل رابط يربطها بالمجتمع الإسلامي، دينه وعاداته وتقاليده، ويفصلها عن الوحدات المعمارية المحيطة بها، وهذا المنهج وإن كان له الفضل في عرض وإحصاء الكثير من الآثار الإسلامية فإن له الكثير مما يعيبه، ولعل أهم ما يعاب عليه محاولة إفراغ العمارة الإسلامية من روحها وجوهرها الذي طبع الكثير من العماثر في مختلف البقاع الإسلامية، ومما يعاب عليه أيضا إنكاره أن يكون المسلم قادرا أن يبتكر طرازا معماريا خاصا به يختلف عن الطرز المعمارية السابقة له كالطرز البيزنطي والفارسي، ويؤخذ عليهم أيضا هذا التوجه إلى إهمال دور العقيدة الإسلامية وإمكانية تأثيرها في المجال المعماري واكتفوا بالقيام بمقارنات مع التراث المعماري الذي أنتجته الحضارات السابقة. فالعقيدة الإسلامية كانت الركيزة التي حركت روح الإبداع لدى المسلم وكانت هي الحاكم والموجه لكل نشاطاته بما في ذلك الجانب المعماري.

ومن هذه الرؤية الضيقة تجند المستشرقون لإفراغ العمارة الإسلامية من كل محتوياتها وجعلها تابعة لغيرها من الحضارات السابقة والمعاصرة لها.

فكريزويل يرى أن مبنى قبة الصخرة وما اشتمل عليه من زخارف يتضمن 22% تأثيرات رومانية و 22% تأثيرات بيزنطية و 55% تأثيرات سورية مسيحية² وهوبهذا التفصيل لم يبق للفنان المعماري الإسلامي إلا النسبة القليلة وهي 1%، فجهود المعماري المسلم وإبداعاته وابتكاراته لا تتجاوز عنده هذه النسبة الضئيلة وهو في

¹ - خالد عزب: فقه العمارة الإسلامية، ط1، مصر، دار النشر للجامعات، 1997، ص 41.

² - نفسه، ص 41.

اعتقادي يحمل في طياته الكثير من الاستخفاف والتحامل على الحضارة العربية الإسلامية.

أما المستشرق "PapaDopolo" فقد حاول جاهدا إبراز الأصول البيزنطية التي تكون قد ساهمت في نشأة وتطور الفنون الإسلامية بصفة عامة والعمارة الإسلامية بصفة خاصة واعتبر أن هذه الأصول هي السبب الحقيقي والجوهري للوحدة الفنية التي تجمع بين الفن الإسلامي في المغرب والمشرق.¹

وليس هذا الرأي مقتصرًا على دوبولو، فقد حاول بعض المستشرقين منذ بداية القرن 19 م البحث عن أصول العمارة الإسلامية ومصادرها في جميع الحضارات السابقة إلا في الإسلام.

واعتبروا أن العمارة الإسلامية استمدت معظم جذورها من الحضارات السابقة لها وخاصة العمارة البيزنطية والساسانية وأن العمارة الإسلامية أول ما نشأت كانت على أيدي رجال تلك الحضارات.

وفي هذه الإدعاءات الكثير من الغلو والتحامل ذلك أن البلاد التي فتحها المسلمون كانت تعاني وقت فتحها أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية وكانت هذه الأزمات قد ألقت بظلالها على الجانب الفني المعماري، فكانت الفنون بصفة عامة وفن العمارة بصفة خاصة تعرف حالة من الركود والاضمحلال، وهذا شأن كل الحضارات فإنها في الغالب مرتبطة بالجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وفي هذه الإدعاءات الكثير من القصور فإن ظاهرة الاقتباس ظاهرة عامة لا تتفرد بها العمارة الإسلامية، فما من عمارة إلا واقتبست عن غيرها، بل إن ظاهرة الاقتباس تكاد تكون ظاهرة صحية فهي دلالة على المرونة والحيوية.

ويؤكد هذه الأقوال المستشرق "G.Marcais" حيث يرى أن الفن الإسلامي المعماري قد ورث مظاهر الفنون القديمة وهي العمارة البيزنطية والساسانية: " ليس شخصية الفن الإسلامي موضوع جدل ، إلا أنه وهو آخر وليد في فنون عالمنا القديم لا بد أن يكون مدينا بالكثير للفنون التي سبقته ، ولما كان مهد الفنون آسيا الغربية التي شهدت ازدهارها أكثر الحضارات أهمية ، فقد جني من تراثها ولكنه أضاف ما شاء ، ثم

¹ - محمد الباجي بن مامي: مرجع سابق، ص 07.

أعطى هذه العناصر طابعه الخاص، أعطاها وجها جديدا لا يمكن معه التعرف على أصولها".¹

ونحن لا نتعجب من المستشرقين في إدعاءاتهم ولا انسياقهم وراء نسق معرفي معين بقدر ما نتعجب من انسياق المسلمين وراء نفس الإدعاءات والسير في نفس النسق المعرفي.

ونحن لا ننكر البتة أن العمارة الإسلامية قد نهلت من طرز العمارات المختلفة، ولكننا نظن أن تعاليم الإسلام قد أثرت تأثيرا بالغا في مجال العمارة، ونعتقد أن ملامح العمارة الإسلامية بدأت تظهر منذ إنشاء المسجد النبوي في المدينة في السنة الأولى من الهجرة، ثم ما فتئت هذه النظرة تتأكد مع مرور السنوات وخاصة عند إنشاء مدينتي الكوفة والبصرة.

إنّ القول بأن العمارة الإسلامية قد نشأت وتبلورت مع إنشاء المسجد الأموي مغالطة بالغة الخطورة وينبغي علينا أن ندرك الأهداف الكامنة وراءها، إنّه لا يمكن أن نبدأ التأريخ للعمارة الإسلامية منذ هذا التاريخ، فهذا يعني أننا نبدأ التأريخ لهذه العمارة بعد مرور ستة وثمانين سنة عن بناء أول مسجد في الإسلام، فلا شك أننا نهدر زمتنا معتبرا.

إنّ التأريخ للعمارة بالمسجد الأموي يعطي أولوية كبرى لعامل الأشكال وهو إن كان أمرا هاما فإنه لا ينبغي أن ننسى أمورا كثيرة ترتبط بالعمارة وهي الممارسة الاجتماعية والثقافية والدينية، أي أننا نهمل روح العمارة الإسلامية التي طبعتها بطابعها الخاص.

إن رجلا مثل " كريزويل " يصرح بأن في فترة الخلافة الراشدة كان هناك فراغا معماري شبه كامل بحيث أن صفة " عربي " لا يصح استعمالها أبدا للإشارة إلى العمارة الإسلامية² ويؤكد بابا دوبولونفس الأمر، ففي اعتقاده أنه لا النبي (صلى الله

¹ - Gorges Marçais : L'art Musulman, presses universitaires de France, paris – p 01.

² - كريزويل: الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبد الهادي عبلة، نشر وتوزيع دار قتيبة، دمشق. ط. 1984.

عليه وسلم) ولا الخلفاء الثلاثة ولا المؤمنون قد تصوروا ولومرة واحدة وجود تعبير فني للعمارة خاص بهم.

ومحاولة إيجاد فترة فراغ ممتدة من 1 هـ إلى 86 هـ هي محاولة صريحة للقول بان العمارة الإسلامية لم تنشأ إلا بعد أن اطلع العرب المسلمون على روافد الحضارة البيزنطية في الشام وبالتالي تأكيد نظرتهم في تأثر العمارة الإسلامية بالعمارة البيزنطية.

وقد اعتمد هذا التاريخ الكثير من العلماء والأثريين العرب فأغلبهم بدأ التاريخ للعمارة الإسلامية من فترة بناء المسجد الأموي، فيرى عفيف بهنسي أن العمارة الإسلامية تكونت في بلاد الشام،¹ وهو حين يتحدث عن المسجد النبوي، يذكر أنه كان مجرد سقيفة أقيمت على طرف من أطراف الصحن، وهي مبنية من الأغصان والطين مرتكزة على جذوع النخيل... و هكذا فإن هذا المسجد الأول لم يكن ليحمل أي صفة معمارية، إلا أنه حدد المخطط الأول لمساجد المستقبل.²

ونعتقد أن هذا الرأي ينساق وراء فكرة وجود فراغ معماري، فقد دلت كتب السنة على استعمال بعض الطرق الإنشائية كالسميط، وهي توحى بوجود بوادر فكر معماري، قد لا يرقى إلى ما كانت عليه العمارة في بلاد الشام ولكنه يدل على وجود بعض التقاليد المعمارية.

كما دلت النصوص النبوية أن الناس كانوا يبنون بيوتا فخمة في المدينة المنورة، وكانوا يبنون المساكن ذات الطابقيين وأنهم كانوا يبنون بيوتا مرتفعة عالية ولا يعقل أن هذه الدور والمساكن كانت تبنى دون مراعاة أي تقاليد معمارية.

¹ - عفيف بهنسي: مرجع سابق، ص 14.

² - نفسه، ص 14.

الباب الأول

العمارة الإسلامية و مظاهرها

الفصل الأول: العمارة الدينية

الفصل الثاني: العمارة المدنية

الفصل الأول

العمارة الدينية

أولاً: المسجد

ثانياً: المدرسة

أولاً: المسجد

كان المسجد ولا يزال في أغلب المدن الإسلامية المركز الروحي لهذا نجده دائماً يحتل وسط المدينة، تلفه الوحدات المعمارية المختلفة.

ومنذ تأسيس المسجد النبوي في المدينة ظل المسجد أهم الوحدات المعمارية داخل المدينة، من حيث الموقع والتخطيط، كما كان يمثل أكبر وحدة معمارية داخل المدينة، وعند تأسيس البصرة والكوفة حافظ المسجد على هذه الوظيفة، فكان أهم الوحدات وأكبرها على الإطلاق.

وتطور بعد ذلك الهدف من إنشاء المساجد وعمارتها، ولم يعد المسجد المكان البسيط الذي تؤدي فيه الصلوات، بل صار مظهرًا من مظاهر الأبهة، ومظهرًا من مظاهر قوة الحاكم ونفوذ سلطانه وتباهي الحكام والأمراء في بناء المساجد، كما فعل المماليك حين بنوا المساجد في شمال القاهرة.¹

ومع التطور الحضاري الذي شهدته الأمة الإسلامية، فإن دور المسجد ومكانته بدأ في التراجع أمام قصر الحاكم أودار الإمارة، وصارت شخصية الحاكم تغطي على كل الجوانب داخل المجتمع الإسلامي، فصار المسجد يرتبط بقصر الحاكم ودواوينه، كما كان الشأن في بغداد، ثم انفضّل المسجد عن القصر، الذي ظل يحتل مكانة داخل المدينة، فبالغ الخلفاء والحكام في إنشاء القصور وزخرفتها وبذلوا الأموال الطائلة في ذلك. أما المسجد فلم يعد يلقي نفس العناية التي كان يحظى بها في العصور الإسلامية الأولى، ولم يعد المسجد يتوسط المدينة كما يمكن أن نلاحظ ذلك من خلال موقع المسجد الأزهر داخل مدينة القاهرة.

و نلاحظ أنّ تخطيط المسجد صار أمراً ثانوياً يلي قصر الخلافة في التخطيط والإهتمام، وغالباً ما كانت أبعاد القصر أكبر من أبعاد المسجد. وهكذا فقد المسجد مكانته ولم يعد يمثل مركز ثقل المدينة الذي تلتف حوله باقي المراكز العمرانية المختلفة.

عبد الباقي إبراهيم: تأصيل القيم الحضارية في بناء المدينة الإسلامية المعاصرة، مطبوعات الجامعة، بغداد ص 33.

1. أصل المسجد:

يعتبر المسجد من أهم المنشآت المعمارية في الإسلام، بل إنه أصل كل المنشآت الدينية والمحور التي تقوم حوله باقي الوحدات المعمارية الأخرى في المدينة الإسلامية.

وسنحاول هنا التعرف على بعض آراء المستشرقين الزاعمة أن المسجد ذا جذور بيزنطية أو فارسية.

يعتقد قولفان (Golvin) أنه لا يمكن الحديث عن موسوعة معمارية عربية والمباني البسيطة التي وجدت في مكة، والمعلومات البسيطة التي وردت بشأنها لا تسمح بافتراض وجود مبان فخمة، ومع كون الكعبة هي أعظم ما قدسته العرب فإنها ذات عمارة بسيطة، ومن هنا فإنه يستبعد أن تكون عمارة مكة قد أثرت في العمارة الإسلامية في بدايتها وهذه الفرضية دفعت قولفان إلى البحث عن أصل المسجد في الحضارات القديمة، وهو يرى أنه يوجد تشابه كبير بين المخطط العام للمسجد والمعابد اليهودية، وخاصة تلك التي اكتشفت في دورا أوروبوس (Dura Europos) والتي يعود تاريخ إنشائها إلى سنة 256 ق.م. (أنظر الشكل 8)

والمبنى عبارة عن مخطط مستطيل يتكون من مساحة ذات عشرة أمتار (10م) عمقا وثلاثة مترا عرضا، وبه قاعة للعبادة عرضها 13.65م وعمقها 7.68م. أما ارتفاعها فيبلغ ستة أمتار.

ونجد داخل قاعة الصلاة بالواجهة الداخلية كوة باتجاه بيت المقدس.

ويستخلص Golvin أن هذا المبنى يتكون من:

- وجود ساحة ذات أبعاد مساوية تقريبا لأبعاد قاعة الصلاة في المسجد.
- وجود أروقة في الجهات الثلاث للساحة.
- وجود الكوة (المحراب) باتجاه بيت المقدس.
- قاعة العبادة عرضها أكبر من عمقها.¹

ومن خلال هذه الملاحظات العامة يقرر وجود تشابه كبير بين هذا المعبد والمسجد النبوي، مع وجود بعض الفروقات، مع كون المعبد يحتوي الكثير من

¹ - Lucien Golvin, « La mosquée » I.E.S.I, Alger, 1960.p34.

خصائص المساجد الإسلامية الأولى. ومخطط دوروأوروبوس يختلف عن مخطط المسجد، فهو لا يحتوي على أعمدة، و يحتوي مقاعد حجرية على طول الجدران تستعمل لجلوس المصلين.¹

وينحو المستشرق كريزويل نفس المنحى، فينطلق من نتيجة ثابتة لديه، فالعرب الفاتحون أخذوا الكثير من غيرهم في مختلف المجالات الإنسانية، مثل دواوين الحكومة والنقود، فهم لم يجلبوا معهم أي جهاز إداري من الجزيرة العربية، ولم يكن لهم أي شيء يشبهه، لذلك تبنوا الأنظمة الإدارية السائدة في سورية وفارس، وفعّلوا نفس الشيء مع السكة، فقد ظلوا زمنا طويلا يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية قبل سك نقودهم.²

ويلحق بهذه المجالات مجال العمارة، فالعرب لم تكن لديهم تقاليد راسخة في مجال العمران ولا الفن، وكان اعتمادهم في ذلك على ما وجدوه في سوريا وبلاد فارس.

ويؤيد مانويل جوميث مورينو هذا الإتجاه، فبالنسبة إليه جاء المسجد على إثر الكنيسة، وأخذ الكثير من عناصره المعمارية من البازليكا، وفي نظره أن وفاء المسجد لمبادئ العقيدة الإسلامية، حال دون بلوغه، ما بلغته البازليكا من روائع.³ ويرى كريزويل أن المسجد الأموي في دمشق يعطينا مثالا واضحا عن تأثر عمارة المساجد بغيرها من العمارات، ويرى أن هذا المسجد هو أكثر المساجد تأثرا بمخطط البازليكا المسيحية، ولم يتوقف كريزويل عند هذا الحد بل حاول أن يتتبع الأصول المعمارية للمسجد في التاريخ الفارسي، والهلنستي والقبطي والسوري. ويقرر كريزويل أن التشابه بين القصور الفارسية والمساجد الأولى غير قابل للمناقشة، وحسبه أن المسجد هو مجرد استنساخ للكنيسة البيزنطية، فصدر الكنيسة نشأ عن تقليده المحراب في المسجد وجناحها نتج عنه ميلاد الرواق.

¹ - - Lucien Golvin op.cit 34.35

² - كريزويل: مرجع سابق، ص 61-62.

³ - مانويل جوميث مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة عبد العزيز سالم ولطفي عبد البديع، مؤسسة شباب الجامعة، ص 11

وحين سقطت الخلافة الأموية، أدى هذا الأمر إلى الابتعاد عن طراز البازليكا السورية، وأدى انتقال الخلافة إلى بغداد إلى ظهور توجه ثقافي وفني جديدين مسيطرة عليهما التقاليد الساسانية، ذات التأثيرات الهلنستية، فنتج عن ذلك طراز معماري جديد، وظهرت في هذه المساجد السقوف المسطحة دون العقود، وهوتقليد كان شائعا في القصور الفارسية.¹

ويذهب كريزويل إلى أبعد من هذا، فهو يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقم بإنشاء المسجد في المدينة المنورة، وكل ما قام به هو بناء بعض البيوت لسكانه: "عندما هاجر محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في عام 622م كنتيجة لعداء المشركين، بنى بيتا لنفسه وعائلته، وهو بناء طيني مساحته حوالي مائة ذراع مربع (100 ذراع)، ترتفع جدرانه سبعة أذرع (7 أذرع)، ورواق في الجانب الجنوبي... ومقابل الجانب الخارجي من الجدار الشرقي بنيت حجرات صغيرة لنسائه...".² ومثل هذه الآراء لا تصدر إلا من نفس استعمارية، لا تفر بالفضل إلا لمن كان على شاكلتها ومن أصولها الأوروبية المستبدة.

أما المآذن التي ظهرت في سامراء وأبي دلف، فترجع إلى الزيغورات البابلية أو أ براج بابل.³

فالمسجد كما رأينا إن لم يكن متأثرا مسيحيا فهو متأثر فارسي، والمستشرقون محقون إن تعلق الأمر بالمسجد الأموي، فكما هو معلوم فقد حولت كنيسة القديس يوحنا المعمدان إلى مسجد، فلا شك أن هذا التحويل كان له أثره خاصة على المخطط العام للمسجد، ولا شك أيضا أن العرب قد تأثروا بالعمارة الفارسية عند انتقال الخلافة إلى بغداد، غير أن الأمر لا يستقيم إذا تحدثنا عن المسجد النبوي الذي أسس في السنة الأولى للهجرة، فلا نعلم كيف أثرت الحضارات السابقة على مخططه العام، وهو النموذج الذي بنيت عليه سائر المساجد الأولى في الإسلام، ونفس الأمر يقال على مسجد البصرة والكوفة.

¹ - Lucien Golvin, op.cit.p36

² - كريزويل: مرجع سابق، ص 16

³ - نفسه، ص 367.

ونخلص إلى أنّ المسجد ابتكار إسلامي في شكله ومخططه العام، ابتداء من المسجد الذي أنشأه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ثم المساجد الأولى في الإسلام، ثم طرأت عليه زيادات معمارية أثرت في شكله العام. ولعلّ هذه الزيارات التي جاءت لاحقا يكون المسلمون قد أخذوها عن غيرهم من الحضارات وأضفوا عليها صبغتهم الخاصة، بما يتماشى مع تعاليم الإسلام.

2. العناصر المعمارية للمسجد

أ. المئذنة:

تعتبر المئذنة من أهم العناصر المعمارية في المسجد، بل إن أكثر ما يميز المسجد في الإسلام هو المئذنة، وتضفي المئذنة على المسجد الكثير من الجمال والقداسة.

والمئذنة بناء مرتفع يقع عادة في أحد أركان المسجد، وتقوم المئذنة بعدة وظائف، فتستعمل للأذان وللمراقبة ولهداية عابري السبيل... إلخ وتطلق على المئذنة عدة تسميات، فتسمى المئذنة لاستعمالها للأذان، كما أطلق عليها تسمية المنارة نظرا لتشابهها الكبير مع منارة الإسكندرية، وسميت الصومعة، وهذه التسمية شائعة في بلاد المغرب.¹

ووقع اختلاف كبير بين العلماء من مؤرخين وأثريين في تحديد أصل المئذنة وكيفية تطورها، والمتفق عليه بينهم أن المسجد النبوي لم يكن له مئذنة، وكان المؤذن يؤذن من أعالي السطوح، وبعد فتح مكة أذن المؤذن من فوق سطح الكعبة² وينطبق الأمر على المساجد الأولى في الإسلام، فهي لم توجد بها مآذن.

ويرجع الكثير من المؤرخين تاريخ ظهور المآذن إلى المسجد الأموي بدمشق، فتذكر الروايات أن المسجد الأموي كان له ثلاثة مآذن، وكانت هذه المآذن عبارة عن أبراج للمعبد الوثني الذي كان قائما في المكان الذي اتخذه المسلمون مسجدا، وكان

¹ بلحاج معروف: العمارة الدينية في وادي ميزاب. رسالة دكتوراة دولة، مخطوطة، كلية الآداب، جامعة تلمسان. 2001، ص220.

² Lucien golvin: op.cit. p52

النصارى قد حولوه إلى كنيسة يوحنا المعمدان، ويميل أغلب المستشرقين إلى الأخذ بهذا القول.¹

أما المآذن في المسجد النبوي فلا يمكن الحديث عنها إلا ابتداء من سنة 706م، فقد أمر الوليد بن عبد الملك بإنشاء أربعة مآذن تقوم في الأركان الأربعة للمسجد، ويرجح المستشرق سوفاجي بأن هذه المآذن هي الأولى في الإسلام، ويرى بعض المؤرخين أن أول المآذن ظهوراً هي تلك التي أمر ببنائها الوالي الأموي مسلمة بن مخلد في كل من مسجد البصرة والفسطاط سنة 52 هجرية، وكانت هذه المآذن عبارة عن أبراج ذات قاعدة مربعة، وقد انتشر هذا الطراز في مختلف البلاد الإسلامية، قبل أن تظهر طرز جديدة.

وبعد سقوط الخلافة الأموية وانتقال السلطة إلى العباسيين ظهر طراز آخر من المآذن، عرف بالمآذن الحلزونية، ونجد طراز هذه المآذن في كل من: مسجد سمراء، ومسجد أبودلف، ومسجد أحمد ابن طولون في مصر، ويعتبر هذا الطراز من التأثيرات الفارسية.²

وعرفت عمارة المآذن تطوراً سريعاً، سواء من حيث الزخرفة أو التصميم، فاتخذت شكلاً اسطوانياً مستديراً أو قلمياً، في كل من إيران وتركيا، أما في مصر فقد ظهر طراز مركب من المربع والمثلث والأسطواني.

واتخذت المآذن شكلاً هرمياً ناقصاً في مساجد وادي ميزاب، وهولاً شكلاً طرازاً تفردت به هذه المنطقة، وينتج الشكل الهرمي عن ميلان واجهة المئذنة إلى الداخل في شكل إنسيابي، وتضييق الجدران كلما زادت في الارتفاع، ويرجع بعض الباحثين أصول هذه المئذنة إلى سنة 17 هـ، فهي تشبه إلى حد كبير مئذنة مسجد عمر بن الخطاب في دومة الجندل.³

ويعكس لنا تطور طراز المآذن بشكل سريع الحيوية التي يتميز بها الفكر المعماري الإسلامي، فهو في حركية دائمة تتميز بالجدية والابتكار، ونادراً ما يستقر على طراز واحد، دون أن يضيف عليه صبغة جديدة، أو يزيد فيه بما تقتضيه البيئة التي

¹ Lucien golvin: op.cit. P52

² Lucien golvin: op.cit. p52

³ معروف بلحاج: مرجع سابق، ص 222

يعيش فيها الفنان، أوبما يقتضيه تغير الزمان، وهذا ما يفسر لنا هذا التنوع الكبير في مجال العمارة الإسلامية، فتختلف النماذج من فترة زمنية إلى أخرى، كما تختلف من منطقة إلى أخرى.

وتوزع هذا التنوع على ثلاثة مستويات رئيسية:

المستوى الأول: عند استعمال مواد البناء، فينطلق الفكر المعماري، من مبدأ الاعتماد على مواد البناء المتوفرة في البيئة، فيعتمد المعماري المسلم على مادة الصخر في المناطق التي تتوفر على هذه المادة، ويعدل عن استعمالها إذا فقدت ويستبدلها بالآجر أو الطين في المناطق التي تتوفر بكثرة على هذه المواد.

المستوى الثاني: وهو عند التصميم والإنشاء، وندرك هذا الأمر جليا من خلال المقارنة بين العمائر الإسلامية ذات الطابع الواحد كالمساجد والمدارس والمآذن التي نحن بصدد الحديث عنها، فغالبا ما تتأثر هذه المنشآت بالطابع البيئي الذي أنشئت به، فبينما نجد كل المآذن في العالم الإسلامي غير مغطاة، فإن المآذن في وادي ميزاب كلها مغطاة وغير منكشفة على السماء، ولا يخفى هنا التأثير البيئي على هذا النوع من التصميم.

فبالجوء إلى تغطية المئذنة، يوفر الوقاية للمؤذن من الحرفي فصل الصيف، ويوفر له الوقاية من البرودة القاسية شتاء، كما تحميه من العواصف الرملية التي تكثر في الصحراء.¹

المستوى الثالث: وهو الذي يمكن من خلاله أن تبرز الحركة الدائمة في مجال الفكر العمراني، وهو الزخرفة.

تختلف الزخرفة أيضا اختلافا بينا، فهي في المنشآت الدينية غيرها في المنشآت ذات الطابع المدني (المسكن، القصر..)، وهي عند الأغنياء تختلف عن تلك التي عند الفقراء، والزخرفة في مدن التلّ، تفارق الزخرفة في الجنوب...

¹ معروف بلحاج: مرجع سابق، ص 225

ب. المحراب:

والمحراب المكان المفضل من البيت أو الغرفة، وهو صدر البيت، وأكرم موضع فيه، قال امر القيس: كغزلان رمل في محاريب أقوال.

قال الزجاج: المحراب أرفع بيت في الدار، وأرفع مكان في المسجد والمحاريب صدور المجالس.¹

والمحراب هو الحصن يرمى من شرفاته بالحراب، ثم أطلق على الحصن والقصر فسميت قصور غمدان في اليمن: محاريب غمدان، ثم أستعمل للدلالة على مكان العبادة.²

وورد ذكر المحراب في القرآن أربع مرات، في قوله تعالى: "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا"³.

وهو هنا بمعنى حجرة العبادة، أو مكان الخلوة.⁴

وورد مرة ثانية في قوله تعالى: "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا"⁵.

وفي قوله تعالى: "وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ"⁶

وورد بالجمع في قوله تعالى: "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِجَانٍ كَالجَوَابِ"⁷

أما في الاصطلاح المعماري: فهو الحنية المجوفة تكون في حائط المسجد، ويستعمل المحراب عادة لتحديد القبلة، وهو المكان الذي يقف فيه الإمام، وهو بالإضافة إلى وظيفته الزخرفية، فإن له دورا وظيفيا، فهو يوفر لنا الصف الذي يقف فيه الإمام

¹ الفيروز آبا دي: القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ج1، ص305

² الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ج13، ص160.

³ آل عمران، الآية 37.

⁴ محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، قصر الكتاب، البلدة وشركة شهاب، الجزائر، ج2، ص145.

⁵ سورة مريم، الآية 11.

⁶ سورة ص، الآية 21.

⁷ سور قسبا، الآية 13.

في حالة انعدام المحراب وكشأن باقي العناصر المعمارية وقع خلاف كبير بين مؤرخي الفن عن أصل المحراب.

والشيء المنفق عليه أن رسول الله ﷺ لم يتخذ محراباً، ولم يتخذ المسلمون المحاريب في المساجد الأولى التي بنيت في البصرة والكوفة. ويصعب علينا تحديد تاريخ ظهور المحراب، وهنا يفسح المجال واسعا أمام المستشرقين للبحث في الأصول البيزنطية أو الفارسية للمحراب.

فيرى بعضهم أن المحراب انتقل إلى العمارة الإسلامية من عمارة الكنائس أو من العمارة اليهودية، وربما من العمارة القبطية يقول قولفان في هذا السياق: "ونحن نستبعد أن يكون المحراب من ابتكار المسلمين، ويبقى احتمال تأثرها بالفن المسيحي قائماً، وربما تأثرت بدرجة أكبر بالفن القبطي بمصر...".¹

والراجح عند الكثير من علماء اللغات السامية، أن لفظ المحراب حميري من اللهجات العربية الجنوبية، ودخل إلى اليمن عن طريف الحبشة مع الديانة النصرانية، وهو تحريف للفظ (mikrab) وأصله الحبشي (Mekurab) ونعني به الكنيسة أو المعبد أو الحنية، وهو المكان الذي يوضع فيه تمثال القديس غالباً.²

وكان استعمال اللفظ شائعاً في كنائس مصر، ويبقى والاحتمال قائماً في أن اللفظ انتقل من هذا الطريق إلى العمارة الإسلامية، خاصة إذا علمنا أن الوليد بن عبد الملك اعتمد على بنائين من القبط عند إعادة بناء المسجد الأموي. غير أن المحراب لا يعتبر أمراً ضرورياً في الكنيسة، فكثير من الكنائس لا تحتوي على محراب بمدلوله الكنسي، بخلاف المذبح الذي لا يمكن أن توجد كنيسة بدونه، ويعرف باسم (altar).³ (أنظر الشكل السابع)

وتبقى هذه الآراء مجرد افتراضات قد تكون صحيحة، وهذا لا يفقد المحراب الإسلامي وظيفته ولا قدسيته ولا رمزيته، وليس من الضروري أن يشتمل المسجد على محراب، ونكتفي بوضع علامة للدلالة على القبلة، والظاهر أن المسلمين جعلوا طاقات

¹ - Lucien Golvin ; op.cit, P67.

² حسن مؤنس: المساجد، عالم المعرفة، وزارة الثقافة والفنون، الكويت، عدد37، سنة 1988، ص 67

³ نفسه، ص، 69، 68،

صغيرة علامة على القبلة، ليعرف الداخل إلى المسجد مكان القبلة، ثم وسعوها شيئاً فشيئاً، حتى جعلوها على شكل نصف دهليز صغير في جدار القبلة.

واختلف مؤرخو الإسلام في تحديد تاريخ إنشاء المحراب، فتباينت أقوالهم، فأرجع بعضهم ظهوره إلى فترة خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل إن أول من اتخذ المحراب هو مروان بن الحكم، ويتفق أغلب المؤرخين في إرجاعه إلى خلافة عمر بن عبد العزيز (88هـ، 99هـ)، ويرى أحمد فكري أن أول محراب هو المحراب الذي اتخذه عقبة بن نافع في القيروان سنة 50 هجرية 670م.¹

وذكر مؤرخومصر أن أول محراب هو الذي اتخذه عبد العزيز بن مروان في مصر في خلافة الوليد سنة 88 أو 89هـ.²

وكانت المحاريب الأولى في الإسلام، تأخذ شكل المحارة المقلوبة خاصة في جزئها العلوي، كما هو الشأن في محراب مسجد الأقرم بالقاهرة ومحراب مسجد قرطبة.³

لقد ظل المحراب محل اهتمام الفنانين المسلمين على مر العصور، فأبدعوا في وزخرفته بالأشرطة القرآنية، كما زخرفوا إطار المحراب، ومن مظاهر الاهتمام به تتويجه بقبة.

ويرى بعض أهل العلم من الفقهاء أنه يكره اتخاذ المحاريب، لأنها غالباً ما توضع في المكان غير المناسب، فتكون سبباً في ترك الناس التوجه للقبلة، وتركهم الاجتهاد في تحديدها، اعتقاداً منهم أن المحراب في وضعه الصحيح، ويعود هذا الأمر إلى أن الأوائل لم يكن لهم من المعرفة الفلكية ما يجعل تحديدهم للقبلة دقيقاً ومن المساجد التي لم تكن محاربها موجهة إلى القبلة بدقة جامع عمرو بن العاص، وقبلة مسجد أحمد ابن طولون وكانت منحرفة انحرافاً كبيراً، وقبلة مسجد الإمام الشافعي.⁴

3 أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، مطبعة المعارف ومكتبتها، القاهرة 1965، ص60، 59

2- Lucien Golvin : op. cit.P65.

3 حسن مؤنس: نفسه، ص69.

4 الزركشي (بدر الدين محمد بن بهادر): إعلام الساجد بأحكام المساجد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، ص255.

وروي أن سعيد بن جبير كان يكره الصلاة في المحراب، وأثر عن الإمام مالك أنه كان يتنزه عن الجلوس في المحراب.¹

ج. المنبر:

ولفظ المنبر دخل لغة قريش من لهجة اليمن، عن طريق الجماعات المسيحية في نجران، وهو مشتق من النبر وهو العلو والإرتقاء في الصوت وفي رسم الحرف.¹ ذكر كتاب السيرة النبوية أن رسول الله ﷺ حين بنى المسجد النبوي لم يتخذ منبرا وكان يخطب قائما، فشق ذلك عليه فجيء له بجذع نخلة فحفر الناس له وغرسوه في الأرض على يمين رسول الله ﷺ ملاصقا لجدار القبلة، فكان بعد ذلك رسول الله إذا أطال الخطبة استند عليه، فرآه رجل من سكان المدينة فقال: "لو أعلم أن محمدا يحمدي في شيء يرفق به لصنعت له مجلسا يقوم عليه فإن شاء جلس ما يشاء، وإن شاء قام". فبلغ الأمر رسول الله ﷺ عليه وسلم فقال: "انتوني به"، فأمره أن يصنع له المراقي الثلاث، ويذكر السهمودي أنه كان لا يزال قائما في عصره.³

واختلف المؤرخون في سنته وصفته، فذكر ابن سعد أنه كان في السنة السابعة للهجرة وذكر غيره أنه كان في سنة 8 هـ،⁴ وذكر البخاري أنه كان قائما قبل حادثة الإفك.

وكان منبر رسول الله ﷺ درجتان، وكان يقعد على الثالثة، ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة زاد في المنبر فجعله ستة درجات، وكساه قبطية وحين سارت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان أراد أن ينقله إلى الشام، فحين حركه كسفت الشمس حتى رأى الناس النجوم، فعدل عن نقله واعتذر إلى الناس. وفي ولاية المهدي العباسي أراد أن ينقص زيادة عثمان فاستأذن الإمام مالك فثبطه وصرفه عن ذلك. وكان طول منبر رسول الله ﷺ ذراعان

¹ الطاهر بن عاشور: مرجع سابق، ص 161

² حسن مؤنس: مرجع سابق، ص 72

³ السهمودي (علي بن عبد الله): خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، طبعة إلكترونية، شبكة الوراق، ص 112.

⁴ ابن حجر (أحمد بن علي): فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الفكر، ج 3، ص 399.

في السماء وعرض مقعده (ذراع × ذراع) وعرض درجته شبران، فلما زاد فيه عثمان صار سبعة أذرع بإضافة الدكة التي أضيفت تحته، وكانت مصنوعة من الرخام وارتفاعها ذراع وكان المنبر قائماً فوقها.¹

ومصطلح المنبر يظهر أنه عرف منذ عصر الرسول ﷺ عليه وسلم فقد كان يسمى منبراً مع أن السهمودي لم يذكر صراحة أنه كان يسمى منبراً، فسماه تارة "المراقى" وسماه تارة أخرى "الأعواد"، ولكن قضية المصطلح لا تثير جدلاً كبيراً حول المنبر، كما تثيره قضية من صنع هذا المنبر؟

فقد ذكر السهمودي وغيره أن الذي صنع المنبر هو باقوم الرومي، وهو نفسه الذي اعتمدت عليه قريش عند بنائها للكعبة، وقال آخرون هوميون وقيل صباح غلام العباس.²

ويتوسع "Golvin" في أصل المنبر، فيذكر أن الذي بنى المنبر هو غلام قبلي، ويذكر أيضاً أن كلمة "المنبر" ربما قد أخذت من الإثيوبية، ويعتقد أن هذا العنصر المعماري يكون قد دخل إلى البلاد العربية في الزمن الممتد بين القرن 4م و6م، غير أن العرش في إثيوبيا والمسمى منبراً لم يكن من الخشب بل كان من الحجر وله من اثنتين إلى ثلاث درجات كما يحاول أن يجد تشابهاً بين منابر الإسلام والمنبر الذي وجد في "Doura europos" المعبد اليهودي، فقد كان هذا المعبد يحتوي منبراً،³ ويرى أيضاً أن المسلمين ربما يكونون قد أخذوا فكرة المنبر من الأقباط، فقد أظهرت الحفريات في سقارة على وجود منابر تتكون من ستة درجات، ولكن هذا الارتفاع لم يسمح له بإحداث المقاربة مع منبر الرسول لانخفاضه فنذكر ما نصه: "ولا يفوتنا أن ننبه أن مسجد الرسول ﷺ عليه وسلم كان منبره منخفضاً مما يدفع عنها التقارب مع المنابر المسيحية".⁴

وأياً كان الأمر فإن أخذ هذا العنصر المعماري من الحضارات السابقة، إن ثبتت ادعاءات المستشرقين لا ينقص من الإسلام شيئاً، بل هو دليل على تفتح الإسلام على

¹ السهمودي: مصدر سابق، ص 113.

² نفسه، ص 113، أنظر ابن حجر ج3، ص399.

³ Lucien Golvin: op.cit. p75.

⁴ ibid, p75.

كل الحضارات و تقبله للفنون الراقية. كما أنّ الفنانين المسلمين قد طوروا هذا العنصر المعماري وأدخلوا عليه لمسات جمالية حتى صار واحدا من أهم العناصر الفنية والوظيفية داخل المسجد.

وإذا عدنا إلى منبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإنه ليس لدينا أي معلومة عنه أو عن غيره من المنابر و ما كانت عليه منابر الخلفاء وكل ما وصل إلينا أنّ الخلفاء كانوا ينقلون المنبر معهم أينما ارتحلوا ولم يكن شائعا اتخاذ المنابر المتعددة كما هو الشأن اليوم. ومن المعلومات القليلة التي وصلتنا عن المنابر، أنّ منبر عمرو بن العاص في الفسطاط كان مرتفعا جدا¹، وهذا ما يفسر قول عمر بن الخطاب حين بلغه أنه اتخذ منبرا: " اتخذت منبرا تقوم به على رقاب المسلمين"²، ويظهر أنّ المنابر المتأخرة في الإسلام قد تأثرت بمنبر عمرو بن العاص.

ومن اهتمام المعماري المسلم بأمر المنبر وحتى لا يضيق من فضاء قاعة الصلاة خاصة إذا كان ضخما، فإنه اهتدي إلى حل إنشائي لإخفاء المنبر فاتخذ له بيتا خاصا به يقع على يسار المحراب.

وشاع اتخاذ هذه البيوت للمنابر في بلاد الأندلس منذ أن زاد الحكم المستنصر زياداته في بيت الصلاة بجامع قرطبة، فقام بفتح كوة تستعمل للمنبر واتخذ له رجل وقضبان يسير عليهما، فإذا كان يوم الجمعة أخرجوه.³ وذكر الونشريسي أنه ظهرت بدعتان في بلاد المغرب (جامع تلمسان).

أولها: ضخامة المنابر عن نظائرها في المشرق، والثانية أنهم كانوا يدخلون المنبر في بيت خاص في المسجد إذا فرغ الخطيب من خطبته.⁴ وفي المناطق الصحراوية من الجزائر، نجد أنّ المعماري أدخل عنصر المنبر في جدار القبلة، ويرجع هذا الابتكار إلى أمرين: الأول من أجل ربح الفضاء الذي يشغله المنبر، والأمر الثاني نذرة مادة الخشب التي يصنع منها المنبر عادة. (أنظر اللوحة التاسعة)

¹ Lucien Golvin: opcit, p 75.

² ثغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة ج1، ص67.

³ عبد العزيز سالم: قرطبة، ص 344.

⁴ كمال السيد أبو مصطفي: جوانب من الحياة الاجتماعية، والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مركز الاسكندرية للكتاب، 1996، ص 43.

ثانياً: المدرسة

كان التعليم على عهد رسول الله ﷺ يتم عادة في المسجد، واستمر الأمر على ذلك مدة الخلافة الراشدة، ثم صار بعض العلماء يلقون الدروس في بيوتهم، وكان أبناء الخلفاء يقصدونهم إلى بيوتهم فينقطعون إليهم، فتذكر كتب السير أن الإمام مالك كان يلقي دروسه في بيته، وكان خلفاء بني العباس يرسلون إليه أبناءهم ليلقنهم أمور الدين في بيته¹.

ولم يفكر المسلمون في إنشاء المدارس إلا ابتداء من القرن الخامس الهجري، حين أنشأ نظام الملك شاه السلجوقي مدرسة لتعليم العلوم الدينية والفلسفة والتاريخ والفلك والرياضيات، وجعل التعليم فيها مجانياً، وخصص للأساتذة والطلاب على السواء رواتب يتقاضونها بصورة منتظمة، كما أوقف لهذه المدرسة الأوقاف لنفقاتها الخاصة، فاكتمت مدرسته شهرة خاصة، واشتهرت بالمدرسة النظامية².

ثم سرعان ما انتشرت المدارس في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتنافس الأفراد والسلطين في إقامة المدارس المختلفة، وصار بناء المدارس وقفا على الخلفاء والسلطين، ذلك أن بناءها يتطلب نفقات ضخمة يصعب على غير السلطين الانفراد بها، أما تسييرها فيتطلب نفقات ضخمة، تتمثل في نفقة الطلبة والأساتذة وتوفير المأكل والمشرب للمقيمين ودفع أجور العمال، وتوفير الكتب اللازمة لدراسة الطلبة.

ولا تكاد المدارس في العالم الإسلامي تختلف عن بعضها البعض، من حيث وظيفتها ولا بنائها عن المخطط العام للمسجد، إلا أنها أكمل وأجمع لأغراض الدراسة المتصلة بها، فهي تحتوي على قاعات للدرس وسكن للطلبة والأساتذة ومكتبة ومصلى... إلخ

فالمدرسة في أصل نشأتها تطور للمسجد، ويتكون مخططها العام من صحن مكشوف تحيط به أربعة أيوانات وعلى جانبها غرف بطابقين لسكن الطلبة

¹ - مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط3، 1991، ص 50.

² قصي حسين: موسوعة الحضارة العربية، العصر الفاطمي والأموي، دار البحار، بيروت، 2005، ص 370.

والمدرسين، زيادة على مصلى للطلبة، وقاعات كبيرة لإلقاء الدروس والمحاضرات، وقاعة لحفظ الكتب وملحقات أخرى كالحمام والمرحاض والمطبخ وغيرها.¹

وشيد المرينيون جملة من المدارس العظيمة، كالمدرسة المتوكلية، كما شيّدوا جملة من المدارس في مدينة تلمسان كمدرسة سيدي الحلوي ومدرسة العباد (787هـ/1347م).²

كما أنشأ الزيانيون مدارس هامة لتدريس العلوم الشرعية، مثل مدرسة ولدي الإمام سنة 710هـ/1310م، والمدرسة العتيقة التي بناها السلطان أبوتاشفين سنة (718هـ - 767هـ) والمسماة المدرسة التاشفينية.³

واشتهرت بعد ذلك مدينة القاهرة بمدارسها المختلفة، فقد اهتم المماليك وأكثرها من إنشاء المنشآت الدينية التي وصلت إلى أرقى مستوى من التنظيم والتسيير، وأرست هذه المدارس أنظمة وتقاليد علمية تأثرت بها واتبعتها الجامعات الأوربية.⁴

وساعد نظام الوقف على ظهور وبقاء هذه المؤسسات، فقد كان للأوقاف المخصصة لهذه المدارس الأثر البالغ في استمرار هذه المؤسسات في أداء وظائفها المختلفة.⁵

ولعل أشهر هذه المدارس هي المدرسة المستنصرية، والتي سنحاول إلقاء بعض الضوء عليها لإعطاء فكرة على ما كانت عليه المدارس الإسلامية في بداية نشأتها.

المدرسة المستنصرية:

تحمل هذه المدرسة اسم مؤسسها، وهو الخليفة العباسي المستنصر بالله ويعود تاريخ إنشائها إلى سنة 630هـ.

¹ - غازي رجب محمد: وظيفة العمارة العربية الإسلامية التجارية من الشكل إلى المضمون، ص 133.

² - عبد العزيز لعرج: المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، رسالة دكتوراة، جامعة الجزائر، 1999. ص 316.

³ - نفسه، ص 321.

⁴ - محمد عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 242.

⁵ - نفسه، ص 214.

وتعتبر هذه المدرسة نموذجا جيدا لكل من يحاول التعرف على المخطط العام للمدارس في العالم الإسلامي، فقد استطاعت هذه المدرسة المحافظة على عناصرها الزخرفية والمعمارية.

وتتكون المدرسة المستنصرية من صحن مكشوف مستطيل الشكل تتوسطه بركة ماء.

ويطل على الصحن ثلاثة أيوانات:

- الإيوان الأول: يوجد في الجهة الجنوبية.
- الإيوان الثاني: في الجهة الشمالية المطلة على الخارج.
- الإيوان الثالث: في الجهة الشرقية من الصحن وهو يكون المدخل الرئيسي.

أما مسجد المدرسة فيقابل المدخل الرئيسي وهو مفتوح على الصحن بثلاثة عقود. وتلف غرف الطلبة الصحن من جوانبه الأربعة وهي على طابقين، ويبلغ عدد الحجرات أربعة وسبعون (74) حجرة، يضاف إليها قاعات التدريس، وخزائن الكتب، وقاعات مخصصة للأعمال الإدارية والمنافع العامة.¹

ويظهر من وجود الإيوانات تأثرها بطراز المسجد ذي الإيوانات الذي ظهر في العالم الإسلامي، وتؤدي الإيوانات دورا هاما في عمارة المسجد أو المدرسة على حد سواء، فهي تعتبر امتدادا للصحن، كما تستخدم أحيانا لإقامة الصلوات خاصة في زمن الصيف، و يساهم الإيوان في تخفيف درجة الحرارة، ويسمح بحركية سهلة للهواء المنعش وخاصة في الليل.

ولا تمتلك المدرسة المستنصرية إلا مدخلا واحدا، وهو عبارة عن واجهة ضخمة مرتفعة بارتفاع البناء وتنتشر على سطحها الزخارف الهندسية.²

¹ - غازي رجب محمد: مرجع سابق، ص 133.

² - نفسه، ص 135.

الفصل الثاني

العمارة المدنية

أولاً: البيت

ثانياً: دار الإمارة

ثالثاً: الحمامات

رابعاً: الأسواق

خامساً: البيمارستان

سادساً: الشوارع والطرق

أولاً: البيت الإسلامي

يعتبر البيت الوحدة المعمارية الأساسية التي تتألف منها المدينة الإسلامية، ويكاد البيت الإسلامي لا يختلف في مظهره الخارجي، فلا نكاد نفرق بين بيوت الفقراء وبيوت الأغنياء، وفي هذا الأمر دعوة المسلمين إلى التساوي، والتي تبدأ من المسجد لتعم جميع مظاهر الحياة الاجتماعية مصداقاً لحديث رسول الله (الناس سواسية كأسنان المشط)، واحتراما لمشاعر الفقراء الذين لا يستطيعون إنجاز المنازل الفخمة.

والبيت الإسلامي الذي نتحدث عنه يختلف اختلافا تاما عن البيت الذي اتخذه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المدينة المنورة وأسكن فيه أزواجه بجوار المسجد، والذي كان يتكون من غرفة واحدة ذات سقف منخفض، ويبدو أن المنازل التي شرع الصحابة في بنائها بعد ذلك تختلف عن النموذج الذي بناه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولا نعرف الشيء الكثير عن هياكلها المعمارية ولا عن زخارفها، وكل ما وصل إلينا في كتب التاريخ أنها كانت دورا فخمة، ونعتقد أن عبارة "دورا فخمة" لا تعني الشيء الكثير، ففخامتها نسبية، مقارنة بغيرها من الدور التي ظهرت في بداية الإسلام.

وأظهرت بعض الحفائر التي أجريت في مدينة سامراء، وجود بقايا لبعض المنازل العربية تعود إلى القرن 3 هـ، وانطلاقاً من هذه الآثار استطاع الأثريون تحديد الطريقة والشكل الذي كانت عليه هذه المنازل.

فالدور في سامراء متشابهة، فندخل إليها من الشارع عن طريق دهليز مسقوف يفضي إلى صحن قائم الزوايا يبلغ عرضه ثلثي طوله عادة، ويوجد على جانب الدهليز قاعة كبرى، تحيط بها قاعات أقل شأنًا - حجماً - منها وهي غرف للسكن والمرافق المنزلية، ولا تخلوا الدار من مرافق أخرى كالحمام والمجاري المائية تحت الأرضية، كما تشتمل هذه الدور على سرايب للسكن مهياً بوسائل التهوية، وهي تتكون من طابق واحد.¹

¹ - أدمر متيز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تعريب محمد عبد الهادي، دار الكتاب العربي، ج1،

ولم يكن شائعاً عند أهل سامراء خاصة ولا بلاد الإسلام عامة السكن في السرايين، وكانت مدينة زريخ بسجستان أول من سكن أهلها السرايين. وفي القرن 5هـ، كان من خصائص مدينة أربان أن أبنيتها كان ما تحتها مثل ما فوقها، وكان الماء يجري فيها تحت الأرض،¹ ويذكر المقرئزي أن من محاسن مصر: أن أهلها لا يحتاجون لسكن تحت الأرض في الصيف كما يفعل أهل بغداد.² وفي مدينة مصر عثر على بيت عربي يعود تاريخه إلى سنة 285هـ / 900م، في مدينة العسكر، ويتكون هذا البيت من إيوان أوسط وقاعتين مستطيلتين على جانبيه، وتتقدم الوحدات الثلاثة سقيفة تفتح على فناء الدار، وهويشبه الأسلوب الذي ذكرناه سابقاً في سمراء إلا أنه يعود إلى فترة متقدمة وهي ممتدة ما بين 223هـ، 276هـ / 837م، 891م.

وجاء تصميم هذا البيت المصري وفقاً للطراز السائد في الحيرة، وهويكون من إيوان أوسط وقاعتين جانبيتين مستطيلتين وتتقدم الوحدات الثلاثة سقيفة مستعرضة تفتح على الفناء، من خلال ثلاث فتحات:

كما كشف عباس حلمي عن دار ترجع إلى العصر الطولوني، معتمداً على طريقة زخرفتها، التي تمت بطريقة الزخرفة في طراز سمراء، وتتكون الدار من: فناء كبير تفتح عليه جميع وحدات الدار، وهي مكونة من جناحين - قاعتين - رئيسيتين في الجهة الشمالية والجنوبية، ثم قاعة ثالثة بحجم أصغر ملاصقة للقاعة الجنوبية، ثم تأتي بقية ملحقات البيت من مطبخ وحمام وممرات.³ (أنظر الشكل الأول)

أما في مدينة الفسطاط فقد كشف الأثريون على بعض المنازل يرجع تاريخ إنشائها إلى القرن 03 هـ / 09م، حتى القرن 06 هـ / 12م، ثم أرجع كريسويل تاريخها إلى القرن 05 هـ / 11م.⁴

¹ - أدم ميتز: المرجع السابق، ص 211.

² - المقرئزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي): كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط 2، 1987، ج 1، ص 28.

³ - عبد الله كامل موسى عبده: الأمويون وآثارهم المعمارية، دار الأفاق العربية، القاهرة، مصر ط 1، 2003، ص 206.

⁴ - عاصم محمد رزق: أطلس العمارة الإسلامية و القبطية بالقاهرة، مكتبة مدبولي، لبنان، 2000، ص 116.

وتتنفق هذه البيوت كلها، في أنها تحتوي على فناء مكشوف تلتف حوله باقي الوحدات السكنية، ويتراوح شكل البيت بين المربع وشبه المربع، والمستطيل، وساد هذا التوزيع للوحدات في تخطيط 14 بيتا من مجموع 16 بيتا من مدينة الفسطاط.. ويرى الأستاذ فريد شافعي أن هذه المنازل كانت تتكون من عدة طوابق، معتمدا على سمك الجدران المشيدة بالأجر والذي يصل إلى 1 م، مع وجود قنوات عمودية ترتب في الجدران أثناء البناء خاصة قرب المراحيض، ووجود درج صاعد إلى الأعلى، ثم وجود أنابيب من الفخار باتجاه الأعلى مدقوقة داخل الجدران.¹ كما احتوت وحدات هذه المنازل الرئيسية على زخارف نباتية وهندسية ونقوش كتابية كوفية، أما الفتحات فهي غالبا ما تفتح على الفناء لتحقيق عامل التهوية والإضاءة.²

وجاء تخطيط البيت الطولوني على الطراز الحيري، وهو يحتوي على إيوان وقاعتين جانبيتين مستطيلتين، وتتقدم هذه الوحدات سقيفة مستعرضة، وجاء أحد الأجنحة بحجم أصغر وهو مخصص لزوار الدار من الغرباء، وهو منفصل تماما عن باقي وحدات البيت، نصل إليه من المدخل الرئيسي مباشرة، والمدخل الرئيسي عبارة عن دهليز منكسر أو غير مباشر وهو ما يعرف بالمدخل ذوالعطف أو المدخل ذوالمرفق، وهو المدخل الذي يضطر معه الداخل للبيت أن ينحرف مرة أو أكثر من مرة،³ ولم يعرف هذا النوع من المداخل في القديم إلا في مدينة بغداد.⁴

لا تكاد البيوت الإسلامية تختلف إلا نادرا، ويرجع هذا الاختلاف إلى عاملين أساسيين، العامل الأول هو عامل المكان، أي المنطقة التي وجد فيها البيت، وهو يخضع لما ألفه الناس من أعراف وعادات بنائية، كما يخضع إلى عامل البيئة، ويؤثر عامل البيئة على المسكن بطريقتين أولا عامل المناخ، والأمر الثاني هو المواد البنائية المتوفرة.

¹ - عبد الله كامل موسى: مرجع سابق، ص 207.

² - نفسه، ص 209.

³ - نفسه، ص 207.

⁴ - غاسري مسيانا: المعمار الإسلامي في ليبيا، ترجمة علي الصادق حسين، ط1، لبنان: دار الجيل، بيروت

1998، ص 204.

أما العامل الثاني الذي يؤثر على مخطط المنزل العام فهو الحالة الإجتماعية لصاحب البيت، فعادة ما تختلف بيوت الأغنياء عن بيوت الفقراء. وفي الغالب لا ندرك هذا الفارق إلا من الداخل لأن البيوت داخل المدينة الإسلامية القديمة تكاد تكون متشابهة.

وعموما فإن البيت العربي مهما كانت الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها صاحبه فهو يحتوي على المرافق التالية: الصحن، إيوان، القاعات، ونعثر على مرافق ثانوية مثل الباب أو المدخل، الدهليز وغرف الخدمات.

ويلاحظ في البيت الإسلامي الاهتمام بثلاثة مقاصد هامة وهي عامل الدين، الصحة، طبيعة الإقليم.

فالنوافذ في البيت لا بد منها لدخول الهواء والنور ودخول الشمس، ولكنها تفتح على الحوش لا على الزقاق، فيظل كل شيء من أمور الدار داخلها، بعيدا عن أنظار الناس.

1. الباب أو المدخل:

وهو المنفذ الوحيد إلى البيت من خلال الشارع، ويعتبر الباب منطقة عبور من الداخل إلى الخارج، وإن شئنا قلنا بأنه الفاصل بين المقدس وهو داخل البيت، والمدنس وهو الشارع، وتكاد تكون أبواب البيوت متشابهة داخل المدينة الإسلامية، ففي دمشق مثلا تتشابه كل أبواب المنازل، ولا يمكن للباب أن يعكس أهمية المسكن، وفي القاهرة تكون جميع الأبواب متشابهة دون اعتبار للصف الاجتماعي لصاحب البيت،¹ ويمثل هذا الاتفاق مظهرا من مظاهر التكافل الاجتماعي بين المسلمين، إذ يحاول الأغنياء أن لا يتميزوا على الفقراء خاصة أن المدخل هو الشيء الوحيد الذي يراه المار في الشوارع، وهوليس ذي أهمية مقارنة بالمرافق الأخرى، وهذه الأبواب عادة ما تكون من الخشب خالية من أي نوع من أنواع الزخرفة، والباب قد يكون مكونا من دفة أو من دفتين، فإن كان مكونا من دفتين احتوت إحدى الدفات على باب صغير لتسهيل عملية الدخول والخروج.

¹. Bernard maury : Habitat Traditionnel .institut français d'archéologie orientale. P26.

2. الدهليز:

مباشرة بعد فتح الباب فإن الداخل يجد نفسه في ممر ضيق وهو المسمى بالدهليز، وهذه خاصية لا توجد إلا في المسكن الإسلامي، فالباب لا يفتح مباشرة على الشوارع ولكنه يفتح على مدخل محمي أو مدخل منكسر. ولقد كان هذا التقليد المعماري مشتهرا في العمارة الميزوبوتامية، ومعروفا في العمارة الفرعونية، ثم انتشر في العمارة الإسلامية، وصار ذكره مقترنا بها. والدهليز: عبارة عن رواق مستقيم أوزاوية قائمة وغايته الأساسية أن يمنع النظرات المتطفلة إلى داخل الدار، وتختلف أبعاد الدهليز باختلاف نوع البيت، فإن كان البيت متواضع النسب فإن الدهليز يقلص إلى ما هو ضروري فقط، وهو أيضا عبارة عن منطقة انتقال من الخارج إلى الداخل، كما يعتبر مكانا لانتظار الغرباء، قبل انتقالهم إلى قاعات الاستقبال.

3. الحوش: (أنظر اللوحة الرابعة والسابعة)

ويمكن أن نطلق عليه اسم الصحن، وهو عبارة عن عنصر حيوي داخل المسكن، وله وظائف متعددة، بحيث لا يمكن دخول غرفة ما دون الانتقال عبر الحوش ومن ثمة إلى الغرفة الأخرى، وتختلف نسب الحوش باختلاف الصنف الاجتماعي لصاحبه، ويمكن أن يكون الحوش في منازل الأغنياء غاية في الاتساع وغاية في التتميق والترتيب، ويمكن أن نعثر في بيوت الأغنياء على أكثر من حوش، ويشغل الحوش حوالي ثلث (1/3) المساحة المبنية، وأرضيته تكون مغطاة بقطع السيراميك، وموزعة على شكل لوحة الشطرنج.

وإذا كان الحوش أهم ما يميز البيت الإسلامي، فإن الفسقية أو النافورة هي أهم ما يميز الحوش، ولا يكاد يخلو حوش من فسقية، وهي تؤدي دورا هاما في جمالية الحوش و من أجل إنعاش الجو خاصة في فترات الصيف من خلال توفير لنسب من الرطوبة التي تنتج عن رداد الماء.

ونجد داخل البيت الإسلامي ثلاث أنواع من الفسقيات:

1- ovale وهذا إذا كان الصحن صغيرا.

2- مربعة أو مستطيلة

3- دائري polygonaux إذا كان الصحن أكبر من الأول.¹

وعرف الرومان هذا النوع من الإنشاء وكان يسمى عندهم atrium والفرق بين الأثريوم والحوش في العمارة الإسلامية أن الأثريوم هو مجرد مكان للعبور في اتجاه الحرم الخاص بأهل الدار، وفي أحسن الأحوال يستعمل مكانا للانتظار، بينما يمثل هذا الفضاء في المسكن الإسلامي، الجزء الذي تجري فيه معظم النشاطات العائلية.² ويعطينا الحوش فكرة واضحة عن اهتمام المسلمين بالطبيعة، فالحوش عبارة عن حديقة داخلية، فيغرس فيه شجر الياسمين، وشجر البرتقال، والليمون الحلو والحامض، وهي من الأشجار التي لا يتبدل ورقها ولا يتساقط في صيف أو شتاء، بل تظل خضراء نظرة طول السنة، فيصير الحوش جنة غناء، ومن النادر جدا أن يوجد منزل إسلامي خاليا من الأشجار، وتوفر هذه الأشجار زيادة على الفواكه، الظل والروائح الطيبة.

4. القاعات: (أنظر اللوحة السادسة)

وتقع القاعات بجوار الإيوان وهي تحف الصحن من الجهات الأربعة، وهذه القاعات مستقلة عن بعضها البعض، أي لا يمكن الدخول إليها إلا من خلال الحوش، كما تتم تهويتها وإضاءتها من خلال الحوش أيضا. ولا تكاد تختلف هذه القاعات عن بعضها البعض، وتعرف على أساس أنها فضاءات الإقامة (Salle De Séjour)، وهي عبارة عن فضاءات ذات وظائف متعددة، تستعمل للأكل وللنوم والجلوس، فحين يأتي الزائر يستقبل في غرفة ما، و يقدم له الأكل في تلك الغرفة، وحين يريد النوم فإن هذه الغرفة قد تكون هي المكان الذي ينام فيه، وقد تستعمل هذه الغرفة للنشاطات اليومية المختلفة، وهاته القاعات غالبا ما يتحكم في وظيفتها أهمية الزائر واختلاف المواسم، كما تختلف وظائف هذه القاعات باختلاف الوضع الاجتماعي لصاحب البيت، فعادة ما نجد أن بيوت الأثرياء تخصص فيها قاعات للاستقبال وأخرى للنوم والأكل.

¹ - Bernard Maury :opcit . 28-29.

² - غاسري مسيانا: مرجع سابق، ص 205.

في فصل الصيف حين يشتد الحر، فإن أهل البيت يستعملون القاعات الكبيرة والعالية لرتوبة هوائها، وفي الشتاء تستقر العائلة في الطابق الأول، خلف الزجاج الملون الذي يعكس أشعة الشمس، متجنبين الطابق السفلي وبرودة غرفه.¹

5.المطبخ:

والمطبخ هو الفضاء الذي قلما نعثر عليه في المساكن المتواضعة، والذي يظهر أنه من المرافق الذي تختص بها مساكن الأغنياء، ويفترض أنه في غياب المطبخ، فإن النسوة كن يعددن الطعام في زاوية من زوايا الصحن، أما في الشتاء فإن الطبخ كان يتم في قاعة الجلوس.

أما المنازل الفخمة فقد تحتوي غالباً على صحنين، أو حوشين، وعادة ما يقع المطبخ في زاوية من زوايا الحوش العائلي، وقد يحتوي المطبخ على فرن لطبخ الخبز مبني بالآجر، كما يحتوي على مدخنة *grande hote*.²

6.الإيوان: (أنظر اللوحة الرابعة والخامسة)

والإيوان في المنزل يتواجد دائماً في الطابق السفلي، وهو عنصر مميز في العمارة الإسلامية، وهو عبارة عن قاعة مستطيلة، بثلاثة جوانب مفتوحة على الحوش، ونجد في الجهة الشمالية من الإيوان عقد منكسر وقد يكون متجاوزاً. والإيوان عبارة عن عنصر معماري فراغي، يتخذ شكل غرفة أوصالة، واجهته مفتوحة على الحوش.³

ووجود الإيوان في الجهة الجنوبية يجعل منه مكاناً مفضلاً للجلوس والاجتماع في أمسيات الصيف الجميلة، وهو في الغالب موجود بجوار مدخل الحوش كمكان للاستقبال، كما يعتبر الإيوان مجالاً خصباً ليظهر الأغنياء ثراءهم ووضعهم الاجتماعي، من خلال الاعتناء بزخرفته.

¹ - Bernard Maur y:op.cit, P 30.

² Ibid, P 32.

³ - يحي وزير: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، مطابع السياسة الكويت، وزارة الثقافة والفنون، الكويت، 1990.ص106

ويحتوي الإيوان من الجهات الثلاثة على مصطبة للجلوس مبنية من الحجارة، وأرضيته مرتفعة على أرضية الحوش، أما حوائط الإيوان وسقفه فعادة ما تزخرف بعناية.¹

ويستعمل الإيوان في البيت الإسلامي للقبولة والاسترخاء في فصل الصيف، لهذا نجد أن الإيوان قد بَلَطَ بالقشاني ذي الملمس الناعم، ويحتوي الإيوان عادة على بعض الفتحات لحفظ الأدوات المنزلية، أو لعرض التحف.

وهناك بعض البيوت تحتوي أكثر من إيوان واحد للاستعمال زمن الصيف والآخر للاستعمال زمن الشتاء، وكلاهما يكونان معرضان لأشعة الشمس.

7. قاعة الضيوف: (أنظر اللوحة السادسة)

تعتبر هذه الغرفة أكبر غرف الطابق الأرضي، وعادة ما تكون مواجهة للمدخل، ويكون ارتفاع هذه القاعة بين 20 و 75 سم، على مستوى سطح الأرض، والعلّة في وجود هذه الدرجات هو إحداث الفتحات التي يتم من خلالها تهوية وإضاءة الطابق التحت أرضي، أو ما يسمى بالسرداب.²

8. السرداب:

قد تحتوي بعض البيوت على سرداب يستعمل لأغراض معينة، والسرداب اصطلاح فارسي مكون من كلمتين، وهي تعني المكان الذي يمكن أن نحصل منه على الماء البارد، وجاء السرداب كنتيجة لتجارب معمارية كثيرة، أملتھا الظروف الطبيعية القاسية.

وهو عبارة عن غرفة كبيرة تقع غالباً تحت غرفة الضيوف وننزل إليه عن طريق درج خاص، وفي بيوت الأثرياء يمكن أن نجد فيها أكثر من سرداب، تتم تهوية السرداب وإضاءته عن طريق فتحات تطل على الحوش أو على الشارع.³

ويستعمل السرداب في تخزين المواد الغذائية، كما يستعمل في بعض المناطق كمكان للقبولة زمن الصيف لما يتوفر عليه من رطوبة.

¹ - Bernard Maury :opcit, P 29.

² - خالص الأشعب: المدينة العربية، التطور، الوظائف، البنية والتخطيط، ط1، بغداد: كلية الآداب. ص 35.

³ - نفسه، ص 37.

ثانياً: البيمارستان

تعود جذور البيمارستان إلى أزمان ضاربة في التاريخ، فيذكر المقرئزي أن الملك مناقيوش بن أشهوم أحد ملوك القبط، هو أول من أتخذ البيمارستان لعلاج المرضى، وجعل فيه الأطباء وأودعه العقاقير، وحدد الرواتب للأطباء، ثم ذكر أن أول من أتخذ البيمارستان هو بقراط بن أبوقليدس، فقد بنى بجوار داره منزلاً وجعله للمرضى، وعين له أناساً لخدمة المرضى وسماه أصدولين، أي مجمع المرضى.¹

وظهرت بوادر إنشاء مرفق لمعالجة المرضى، منذ السنوات الأولى للهجرة، نتيجة تزايد عدد المصابين من الجرحى في الحروب التي كان يقودها رسول الله ﷺ عليه وسلم ضد الكفار، ومما جسد هذه الفكرة ما رواه مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: " أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق، فضرب رسول الله ﷺ عليه وسلم خيمة في المسجد لإمرأة من أسلم يقال لها "رفيدة"، فكانت هذه المرأة تداوي الجرحى، فقد وقفت نفسها على خدمتهم". فحين أصيب سعد يوم الخندق، قال لهم رسول الله: "اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قر يب".²

فلا شك أن هذه الخيمة تمثل أول مستشفى في الإسلام، وهذا يدل أيضاً أن فكرة إقامة مرفق لمعالجة المرضى لم تكن غريبة عن الفكر الإسلامي آنذاك، ولكنها جسدت بالوسائل المتوفرة.

وأول من بنى البيمارستان في الإسلام كوحدة معمارية قائمة بذاتها، هو الوليد بن عبد الملك، وكان ذلك سنة 88هـ، وجعل فيه الأطباء وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجذومين والعميان وجعل لهم النفقات.³

ثم شرع الأمراء والسلطين في بناء البيمارستانات، وتنافسوا في ذلك، وأنفقوا عليها الأموال الطائلة، ووقفوا علي تسييرها الكثير من الأوقاف.

1- المقرئزي: مصدر سابق، ج2، ص 405.

2- ابن حجر: شرح البخاري، ج1، ص 566، محمد بن إسماعيل الصنعاني: سبل الإسلام، ط4، دار الرياض للتراث، 1977، ص 322.

3- المقرئزي: مصدر سابق، ج2، ص 406.

وكانت مدينة مصر أول المدن التي عرفت إنشاء البيمارستان، وهذه الحركة المعمارية النشطة تعكس ما كانت تعرفه المدينة من تطور حضاري، وعمراني، تجسد في إقامة العديد من المنشآت المعمارية داخل المدينة الإسلامية على غرار البيمارستان. وأول بمارستان أنشأ في مدينة مصر واشتهر أمره، هو بمارستان أحمد بن طولون، الذي أنشأ بمدينة القطائع سنة 259هـ، وأنفق على بناءه حوالي ستين ألف (60) ألف دينار.¹

ولم تعرف مدينة مصر إنشاء بيمارستان قبل هذا، وجعل ابن طولون العلاج في بمارستانه موقوفاً على الفقراء من عامة الناس، ومنع أن يعالج فيه الجند والمماليك، وقسمه إلى قسمين، قسم خاص بالرجال، وآخر خاص بالنساء، وكان المريض إذا دخل البمارستان، نزع العمال ثيابه وألبسوه ثياباً خاصة ويفرش له فراش جديد ويغذى ثم يأتيه الأطباء الذين يكشفون عليه ثم يعطونه الأدوية، فإذا شفي من مرضه أعطوه وجبة غذائية وتدفع له أغراضه.

وكانت نفقات البيمارستان من خراج ما وقفه عليه من أملاك، وكان ابن طولون قد وقف عليه دار الديوان والقيسارية وسوق الرقيق.²

وكان بمارستان ابن طولون مكوناً من أقسام مختلفة، فكانت فيه قاعة لمعالجة الحميات وأخرى لمعالجة الرمد، وأخرى للجراحة، وقاعة رابعة لأصحاب الإسهال.³ وذكر بعض المؤرخين أن مصر عرفت إنشاء البيمارستان منذ العصر الأموي، فقد كان زقاق القناديل في دار أبي زيد بالفسطاط يحتوي على بمارستان.⁴

ومن المستشفيات التي اشتهرت في مصر بمارستان الصالح قلاوون، وسبب إنشاء هذا البيمارستان أن الملك المنصور قلاوون خرج إلى الحرب، وكان لا يزال أميراً للظاهر بيبرس، فمرض فجاءه الأطباء والدواء من بيمارستان الشام.

1- ابن تغريبردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف: لنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة،

المؤسسة المصرية العامة، ج1، ص 12، ج3.

2- المقرئزي: مصدر سابق، ج2، ص 405.

3- نفسه، 405.

4- ابن دقماق (إبراهيم بن محمد): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، تحقيق لجنة إحياء التراث، بيروت، منشورات دار الأفاق الجديدة،

ص 267.

فلما شفي، زار هذا البمارستان فأعجب به، فنذر إن صار إليه الملك أن يبني بمارستانا مثله، فلما آتاه الله الملك، شرع في بنائه سنة 683هـ، واستغرقت مدة بنائه إحدى عشر شهرا، وعلى خلاف ابن طولون فقد جعل قلاوون بمارستانه وقفا على كل مريض.

وكان لهذا المرفق الصحي أربعة إيوانات، بكل إيوان شاذروان، وفي كل قاعة فسقية يأتيها الماء من هذا الشاذروان، وجعل المارستان عدة مواضع، فجعل أوابين المستشفى للمرضى بالحميات ونحوها، وجعل قاعة للرمدي، وقاعة للجرحى، وقاعة لأصحاب الإسهال، وجعل قاعات للرجال وقاعات للنساء، وأوصل لكل هذه القاعات الماء. وجعل في خدمته الأطباء والفراشين والطباخين، وغيرهم¹ وخصص مكانا لحفظ الأدوية، ومكانا للطبخ، ومكانا للأشربة.

ثم أن الملك لما أتم بناءه وقف عليه من الأوقاف ما يقارب ألف درهم في كل سنة.²

وانتشرت البيمارستانات في بلاد المغرب الإسلامي، فأشتهر منها بمارستان غرناطة، وذكر ابن الخطيب البيمارستان الأعظم بأنه حسنة هذه البلاد، وأنه أول بمارستان يقام في بلاد الأندلس، وكان مرفقا فخما واسعا، غرفة متعددة، وساحاته فسيحة، وبه دور للمياه، ومتوضئات، وخزائن لوضع الأدوية، وكان هواؤه طيبا لإطلاله على البحر، وقد حول هذا البمارستان إلى دار لضرب السكة، وتعرض للهدم والتغيير عدة مرات، مما أفقده شكله العام، وكان هذا البمارستان في مظهره أبسط من بمارستان قلاوون بمصر.

ويدخل الزائر إلى هذا المبنى من خلال باب يقوده إلى ردهة مربعة الزوايا، في وسطها حوض، مزين بأسدين، ينبع منهما الماء، وحول الردهة نجد أربعة أروقة، تتفتح فيها أبواب طويلة، وبها حجر المرضى.³

¹ - المقرئزي: مصدر سابق، ج2، ص 407.

² - نفسه، ص 407.

³ - أحمد عيسى: تاريخ البمارستان في الإسلام، ص 288.

وبمدينة مراكش بنى المنصور الموحيدي بيمارستانا، فاختر له مكانا فسيحا من أحسن المواضع في مراكش، ثم أمر البنائين بإتقان بنائه، فجعلوا فيه من النقوش والزخارف ما زاد على الحد المطلوب، وغرس فيه من جميع أنواع الأشجار المثمرة وغير المثمرة، وكان الماء يجري فيه من كل موضع منه، وجعل في وسطه أربعة برك ماء. وعين له الصيادلة لخدمة الأدوية من أشريه وأدهان، وجعل للمرضى ثيابا للنهار وثيابا لليل، وجعله وقفا على كل أهل مراكش وغيرهم من المرضى، وكان يعود المرضى فيه كل يوم جمعة، وجعل له ثلاثون دينارا في كل يوم لشراء الطعام وكل ما ينفق عليه دون ما خصص لجلب الأدوية.¹

يعتبر البيمارستان من أهم وأعظم الوحدات المعمارية التي واكبت التطور المعماري والحضاري للمدينة العربية الإسلامية، وأول ما يميز هذا المرفق عن غيره أن البيمارستانات كانت قليلة مقارنة مع المرافق والوحدات المعمارية الأخرى، فنجد المقرئزي مثلا يحصي قريبا من سبعين مدرسة في القاهرة، ولا يحصي من المارستانات إلا أربعة،² والسبب راجع إلى أن البيمارستان كلفة إنشائه باهضة، وقد ذكرنا سابقا أن ابن طولون أنفق على ممارساته ستين ألف دينار، وهو لا شك مبلغ ضخم، لهذا نجد أن بناء هذا النوع من المرافق كان مقصورا على السلاطين والأمراء، فهي أشبه ما تكون بالمرافق الحكومية، أي أن الدولة هي التي كانت تسهر على إنشائها وتعين لها الأطباء والموظفين والعمال وتوفر لها الأدوية والعقاقير، والنفقات المختلفة. وأفضل مثال نسوقه عن دور الأوقاف في الحفاظ على المارستان وضمأن أداءها لوظائفها الطبية، التي أنشئت من أجلها، هو بيمارستان فاس.

فقد كان في المدينة عدة ممارستانات وكان يسكن بها الغرباء لمدة ثلاثة أيام، وكانت هذه المرافق غنية جدا بكثرة أوقافها، وفي أيام حرب السعيد حينما كان السلطان في أشد الحاجة إلى المال، أشار عليه المقربون منه ببيع إرادتها لتمويل حربه، فأعترض عليه الناس، بدعوى أنها أوقاف لا يجوز بيعها، فأشار عليه بعض وكلائه ببيع هذه الأوقاف لأن المارستان أسس بأموال الصدقات التي قدمها أسلاف الملك، الذي

¹ - عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات: المدينة في العصر الوسيط، قضايا ووثائق من تاريخ المغرب الإسلامي، ط1،

بيروت المركز العربي الثقافي، 1994. ص 116

² المقرئزي: مصدر سابق، ج2، ص407، 408.

يوشك أن يفقد مملكته، فإن انتهت الحرب أعاد شراءها فاستحسن الملك الفكرة، فبقيت
المارستانات فقيرة، تفتقر إلى أدنى وسائل العمل.¹

ثالثاً: دار الإمارة

يبدأ التأريخ المعماري لهذه الوحدة المعمارية ابتداء من إنشاء رسول الله ﷺ صلى
الله عليه وسلم ﷺ لداره مجاورة للمسجد النبوي وملاصقة له، بحيث كان ينفذ إليه من
خلال بيوته مباشرة ويبدو أن انفتاح البيوت على المسجد لم يكن مقتصرًا على بيوته
ﷺ صلى الله عليه وسلم ﷺ فقد كان بيت أبي بكر رضي الله عنه يفتح عليه أيضا بعد
أن أمر رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم ﷺ أن تسد كل الأبواب التي كانت تفتح على
ساحة المسجد.

ولكننا لا يمكن أن نعتبر بحال تلك الحجرات دورا للإمارة بمفهومها السياسي
ولا حتى المعماري، فقد كانت هذه البيوت على غاية من التقشف والبساطة، ولهذا فإن
هذه الفترة المتقدمة من تاريخ الإسلام لا يمكن الحديث عن شيء اسمه دار الإمارة.
وكان المسجد يقوم بهذا الدور، فقد كان رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم ﷺ
يستقبل فيه الوفود ويبعث منه الرسل، ويجيش الجيوش، كما كان يقضي فيه بين الناس،
لهذا لعب المسجد دورا هاما داخل المدينة، انعكس على وجوده داخل مخطط المدينة
ومجاورته لدار الإمارة فيما بعد.

و استمر الأمر خلال فترة الخلافة الراشدة، و بدأ يتغير خاصة مع تولي عثمان
بن عفان الخلافة، فقد أنشأ عثمان بن عفان دورا فخمة. فقد ذكر المسعودي أن
الصحابة أقاموا لأنفسهم دورا فخمة، فبنى عثمان دارا فخمة وكذلك فعل الزبير بن
العوام وشيد سعد بن أبي وقاص قصرا فخما في وادي العقيق بالمدينة.²

ولكن الأمر كان مختلفا خارج المدينة المنورة وخاصة في المدن الأولى
كالبصرة والكوفة والفسطاط فأغلب الروايات تخبرنا أن مؤسسوا هذه المدن أنشئوا

1- عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 251.

2 حسين الحاج حسن: حضارة العرب في صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص

دورا للإمارة بجوار المسجد، فأنشأ سعد بن أبي وقاص دار الإمارة وكذلك فعل عتبة بن غزوان، ولكن هذه الدور لم تكن دورا للإمارة بالمفهوم الذي شاع فيما بعد.

إن فكرة إنشاء دار الإمارة كانت قائمة في الفكر المعماري الإسلامي في تلك الفترات، ولكنهم عجزوا على تنفيذها معماریاً لأسباب موضوعية، لعل أهمها حالة لا إستقرار التي كانت تعرفها هذه المدن، بحيث كانت مجرد معسكرات للجند والأمر الآخر افتقار المسلمين في تلك الفترات إلى الخبرات المعمارية.

فما نسميه دارا للإمارة سواء في البصرة أو في الكوفة، لم يكن إلا أكواخا من القصب سرعان ما أتت عليها النار فأحرقتها، وعندما بنيت هذه الدور من الليف والطوب فإنها كانت على غاية من البساطة والتقشف ويعكس هذا التوجه في البناء ما كان عليه هؤلاء الصحابة من التمسك بآثار النبي ﷺ وخلفائه، وميلهم إلى الزهد والبساطة في المظهر، ومع مرور الزمن وتوسع رقعة الإسلام وامتلاء الخزائن بالأموال أخذت هذه الدور تأخذ مظهرا حضاريا جديدا وبدأت تخرج على ما ألفه العرب من بساطة العيش والميل إلى ما يمنع عن المطر ويقي البرد، ومع بداية هذا التحول المعماري في بناء دار الإمارة صاحبه تحول جديد، فقد أخذت تتاطبها شؤون الحكم والسياسة لتضيق بذلك دائرة الوظائف بمنشآت معمارية خاصة بها كبيت المال أو القضاء.

وإنعكس هذا الدور الوظيفي الجديد لدار الإمارة على المخطط العام للمدينة، وعلى مخططها ومخطط المسجد بصفة خاصة.

فأخذت دار الإمارة اسم القصر، واللفظة في حد ذاتها تدل على مظاهر الأبهة والترف والسطوة والتحكم، ولا يمتلك القصر إلا الحكام أو من فحش ثرائه، بينما تدل لفظة الدار على التواضع والتساوي بعامّة الناس. وفي حين حافظت دار الإمارة أو القصر على موضعها وسط المدينة بدأ المسجد يفقد هذه الخصوصية ففصل رويدا رويدا عن دار الإمارة، حتى صار يبني في أطراف المدينة أو على الأقل في أي مكان منها.

وكان المسجد عادة أكبر مخططاً من دار الإمارة في بداية الأمر ثم صارت دار الإمارة تكبره مساحة بمرات عديدة كما هو الشأن في بغداد التي بناها المنصور العباسي أوفي واسط التي بناها الحجاج.¹

ويدل على هذا التطور التاريخي الحاصل على مستوى دار الإمارة والمسجد ما رواه المؤرخون عن دور الإمارة الأولى خاصة في الكوفة والبصرة والفسطاط. فتذكر الروايات التاريخية أن سعداً بنى داره مقابلة للمسجد، تفصل بينهما طريق، فتسلل لص إلى داره فسرق بيت المال، فكتب سعد إلى عمر بذلك، فأمره أن يجعل حائط القبلة ملاصقاً للدار التي يسكنها فصارت بذلك الدار ملاصقة للمسجد.

رابعاً: الأسواق: (انظر اللوحة الأولى والثانية)

لا ترتبط الأسواق بإنشاء المدينة الإسلامية بل ترتبط بالمدينة بصفة عامة فقد وجدت الأسواق في المدن، وفي مفترق الطرق في أغلب الحضارات التي سبقت الحضارة الإسلامية لإنشاء الأسواق غير مرتبط بدين ولا اعتقاد ولكن السوق مرتبط بحاجة الإنسان لتحصيل حوائجه بأيسر الطرق، وإن كان الدين قد يضيف على السوق في المدينة الإسلامية بعض الخصوصية.

ويبدأ التأريخ للأسواق في المدينة الإسلامية منذ تأسيس الرسول ﷺ صلى الله عليه وسلم لسوق المدينة وكان عبارة عن سوق بسيطة موجود في أرض بطحاء لا بناء فيه. وكان بالمدينة سوقان أحدهما سوق القطران والثاني سوق دار النقضان، وحدث تطور لهذه الأسواق مع حدوث التغيرات على بنية المجتمع الإسلامي من الناحية السياسية والإقتصادية والاجتماعية.

وفي مصر أنشئت سوق الفسطاط، ثم أنشأ الوالي عبد الملك بن مروان عدة قيساريات، وفي القيروان كانت السوق عبارة عن سقف يجمع كل الحوانيت والحرف. وظهر بناء الأسواق المسقفة في نهاية القرن الأول الهجري.²

¹ عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 205.

² نفسه، ص 54.

وفي خلافة هشام بن عبد الملك الأموي (105هـ/125هـ) انتشر بناء الأسواق فأعاد بناء سوق القيروان وبنى قيسارية في الفسطاط حملت اسمه، وفي العراق أنشئت الأسواق المسقفة وأمر أن يتخذ أصحاب كل حرفة موضعا خاصا بهم، أما سوق المدينة في عهده فقد كان يتكون من طابقين، استعمل الطابق الأول كحوانيت تؤجر للتجار أما الطابق العلوي فقد خصص للسكنى.¹

ثم ظهرت الأسواق على أطراف الشوارع الرئيسية والأزقة فكانت المتاجر والحوانيت تصطف على جانبي الطريق فيعرض التجار سلعهم، وغالبا ما كان كل شارع يختص بنوع معين من السلع، فتأخذ الشوارع أسماء السلع التي كانت تباع فيها.² ويمكن التفريق بين عدة أنواع من الأسواق داخل المدينة الإسلامية، وهذا التقسيم قد يكون بالنظر إلى الزمن الذي تقع فيه الأسواق فقد يكون أسبوعيا فنجد السوق يتسمى بأسماء الأيام مثل سوق الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وقد يكون شهريا وقد ينقسم بالنظر إلى العادة التي تباع فيه إلى أقسام شتى أيضا فنعثر على سوق الصوف والغزل.

وانتشرت الأسواق في بلاد المغرب الإسلامي على غرار بلاد المشرق، ومن هذه الأسواق سوق الرقيق بمدينة المهديّة، وكان يختص ببيع الجوّاري الرومياّت.³ ومنها سوق الغزل بمدينة سوسة، واختصت أسواق المغرب الإسلامي ببيع السلع المختلفة كالبنز والطعام والأقوات. وقد أسهب الونشريسي في ذكر هذه الأسواق من خلال النوازل التي كانت تقع داخلها.⁴ و ذكر بعض مظاهر البيع والشراء داخل هذه الأسواق وكيفية تنظيمها ومن ذلك أنه ذكر استعمال الدالين كما ذكر أن بعض الأسواق قد حددت لها أوقات خاصة، فقد كان سوق الغزل يعقد بين صلاتي الظهر والعصر.⁵

ونظرا لأن بعض الأنواع التجارية كالحرير والأقمشة تحتاج إلى عناية خاصة فإن السلطة داخل المدينة قامت بتسقيف الشوارع التجارية واتخاذ الساباطات، أو إقامة

¹ إبراهيم عبد الباقي: مرجع سابق، ص 36.

² نفسه، ص 36.

³ كمال السيد أبو مصطفي: مرجع سابق، ص 69.

⁴ الونشريسي: مصدر سابق، ج 3، ص 157، ج 5، ص 197، ج 10، ص 242، 409.

⁵ كمال السيد أبو مصطفي: مرجع سابق، ص 71.

نتوءات على الواجهات المطلّة على الشوارع، وانتشرت هذه العملية انتشاراً عظيماً في مختلف البلاد الإسلامية وعرفت "بالسقائف" كسقيفة رضوان في القاهرة.¹

و اهتمت الشريعة الإسلامية بالسوق اهتماماً بالغاً فشرّعت له أحكاماً خاصة به لتنظيم معاملات الناس ورفع ما قد يقع بينهم من اعتداءات فجعل النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم السوق وقفاً على المسلمين لا يجوز لأحد أن يحتكره دون غيره، ومنع البناء فيه بما يضيقه أو يعرقل حركة المرور فيه ورفع الخراج عن أهله وجعله على سنة المساجد من سبق لمكان فهو له، وعيّن عاملاً عليه يراقب عملية البيع والشراء ويمنع التجار من الغش، ثم سمي هذا العامل في العصور المتلاحقة بالمحتسب، وكان السوق يخضع لسلطة المحتسب في الصغيرة والكبيرة، فكان صاحب الكلمة النافذة فيه، ينظر في الدعاوي العاجلة ويفصل بين الخصوم بما لا يعطل مصالح الناس، ويمنع التعدي على حقوق السوق بالبناء أو الوقوف.*

خامساً: الحمامات

الحمام بتشديد الميم الوسطى مكان الاغتسال من قولهم استحم، أي اغتسل بالحميم، والاستحمام بالماء الساخن هو الأصل ثم صار كل اغتسال استحماماً بأي ماء كان.

وإقامة الحمامات كان مألوفاً لدى الأمم السابقة كال يونان والرومان وغيرهم ولم يكن معروفاً عند العرب قبل الإسلام ولا في صدره الأول، ذلك أن العرب لم يألفوا استعمال الماء الغزير ولم يعرف المسلمون الحمامات إلا بعد اتصالهم بالحضارات المجاورة لهم والتي تغلبوا عليها، فالحمامات من مظاهر الترف والرقي ولم يكن ذلك شأن العرب قبل الإسلام ولا في صدره الأول.

وسرعان ما ظهرت الحمامات في الحضارة العربية الإسلامية وشجع ظهورها دعوة الإسلام إلى الطهارة وفرض الغسل والوضوء، وحالة الترف والرقي التي عرفها خلفاء بني أمية الذين أقاموا الحمامات في قصورهم وفي البوادي.

¹ يحي وزيري: مرجع سابق، ص 100.

* أنظر ص (249) من هذا البحث.

واختلفت الآراء في أصل الحمام، وإن كانت كلها متفقة أنه غريب عن العرب، فهم لم يعرفوا الحمامات قبل الإسلام، فيرى بلا تهول أن الحمامات الإسلامية أخذت من الحمامات اليونانية القديمة "Therma" ويرى آخرون أخوذة من الحمامات الرومانية.¹ وتدل زخرفة الحمامات أنه لم يكن من المنشآت الإسلامية، ففي حمامات سامراء كانت الدرجات تزين بالصور بدلا من البلاطات، وكان الأمر مألوفا في بلاد الشام. وترجع الحمامات الشامية إلى العصر اليوناني الأخير في بلاد الشرق، فيذكر المسعودي أن الناس كانوا يصورون العنقاء داخل قاعات الحمامات.² وكما اختلف المؤرخون والأثريون في أصل الحمام، اختلف الفقهاء في حكم دخول الحمام، فأجاز الأغلبية العظمى دخول الرجال، وعلقوا ذلك بشروط مرتبطة بالأخلاق والآداب العامة، وحرّموا دخوله على النساء لتنافي ذلك مع أحكام الشريعة، فيؤثر عن الإمام على أنه قال: "بئس البيت الحمام تكشف فيه العورات وترفع فيه الأصوات ولا تقرأ فيه آية من كتاب الله"،³ وقال الزمخشري يكره أن يعطى الرجل لزوجته أجره الحمام لأنه يكون معينا لها على المكروه.⁴

ومع هذا الاختلاف الفقهي فإن الحمام كمنشأة عامة يخضع للقواعد العامة لأحكام البنيان المبسطة في كتب الفقه من حيث علاقته بالوحدات والمنشآت المحيطة به، ولعل أهم هذه القواعد خلوالحمام من النوافذ والفتحات التي تسمح بالنظر إلى من بالداخل، زيادة على ذلك فإن ذلك يؤدي من بداخل الحمام نتيجة التيارات الهوائية الباردة، فالحمام أشبه ما يكون بالقوقعة المغلقة ومدخل الحمام هو الفتحة الوحيدة فيه للدخول والخروج، وهي عادة ما تكون منكبّة بالنسبة لمداخل المنشآت المقابلة، أي أن مدخل الحمام لا يكون مقابلا أبدا لمدخل المنشآت الأخرى وخاصة إذا كانت هذه المنشآت وحدات سكنية.

¹ - عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 248.

* العنقاء: حيوان خرافي في بلاد الشرق جسمه عبارة عن طائر بوجه إنسان وله منقار نسر وأربعة أجنحة.

² آدم متيز: مرجع سابق، ص 224.

³ نفسه، 223

⁴ خالد عزب: مرجع سابق، ص 08.

والمدخل في الحمام لا يؤدي مباشرة إلى غرفة الاستقبال، فيمر الداخل عبر دهليز منكسر لا يسمح بأن يرى المارة من بداخل الحمام، وهذا من أجل توفير بعض الخصوصية لمرتادي الحمام خاصة من النساء.

وحرصا على الآداب العامة واجتتاب اختلاط الرجال بالنساء خصصت أوقات معينة من اليوم لدخول الرجال وأوقات لدخول النساء، فإن كانت فترة دخول النساء علق على باب الحمام منديل ليمنع دخول الرجال، وخصّصت حمامات للرجال وأخرى للنساء.¹

واشتملت بعض المجمعّات الدينية على حمامات خاصة لخدمة أهلها وخدمة غيرهم من العامة كحمام شيخووحمام المؤيد بالقاهرة.² وكثرت الحمامات العامة في المدينة الإسلامية، فظاهت بذلك المدن البيزنطية التي عرفت بوفرة حماماتها.

وكانت الحمامات الرومانية حكرا على الأثرياء والرياضيين والنخبة من المجتمع الروماني، يقصدونها للتسلية والترفيه أما في المدينة الإسلامية فقد صار الحمام مرفقا عاما يقصده جميع أفراد الشعب للاغتسال والتطهر والتطيب أحيانا.³

وغالبا ما يحدثنا الرحالة والمؤرخون عن كثرة حمامات المدن الإسلامية، ويعتّون وفرة الحمامات من مزايا المدن ومظهرا من مظاهر الحضرة، فتذكر الروايات أنّ اليعقوبي (ت 282هـ) أحصى حمامات بغداد فوجدها عشرة آلاف حمام.⁴ وهولا شك رقم مبالغ فيه ولكنه يعكس كثرة الحمامات في هذه المدينة، أما الرحالة ابن جبّير (ت 614هـ) فيحدثنا عن وفرة حمامات الجهة الشرقية والغربية من بغداد وهي نحو الألفي حمام،⁵ ويمدنا ابن جبّير بمعلومات هامة عن كيفية البناء والمواد المستعملة

¹ خالد عزب: مرجع سابق، ص 87-88-89.

² عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 248.

³ خالد عزب: مرجع سابق، ص 87.

⁴ اليعقوبي: مصدر سابق، ص 43.

⁵ ابن جبّير: رحلة ابن جبّير، سلسلة الأنيس، ص 201.

في بنائها فيذكر أن هذه الحمامات كانت مطلية بالقار، مسطحة به فيحسبه الناظر انه من الرخام الأسود المصقول، وأغلب حمامات هذه الجهة مطلية بالقار لوفرتة عندهم.¹ ومن مظاهر الاهتمام بالحمامات داخل المدينة الإسلامية إسناد مهمة مراقبة الحمامات إلى المحتسب، فكان يشرف بنفسه على نظافة الحمامات ويأمر أصحابها بتنظيفها يوميا، كما كان يجبرهم على نظافة المياه المستعملة ومراقبة درجة حرارتها ومراقبة سلوك المستحمين وإلزامهم بالأخلاق العامة التي تتماشى وروح الشريعة الإسلامية.² ويفضل من الحمامات ما كان قديما، كثير الأضواء، مرتفع السقف، عذب الماء، طيب الرائحة.

ومن الشروط التي اشترطت في الحمامات نذكر ما يلي:

1. أن تتوسط المدينة ليسهل وصول عامة الناس إليها.
2. أن تكون مصاريف الماء فيها واسعة ومستقلة مخافة استردادها.
3. أن تكون غرف الحمام متوسطة الحجم ليسهل تسخينها.
4. أن تكون غرفة خلع الثياب "المخلع" واسعة.
5. الحرص أن يكون الماء المستعمل طاهرا.

كل هذه الشروط والآراء الفقهية تدل على حرص المسلم أن يكون الحمام مستوفيا للغرض الذي بني من أجله مؤديا لوظيفته على أكمل وجه.

يشتمل الحمام من الناحية المعمارية في الغالب على مدخل صغير يؤدي إلى دهليز (ممر)، وهذا الممر يوفر الخصوصية لمرتادي الحمامات، وينتهي هذا الممر إلى غرفة نزع الثياب المسماة أحيانا "المشلع"، وتشتمل هذه الغرفة على مواضع لخلع الثياب ومواضع لحفظها وبها أيضا مكان مخصص لجلوس صاحب الحمام الذي يتولى تسيير الحمام، وقبض الأجور ويحفظ أموال الناس وأغراضهم.

ومن خلال غرفة نزع الملابس نصل إلى الغرفة الثانية في الحمام وهي الحجرة الدافئة، وهي عبارة عن وسيط حراري بين غرفة نزع الثياب وبين غرفة الحمام

¹ ابن جبير: مرجع سابق، ص 201.

² أنظر ص 149 من هذا البحث.

الحارة حتى لا يتأذى المستحم من الانتقال المباشر من غرفة الملابس إلى الغرفة الحارة وهذه الغرفة مزودة بأحواض الماء الساخن المار عبر أنابيب فخارية موجودة بحوائط القاعة وهي آتية من جهة المستوقد.¹

وتتصل هذه الحجرة بحجرة ثالثة وهي الحجرة الساخنة أوبيت الحرارة، وهي مزودة بمغطس، يبلغ فيه للماء الساخن أقصى درجاته وأرضيات الحمام مفروشة بالرخام فهويثبت الحرارة وسهل التنظيف وعادة ما تعلو هذه الحجرات قبوات أو عقود نصف برميلية بها فتحات مغلقة بالزجاج بحيث تسمح بمرور الضوء دون الهواء.

وخلف الحمام التقليدي نجد المستوقد ويتم تسخين الماء فيه في قدور نحاسية كبيرة الحجم ثم يمر الماء عبر قنوات فخارية ليصل وحدات الحمام المختلفة.²

ومن أقدم الحمامات التي وصلت إلينا، تلك الحمامات التي اكتشفها الأثريون في بلاد الشام، والتي أنشأها خلفاء بني أمية، وهي حمام الصرح وحمام قصر عميرة. وسنكتفي بذكر حمام واحد فقط لإعطاء فكرة واضحة لما كانت عليها الحمامات في هذه الفترة من الإسلام وفي الغالب فإنه لا يختلف كثيرا عن الحمامات الأخرى إلا في بعض التفاصيل القليلة.

حمام الصرح: (أنظر الشكل الرابع)

اكتشفت آثار هذا الحمام الأموي سنة 1905 م من طرف ك. تيلر من جامعة برينستون، وهويشبه إلى حد كبيرحمام قصر عميرة من حيث التخطيط، والحمام بني من مادة الحجر المنحوت ويرجع كريسويل تاريخ الحمام إلى فترة الخلافة الأموية الممتدة ما بين 725 م و730م.

ويتكون حمام الصرح من حجرتين رئيسيتين

أ/ غرفة استقبال: وهي ذات شكل مستطيل يبلغ طولها 8م 95سم وعرضها 7م 90سم وتحتوي الغرفة على ليوان*، وعلى جانب هذا الليوان نجد حجرتان (A1, A2) وتضاء الحجرة عن طريق ثلاثة نوافذ تفتح في الجهة الجنوبية.¹

¹ عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 246.

² نفسه، ص 247.

* ليوان: هو الإيوان.

ب/ غرفة الحمام: وهوبدوره يتكون من ثلاث غرف:

1- الغرفة الأولى: وهي غرفة مخصصة لنزع الملابس وهي مسقفة بعقد أسطواني (قاعة B) ويبلغ طول هذه القاعة 3.45م وعرضها 2.5م والغرفة مقسمة إلى ثلاثة أروقة طولية ممتدة من الشمال إلى الجنوب، ويفصل بينهما عقدان مدبيان، وينتهي الرواق الأوسط في الجهة الجنوبية الشرقية بحنية، وتكتنفه غرفتان لنزع الملابس. وأضيئت الغرفتان بثلاث فتحات في كل غرفة على هيئة مغازل، وبكل غرفة نجد فتحة مستطيلة مغطاة بقبومدبب،² وتفتح هذه الغرفة على غرفة الحمام (غرفة D)، ويبلغ طولها 3.4م وعرضها 2.2م، وهي التي تسمى غرفة الحمام البارد، ونعثر في إحدى واجهاتها على انفتاح له سقف أسطواني عرضه 1.7م وعمقه 1.2م. وفي الجدار الشمالي الشرقي باب يؤدي إلى غرفة الحمام الحار.

أما الغرفة الثالثة (الغرفة C) وهي غرفة الحمام الحار، وهي ذات مخطط مربع مغطاة بقبة ترتفع على أركان مثلثة كروية،³ وكانت القبة مغطاة بطبقة من الملاط ومغشاة بقطع من الخزف ويذكر أن هذه القبة كانت تشتمل على ثمانية "8" نوافذ دائرية، تحولت الآن إلى ثقوب كبيرة.

وبهذه القاعة انفتاح مشابه لذلك الموجود في القاعة (D) غير أنه انفتاح دائري من الجهة اليمنى واليسرى مغطى بنصف قبة.

وكانت جدران الحمام مزينة بنقوش جميلة شاهدها Balter قبل أن تتطمس، وذكر موزيل الذي زار الحمام سنة 1909 أن الحمام كان يحتوي على صور جدارية ملونة وفيرة في الحمام⁴.

وقد ساد هذا الطراز مختلف البلاد الإسلامية على مر العصور ولم تختلف الحمامات في البلاد الإسلامية إلا في الشيء القليل خاصة فيما يتعلق بحجم الحمام أوبالزخارف التي وجدت فيه.

¹ كريزويل:مرجع سابق، ص 139.

² محمد كامل موسى:مرجع سابق ص 120.

³ كريزويل: مرجع سابق، ص 141.

⁴ محمد كامل موسى: مرجع سابق، ص 121.

فوجد دائما الغرفة الأولى تُخصص لاستقبال الوافدين إلى الحمام، ويتم فيها خلع الملابس ويتعدها صاحب الحمام في أماكن خاصة، وتلي هذه الغرفة غرفة ثانية تسمى عادة (غرفة البارد) أو (غرفة البخار) وهي منطقة عبور بين غرفة الاستقبال وغرفة الاستحمام حيث ترتفع درجة الحرارة.

والغرفة الثالثة هي غرفة الاستحمام أو الغرفة الحارة، وهي مكان الإستحمام. واشتهرت المدن الإسلامية بإقامة الحمامات العامة خاصة في العواصم الكبرى مثل القاهرة وقرطبة وبغداد ودمشق، فيذكر المؤرخون أن عدد الحمامات بلغ في بغداد حوالي (2000) حمام وذكر المقرئزي في خطه وصفا لسبعة وأربعين حماما بالقاهرة،¹ وأحصى اليعقوبي حمامات بغداد فوجدها خمسة آلاف (5000) حمام،² كما تعجب ابن جببر من كثرة حماماتها.³

¹ المقرئزي: مصدر سابق، مج2، ص79-86.

² اليعقوبي: مصدر سابق، ص 252-253.

³ ابن جببر: مصدر سابق، ص 183، وابن بطوطة: مصدر سابق، ج 1، ص 141.

سادسا: الشوارع، (انظر اللوحة الأولى والثانية والثالثة)

تعتبر الشوارع من أهم خصائص المدن منذ القدم واكتسبت الشوارع نفس الأهمية في المدن الإسلامية، فهي بمثابة الشرايين داخل المجال العمراني، بحيث تربط بين مختلف وحدات النسيج العمراني داخل المدينة، فتربط بين المساكن في الأحياء وبين المراكز الحضرية الهامة كالمسجد والسوق ودار القضاء، وتسهل عملية الاتصال والانتقال ضمن الشبكة العمرانية بأيسر الأحوال، وتلعب دورا هاما في تنشيط الحركة الاقتصادية.

ولهذا نجد أن الشريعة الإسلامية قد اهتمت بالطرق اهتماما بالغا، فوردت الأحاديث المتعددة التي تدعو إلى احترام الطريق، والمحافظة عليها، وسنت لها أحكاما خاصة بها ورتبت فيها حقوقا مثل حق الارتفاق بها، والنهي عن البناء، أو إعاقة المرور.

وواكبت الحركة الفقهية داخل المجتمع تطور حركية البناء والعمران فجاءت الكثير من القوانين تنظم تخطيط الشوارع والطرق، وبيّنت الروابط بينها وبين التكوينات المعمارية المختلفة المطلة عليها تحقيقا لمصالح الناس المختلفة، وبما لا يلحق الضرر بالجار أو بالمار، وأثر هذا على شكل المباني الواقعة على حواف الشوارع والطرق، كما أثرت الموسوعة الفقهية في مجال العمران على اتخاذ البوابات فاشتراطوا في الأبواب والبوابات أن تكون مرتفعة ارتفاع الفارس فوق صهوة جواده ومنعت اتخاذ الحجرات والسباطات ما لم تكن مرتفعة ارتفاعا يسمح بمرور الراكب.¹

ومن أهم الأحكام الفقهية التي ارتبطت بالشارع وأثرت فيها تأثيرا بالغا: "ملكية الشارع". فقال الفقهاء إن الطريق ملك للمسلمين، موقوفة على مصالحهم وعلى تصرفاتهم، وهي بذلك ليست ملكا لفرد ولا ملكا للدولة، وبالتالي فإنه لا يجوز للسلطان التصرف فيها كيف شاء، فلا يجوز أن يأمر بالبناء فيها ولا أن يقطعها ولا أن يهبها.² واستدل جمهور العلماء بحديث رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ الوارد في هذا

¹ - عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 265.

² - جميل عبد القادر أكبر: عمارة الأرض في الإسلام، 3، لبنان: مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998، ص 253.

الباب، فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: "من أخذ من طريق المسلمين شبرا جاء به يوم القيامة يحمله من سبع أرضين".¹

فالجماعة الإسلامية هي التي تسيطر على الشارع، وتمنع التعدي عليه بالبناء. والطرق التي تسيطر عليها جماعة المسلمين هي الطرق النافذة، الواقعة داخل المدينة أو القرية. أما الطرق في الصحاري والبادي فلا تسيطر عليها جماعة المسلمين، لأن عموم الناس يمكنهم العدول عنها واتخاذ غيرها من الطرق والمسالك بخلاف تلك التي بالمدن، فقد لا يوجد غيرها ويرى الإمام أحمد أن الأخذ من الطريق أعظم ذنبا من الأخذ من حق الجار، لأن هذا يأخذ من عموم المسلمين، والآخر يأخذ من واحد.

ومن مظاهر الاهتمام بشأن الطريق أن الكثير من الرحالة والمؤرخين خصصوا أجزاء كبيرة من مؤلفاتهم للحديث عن الشوارع والطرق، فنجد مثلا المقرئ في الخطط تحدث بإسهاب عن شوارع وأزقة ودروب مدينة القاهرة،² كما ذكر أسماء هذه الدروب وسبب التسمية وأحوال السكان وعاداتهم وتقاليدهم.

وأعتى الحكام بالشوارع والطرق فأمروا بكنس الشوارع ورشها بالماء، وأوكلوا ذلك إلى فئة من العمال سموا الكناسين وخصصوا مواضع خاصة لوقوف الحيوانات. وكانت مدينة بغداد تكنس رحابها وشوارعها في كل يوم، و يحملون التراب إلى خارج المدينة، كما كان أصحاب المباني والمتاجر يقومون بتنظيف الشوارع التي تقع عليها متاجرهم.³

ومع النمو الحضري للمدينة الإسلامية ظهرت أنماط من الشوارع كانت تتال العناية الفائقة من النظافة والتجميل وهي الشوارع المؤدية إلى قصور الأمراء والخلفاء أو الشوارع التي كان يسلكها موكب الخليفة أو الأمير، وغالبا ما كانت تجعل فيها البوابات لأسباب أمنية، مثل البوابة التي وضعت على الطريق المؤدي إلى قصر ابن طولون.

¹ ابن حجر: مصدر سابق، ج5، ص103

² - المقرئ: مصدر سابق، ج2، ص37-44.

³ محمد العودات: تجميل الشوارع في المدينة الإسلامية، مجلة المدينة العربية، ع97، أوت 2000، الكويت، ص

أما المدن الإسلامية التي تقطعها الأنهار كالفسطاط وبغداد وأصفهان فإن الأمراء اتخذوا القناطر لربط بين أجزاء المدينة المختلفة وهي عملية سهلت الانتقال بين أحياء المدينة ومكنت من الاستمتاع بالمشاهد الطبيعية أثناء المرور عليها.¹ ومن الطرق التي نالت عناية الحكام تلك التي تقع على ضفاف الأنهار، فقد وجدت على جانبها الأرصفة الطويلة التي تمتد على طول الشارع، ومن أشهر هذه الشوارع شارع قرطبة، فقد انتشرت الأسواق على جانبيه فزادته حيوية وصارت أماكن للتسوق والتجول.²

ومن أمثلة الشوارع المبلطة نجد شوارع فاس، فقد تم تبليط شوارع الأسواق بالقرميد، أما الشوارع التي لم تبأط فقد وضعت على حافتيها أفاريز يمشي عليها الناس في الشتاء تجنباً للأحوال أو السقوط.³

مظاهر الاهتمام بالشوارع:

من أهم مظاهر الاهتمام بالشوارع في المدينة الإسلامية نذكر:

أ/ إضاءة الشوارع: وإدارة الشوارع لها بعدين: بعد وظيفي متمثلاً في توفير الأمن للعامة وتيسير حركتهم في الليل وبعد جمالي، واشتهرت قرطبة بإضاءة شوارعها حتى كان الرجل يسير في النور مسافة العشر كيلومترات، وكان الميدان الذي يطل عليه قصر الخليفة يضاء في الليل، وكذلك الطرقات في بغداد وشوارع الفسطاط والقاهرة، وفي سنة 993م أمر العزيز الفاطمي بإضاءة المصابيح على الدور وفي الأسواق بالفسطاط.

وفي سنة 1000م أمر الخليفة الحاكم بأمر الله أن تُوَقَد القناديل في سائر البلد على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال والسكك، كما شاع استخدام الفوانيس، أما في الأعياد والمواسيم، فكانت الشوارع والطرقات تعرف عملية إنارة واسعة، وتعلق المصابيح في أعلى المآذن ابتهاجاً بالمناسبة.⁴

¹ - محمد العودات: مرجع سابق، ص 85.

² - نفسه، ص 86.

³ - عبد الستار عثمان، مرجع سابق، ص 265.

⁴ - محمد العودات: مرجع سابق، ص 87.

أنواع الطرق:

ومن اهتمام المسلمين بالطرقات والشوارع نجد أنهم قسموا الطرق إلى ثلاث مستويات رئيسية.

1/ **الطرق العامة:** وهي التي تكون وقفا على عموم المسلمين، ويكثر استخدامها والارتفاق بها وتسمى أحيانا طريق السابلة أو طريق المسلمين.

2/ **الطريق العام الخاص:** وهو أقل شأنا من الأول فهوليس موقوفا على عموم المسلمين والارتفاق به قليل، وهذا النوع من الطرق أكثر من الطرق الأولى، وهو يؤدي في أغلب الأحيان إلى الطرق العامة، وتتفرع عنه طرقا أقل خصوصية.

3/ **الطريق الخاص:** وهو الذي يعرف بالطريق غير النافذ والطريق غير النافذ ملك لساكنيه.¹

وكل نوع من هذه الأنواع تحكمه قوانين فقهية خاصة تنظم الارتفاق والتصرف فيه، فبينما يمنع الناس من التصرف في النوعين الأولين بالبناء ونحوه وكل ما من شأنه أن يضيق الطريق كوضع السلع وإيقاف الدواب، فإن النوع الأخير يجوز التصرف فيه ولكن هذا التصرف موقوف على موافقة الجيران.

ونجد في بعض المدن الإسلامية نماذج أخرى من الشوارع هي أقل سعة من الأولى وهي دون شك لا تعرف نفس الحركة التجارية التي تعرفها الشوارع العامة ومجال الارتفاق بها مقصور على فئات معينة من الأشخاص.

الزقاق: ويصل عرضه في أكثر الأحوال سبعة أذرع كما هو الشأن في مدينة البصرة والكوفة، أما في مصر فإن الزقاق كان عرضه أكبر من سبعة أذرع وكان الشارع في مصر فرعا من الزقاق، وكان زقاق القناديل مثلا من الأزقة الرئيسية في الفسطاط، و مدينة الفسطاط تكاد تكون حالة استثنائية، فقد عرفت بضيق شوارعها حتى أن المارة كانوا يحتاجون إلى القناديل للإنارة.²

¹ خالد عزب: مرجع سابق، ص 28.

² عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ص 223.

الدروب: لا نعرف إن كانت الدروب تتفرع عن الأزقة أم أنها كانت كالأزقة في السعة، وربما كانت الدروب أقل سعة من الزقاق، وتنفذ إليه وتتفرع منه وغالبا ما كانت الدروب تحمل أسماء الأشخاص أو أسماء الحرف والمهن.¹

وهذا النوع من الطريق لا يسلكه إلا ساكنوه، فيمنع الغرباء من الدخول إلى مثل هذه الفضاءات الممنوعة ولا زال هذا الأمر قائما في القصور الصحراوية وفي مدن ميزاب.

وغالبا ما لجأ المعماري إلى وضع بوابات أو عطفات أو عقود لإعلام الزائر أو الغريب بانتهاء حدود الطريق العام وبداية حدود الطريق الخاص،² وهذه الإشارات نجدها في أغلب المدن الإسلامية كما هو الشأن في مدينة تلمسان.

ومع أن الحكام والخلفاء اهتموا كثيرا بالطرق والشوارع، سواء من خلال التخطيط أو الإنشاء أو تجنيد مؤسسات الدولة لحمايتها، إلا أن الشوارع في المدينة الإسلامية قد تعرضت للكثير من النقد وخاصة من قبل المستشرقين الذين حاولوا المقارنة بينها وبين الشوارع في المدن الرومانية واليونانية.

فيرى كريزيل أن البصرة والكوفة عبارة عن مدن تميزها الأزقة الفوضوية والمجازات المتداخلة مع الأكواخ، بينها أراضي ضيقة ففي الكوفة مثلا يحتاج الزائر مرشدا عند دخوله الأحياء.

أما المستشرق جورنيوم فينتقد المدن الإسلامية ويعيب عليها افتقارها إلى المسارح والملاعب كتلك التي كانت موجودة في المدن الرومانية والإغريقية.³

وهذه الانتقادات ما هي إلا محاولة لمقارنة هؤلاء الباحثين للمدن الإسلامية بالمدن الإغريقية والرومانية، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، فالمدن الإسلامية تختلف ظروف نشأتها، وتختلف المؤثرات الدينية والثقافية والاجتماعية التي أثرت وساهمت في ظهور وتطور المدن الإسلامية، كما تختلف المنطلقات التي تحكم المسلم والتي غالبا ما يساهم في تكوينها الفقهاء والعلماء منطلقين من نصوص القرآن والسنة، وتختلف

¹ - عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 225.

² - خالد عزب: مرجع سابق، ص 29/28.

³ - جميل أكبر: مرجع سابق، ص 177.

الظروف المناخية التي نشأت فيها المدن الإسلامية عن تلك التي نشأت فيها المدن
الإغريقية والرومانية.*

* ينظر ص "49" من هذا البحث.

أولاً: تعريف المدينة

يختلف علماء الاجتماع اختلافاً كبيراً في تعريف المدينة، بحيث يصعب علينا اعتماد هذه التعاريف كمرجع لتعريف المدينة الإسلامية، وسبب هذا الاختلاف راجع إلى أن مفهوم المدينة كغيره من المفاهيم يرتبط بعوامل نشأة هذه المدن. وبطراز المدن موضوع الدراسة بالإضافة إلى هذا فإن أغلب التعاريف ترتبط - تتعلق - بالمدينة الغربية.¹ وبالتالي فإنه لا يمكن أن نسحب هذه التعاريف على مفهوم المدينة الإسلامية لوجود اختلافات جوهرية من حيث أسباب النشأة والوظيفة، والتخطيط... وكما اختلف علماء الاجتماع في إعطاء تعريف موحد للمدينة، فإن علماء الإسلام اختلفوا في تعريف المدينة، ويرجع سبب اختلافهم عادة إلى اختلاف تخصصاتهم.

1. تعريف الفقهاء:

لا يعطي الفقهاء تعريفاً منضبطاً للمدينة الإسلامية، ويكتفون في الغالب بتحديد الشروط التي يجب أن توجد في المدن، وأحياناً يعدّون هذه الشروط من خلال ذكر أوصاف هذه المدن، فنعلم بأنّ هذه الأوصاف، هي الشروط التي يجب توافرها في المدينة، وفي الغالب يتفق الفقهاء على الشروط التي يجب أن تحوزها المدينة. وأهم هذه الشروط هي إقامة صلاة الجمعة، فيذكر الماوردي: "أنه لا تقام صلاة الجمعة إلا في وطن مجتمع المنازل".² ويقول الإمام أبو حنيفة في سياق حديثه عن صلاة الجمعة: "تختص الجمعة بالمصار ولا يجوز إقامتها في القرى"، وأعتبر المصّر بأن يكون فيه سلطان يقيم الحدود وقاض ينفذ الأحكام.³ فالمدينة عند أبي حنيفة هي: كل بلد تقام فيه الجمعة، ويقوم فيه حاكم يسوس الناس، وقاض يحكم بينهم بالعدل. وهوفي هذا يستدل بالحديث النبوي الشريف: " لا

¹ سعيد ناصف: المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة الحضرة، مكتبة الزهراء الشرق القاهرة. ص 9
* الماوردي: علي بن محمد بن حبيب، عاش بين 364هـ و450هـ.

² الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 103

³ نفسه، ص 90

جمعة ولا فطر ولا أضحي إلا في مصر جامع أومدينة عظيمة "4، والمصر في الحديث هومدينة المدن التي أسسها المسلمون، وأطلقوا عليها اسم "أمصار". ويورد ابن خلدون كلاما أكثر دقة وأكثر شمولا، أثناء حديثه عن أسباب نشأة المدن، والشروط التي ينبغي أن يراعيها مؤسسو المدن، فالمدينة عند ابن خلدون مظهر من مظاهر الترف، والميل إلى الاستقرار.¹

ومن الشروط التي يضعها ابن خلدون: أن تكون المدينة في مأمن عن الأعداء ولا يتحقق ذلك إلا بإحاطة المدينة بسياج من الأسوار. أو اختيار الأماكن الوعرة التي يصعب الوصول إليها، كالأماكن الوعرة من الجبال، أو تكون على قرب من نهر أو بحر. ولا يكتف ابن خلدون بالشروط ذات الطابع العسكري فهي وإن كانت مهمة فإنها تبقى غير كافية، فإن الناس وإن امتنعوا عن العدو، فإنهم لا يأتون على أن أنفسهم الأمراض والأوبئة. فيراعى عند اختيار المدن طيب الهواء والسلامة من الأمراض.² ويراعى عند اختيار مواضع المدن أن تكون قريبة من مصادر المياه، لأن وجود الماء قريبا من السكان يسهل عليهم الوصول إليه فتستقيم بذلك حالهم، ويتيسر لهم بتيسر الماء تيسر المرعى وهو ضروري لحيواناتهم.

2. تعريف الجغرافيين:

أشار الجغرافيون إلى عدة تعريفات للمدينة، وهي تكاد تكون واحدة وتشبه إلى حد كبير ما ذكره الفقهاء واللغويون من تعاريف، مما يؤكد اتفاق النظرة الإسلامية للمدينة. ويعتبر المقدسي من الجغرافيين الذين أعطوا مفهوما دقيقا للمدينة الإسلامية فيقول: "..... المصر كل بلد حله السلطان الأعظم وجمعت إليه الدواوين وقلدت منه الأعمال وأضيفت إليه مدن الأقاليم " وفي نفس السياق يعرض المقدسي مفهوم المدينة عند الفقهاء فيقول: " إنهم اختلفوا في تحديد معنى المصر، فكان هذا بحسب رأيهم كل بلد جامع تقام فيه الحدود ويحله أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستا قه.³ فالمقدسي يجعل من خصائص المصر أربعة أمور:

¹ ابن خلدون: المقدمة، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة، ص 220

² نفسه، ص 224

³ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 47.

- ❖ بلد جامع
- ❖ وجود الحاكم
- ❖ النفقات والمصاريف
- ❖ إقامة الحدود

والمراد بالبلد الجامع والبلد الجليل، كثافة السكان وسعة المساحة. وإقامة الحدود فتدل على وجوب إيجاد القاضي ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

أما الخصائص المتبقية فتشير إلى الاستقلالية.

أما القزويني فيرد نشأة المدن إلى طلب الاستقرار والأمان: "فإنّ الناس إن اجتمعوا في الصحاري لم يأمنوا عدوان اللصوص، ولوسكنوا القرى لم يأمنوا صولة ذي القوة، فاهتدوا إلى اتخاذ الأسوار والخنادق، فحدث نتيجة لهذه الظروف نشأة المدن".¹ ولم يكن اختيار مواضع المدن من قبيل الصدفة، بل إن العقلاء قد حددوا لها شروطا يجب مراعاتها في اتخاذ المدن، ومن أهم هذه الشروط، اختيار المواقع الملائمة للسكنى، فتقام في أعلى مكان من الساحل والجبال، ومهب الشمال لأنها تفيد صحة أبدان أهلها.²

ومن خصائص المدن الإسلامية، التي تميزها عن باقي المدن الأخرى، وجود المساجد الجامعة، والأسواق، والخانات، والحمامات، ومراكز الخيل، ومعاطن الإبل...³

ثانياً: عوامل نشأة المدن

يمكن ملاحظة نوعين من المدن الإسلامية، النوع الأول هي المدن التي كانت موجودة قبل الهجرة النبوية كمكة والمدينة ودمشق..ولهذه المدن عوامل نشأتها الخاصة

¹ زكريا بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر. بيروت، ص.8.

² نفسه، ص.08.

³ نفسه، ص.06.

بها وقد تكون هذه العوامل هي ذاتها التي أدت إلى ظهور النوع الثاني من المدن. غير أن المسلمين بعد دخولها طبعوها بطابعهم الديني والثقافي والاجتماعي.. والنوع الثاني من المدن فهي التي ارتبط ظهورها بظهور الإسلام ومن أجل دراسة نمط المدينة الإسلامية وخصائصها والمؤثرات فيها فأنا نفضل دراسة هذا النوع من المدن لأنها مدن إسلامية مخضبة. ومن خلال نتبع مراحل نشأة هذه المدن يمكننا أن نحدد عوامل نشأتها.

1. العامل العسكري:

حين تولى عمر ابن الخطاب الخلافة واصل الفتح الذي بدأ في خلافة أبي بكر فوجه الجيوش إلى العراق والشام وكان من مقتضى الفتح أن يؤسس أمراء الجند قواعد عسكرية ينطلقون منها ويعودون إليها عند الحاجة وسرعان ما تحولت هذه القواعد العسكرية إلى مدن فصارت أول المدن الإسلامية إنشاء. فنشأت المدن الأولى في الإسلام كالبصرة والفسطاط والقيروان، وكان الأمراء يتولون اختيارا مواقع هذه المدن بعناية فائقة ويراعون فيها عدة شروط (بيئية وجغرافية...) وبعد اختيار الموقع يأتي تخطيط الكتل المعمارية المختلفة وفي مقدمتها المسجد. ففي كل المدن التي أنشأها الصحابة كان أول ما يختطونه المسجد لأهميته الاجتماعية والسياسية والثقافية، ويكون غالبا في وسط المدينة ثم تأتي دار الإمارة ثم الخطط وقطائع القبائل التي تقام فيها مساكن الجند محيطة بالمسجد، وقد أعتمد الأمراء في تقسيم القطائع على عامل العصبية القبلية¹ إقتداء بما فعله رسول الله ﷺ عليه وسلم في قطائع المدينة.

وفي بداية تكوين هذه المدن كان يسكنها الجند فقط ثم لحقت بهم أسرهم، ثم سمح لمختلف القبائل العربية بالهجرة إلى هذه المدن، وسرعان ما توالى الهجرات فانتقلت هذه المدن من معسكرات للجند إلى حواضر.

وما يميز هذه المدن عن غيرها من المدن أن التوسع المعماري تم بطريقة عشوائية، فلم يتدخل الأمراء في تخطيط هذه المدن تخطيطا منظما واضح الرؤية

¹ سعيد ناصف: مرجع سابق، ص 55.

والهدف، كما حدث بالنسبة لبغداد مثلا، فكانت التنمية العمرانية داخل المدينة متروكة للأفراد في إطار النظام القبلي التي قسمت إليه المدينة.¹ وأدى تزايد سكان هذه المدن إلى ازدهار عمرانها واختلاف منشأتها المعمارية، وساهم في هذا الازدهار توفر هذه المدن على خصائص ومقومات حضارية أسهمت في نموها، فقد بلغ سكان البصرة في العهد الأموي ثلاث مائة ألف، وهو عدد يعكس الكثافة السكانية لهذه المدن، والذي بدوره يعطينا تصورا عن عدد دورها ومنشأتها المعمارية.²

2. العامل الجغرافي:

إنّ المدن الإسلامية الأولى أوالتي اصطلحنا على تسميتها بمدن المعسكرات قد روعي عند اختيارها العامل الجغرافي والبيئي مما يلاءم الحالة الصحية للجند ويقربهم من مركز الخلافة، ويسهل وصول المدد إليهم عند الحاجة، فلقد كتب عمر بن الخطاب إلى مؤسس الكوفة: "إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فأبعث سلمان وحذيفة يرتادا منزلا بريا بحريا ليس يبني وبينكم فيه بحر ولا جسر".³ فبعث سعد بن أبي وقاص سلمان وحذيفة كل من جهة فسارا حتى وصلا إلى مكان الكوفة شرقي الفرات فأعجبتهما البقعة.

فعمر رضي الله عنه يحدد عاملين أساسيين في اختيار مواقع المدن، الأول بيئي وهو أن يكون جوها ملائما لما ألفه العرب، وقد روي أن المسلمين أصابهم الوباء عند دخولهم المدائن فاتحين.

أما الشرط الثاني: وهو جغرافي فيحرص عمر على اختيار موقع المدينة بحيث يسهل الوصول إليها عند الشدائد.

وليس من باب الصدفة أن يختار عمرو بن العاص موقع القسطنطينية مكانا لتأسيس مدينته فهولا يوجد بينه وبين الخليفة فاصل مائي يحول دون وصول المدد إلى جند

¹ محمد عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 76

² نفسه، ص 78

³ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة عز الدين للطباعة، سنة 1987، ط 2، المجلد 2، ص 33.

الإسلام، والأمر الثاني أن المدينة واقعة على نهر النيل وبالمقابل اشتملت على مجال كبير لتوسع المدينة من جهة الشمال، فبنيت بعد ذلك القطائع والقاهرة الفاطمية.¹ وكثيراً من المدن تعود نشأتها إلى العوامل الجغرافية، فهي تقع في الغالب على ضفاف الأنهار والبحيرات، لهذا نجد أن أغلب الحضارات قامت على ضفاف مراكز المياه كالحضارات المصرية والبابلية.²

أما عقبة بن نافع الفهري حين بدأ في البحث عن مكان يخطط فيه مدينته، فإنه حاول جاهداً أن يبتعد عن الماء، وهي سواحل البحر الأبيض المتوسط. فذكر ياقوت الحموي أن عقبة بن نافع اختار موقع مدينته الجغرافي لبعده عن البحر مخافة مهاجمة مراكب الروم لمدينته.³ وهو اختيار موفق لا يبتعد كثيراً عن الشرط الذي وضعه الخليفة عمر بن الخطاب، فالعرب في ذلك الوقت ليس لهم أسطول بحري يستطيع مواجهة الروم في البحر،⁴ وهو أيضاً اختيار استراتيجي عسكري.

ونحن نكتفي في هذا المجال بهذه الأمثلة وهي كثيرة وسنعود للحديث عن هذه المدن في مواضعها من هذا البحث.

3. العامل السياسي:

لعب هذا العامل دوراً بارزاً في نشأة الكثير من المدن و تطورها، فقد نقل الإمام علي مقر الخليفة من المدينة إلى الكوفة لكثرة أنصاره فيها،⁵ فصارت الكوفة عاصمة الخلافة، ومقصد الأنصار والجند، وقصدها الكثير من الصحابة ممن كانوا في جند علي وقصدها العلماء وطلبة العلم واستقروا بها، ولا شك أن هذه الحركة السياسية كان لها تأثيراً واسعاً على تطور المدينة من الناحية المعمارية واتساع خطتها.

ولما بويع معاوية بن أبي سفيان بالخلافة نقل مقر الحكم إلى دمشق فازدهرت دمشق على حساب الكوفة وغيرها من المدن، وصارت مقصد العامة والخاصة مما أثر

¹ سعيد ناصف: مرجع سابق، ص 60.

² لوسيان فيفر: الأرض والتطور البشري، ترجمة محمد السيد غلاب، دار المطبوعات الجديدة، القاهرة، ص 429.

³ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج 5، ص 421.

⁴ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 250.

⁵ سعيد ناصف: مرجع سابق، ص 57.

على حركية عمرانها وفقدت المدينة شهرتها حين أسس أبو جعفر المنصور العباسي مدينة بغداد، وهي مدينة لها من الخصائص الجغرافية والاقتصادية والإستراتيجية ما يجعلها مدينة جديرة بالدراسة والإهتمام للتعرف على أسباب اختيار موقعها وكيفية تقسيم خططها، خاصة أنها أول مدينة في الإسلام تأخذ الشكل الدائري³.

وفي مصر أسست مدينة العسكر لتحل محل الفسطاط فكثرت عمرانها واتسعت خططها، ثم إن ابن طولون أنشأ القطائع لتكون عاصمة لملكه بدلا عن العسكر، وأقام الفاطميون القاهرة عاصمة لملكهم.. ونتيجة لهذا ظهرت المدن تحمل أسماء الملوك فظهرت المهديّة والمستنصرية والمتوكليّة... وغيرها من المدن.¹

4. العامل الديني:

يلعب العامل الديني دورا هاما في نشأة المدن عامة والمدن الإسلامية على وجه الخصوص، لهذا يعتبر الكثير من الاجتماعيين هذا العامل من أهم عوامل نشأة المدن ويطلقون عليه العامل "القيمي" إذا تعتبر القيمة الاجتماعية والثقافية والدينية قد ساهمت بفعالية في بناء المدن وتحديد ملامح البناء الإيكولوجي للمدينة.

وفي التاريخ الإسلامي عندنا أمثلة كثيرة لمدن كان للوظيفة الدينية دورها في قيامها كمكة والمدينة والنجف وكربلاء... مما يبرز أهمية العامل الديني في ظهور وتكوين المدينة.²

فالعامل الديني له دور هام في تغيرات مرفلوجية المدينة، ففي مدن كمكة والمدينة والنجف يظهر الدور المباشر حيث تتمحور كل الوظائف حول العامل الديني الذي يمثل المحور الوظيفي والتخطيطي والمعماري في المدينة.

أما الدور غير المباشر فيتمثل في إقامة العديد من المدن على طرق الحجاج فتكثر في هذه المدن الفنادق والخانات والمطاعم لإيواء قاصدي هذه المدن.

* العسكر: سميت بهذا الإسم لأن عسكر صالح بن علي الهاشمي نزلها سنة 133هـ.
* القطائع: من الإقطاع

¹ سعيد ناصف: مرجع سابق، ص 28

² خالص الأشعب: مرجع سابق، ص 8.

مدينة الرسول ﷺ (صلى الله عليه وسلم)

لا يمكننا الحديث عن نشأة المدينة الإسلامية دون الحديث عن مدينة الرسول ﷺ (صلى الله عليه وسلم)، ويبدأ البحث في تاريخ هذه المدينة منذ اللحظات الأولى التي وطئت فيها القدمان الشريفتان أرض المدينة.

فحين هاجر الصحابة ثم تبعهم الرسول ﷺ (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة أخذت يثرب في التحول إلى المدينة بالمفهوم الحضاري. وأول مظاهر هذا التحول الذي بدأ الرسول في أحداثه في مرفولوجية المدينة كان على مستوى التسمية فسميت "المدينة". ولم يكتف الرسول ﷺ (صلى الله عليه وسلم) بهذا التغيير بل شرع في إحداث تغييرات جذرية على المستوى الاجتماعي والمعماري والاقتصادي... ثم هيا المجتمع الإسلامي، من أجل حياة حضارية تتماشى مع الوضع الجديد للمدينة، من خلال قيم وتعاليم الدين الجديد.¹

فكان أول شيء شرع فيه النبي ﷺ (صلى الله عليه وسلم) -ص- بناء المسجد النبوي، ثم بناء منازل أزواجه في كتلة معمارية واحدة ثم أنشئت حول المسجد منازل المهاجرين الموزعين في أحياء الأنصار،² وسيكون لهذه الخطة النبوية الأثر البالغ في مجال عمارة المدن الإسلامية الأولى، التي أنشئت على فترات متعاقبة من تاريخ الإسلام. فلقد صار المسجد هو النواة الأساسية التي تتمركز حولها كل الوحدات المعمارية المتواجدة داخل فضاء المدينة الإسلامية.

ثم شرع الرسول ﷺ (صلى الله عليه وسلم) في إعطاء فقراء المهاجرين قطعا من الأرض من أجل البناء فيها وهو ما يعرف في الفقه بالإقطاع، وكانت هذه الإقطاعات كلها في الأراضي الموات وهي الأراضي التي لم تكن مستغلة من قبل الأنصار، فوهبها لرسول الله ﷺ (صلى الله عليه وسلم)، فقام بتقسيمها بين المهاجرين من أجل إعمارها وكان رسول الله ﷺ (صلى الله عليه وسلم) من خلال هذا الفعل يحاول توسيع

¹ محمد عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 51

² صالح لمعي مصطفى: المدينة المنورة تطورها العمراني، وتراثها المعماري، دار النهضة العربية، لبنان، 1981، ص 12.

المجال العمراني للمدينة دون الإساس بالممتلكات الشخصية، وبهذا تواصل إعمار المدينة واتصلت مبانيها وصارت كيانا معماريا واجتماعيا وسياسيا واحدا.¹

وتشير النصوص التاريخية أنّ رسول الله ﷺ أقطع القطائع وجمع بين ذوي القربى في موضع واحد يسمى "الخطة"، فذكر المؤرخون أنّ رسول الله ﷺ لما قدم المدينة أقطع الناس الدور والأرباع، فخط لبني زهرة من ناحية مؤخرة المسجد، فكان لعبد الرحمن بن عوف الحصن المعروف به، وجعل لعبد الله وعتبة ابني مسعود الخطة المشهورة بهما عند المسجد، وأقطع الزبير بن العوام بقيعا واسعا، وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع دوره، ولأبي بكر عنه موضع داره عندا لمسجد.² ومن أهم الأعمال التي قام بها رسول الله -ص- وكان لها الأثر البالغ في المجال المعماري، المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين فاستطاع بذلك تذويب القبيلة المقيّنة، فأقتسم الأنصار مع المهاجرين أموالهم وديارهم ومنحهم أراضيهم لزراعتها، وفي إطار أوسع أكد الإسلام على الرابطة العامة للمسلمين فوحدتهم في تنظيم حربي اجتماعي تحت راية الإسلام، فأسكن كل قبيلة خطة واحدة بحيث لا يختلط معهم غيرهم مراعاة خصائص كل قبيلة، ومع هذا التقسيم القائم على القبيلة فإن الرسول ﷺ ضمن ولاءهم للإسلام ونوب ما كان بينهم من فوارق وأحقاد وسنرى كيف إعتد مؤسسو المدن على هذا التخطيط النبوي.³

وكانت لكل خطة مسجد خاص بها يؤدون فيه الصلوات اليومية، واستكمالا لمرافق المدينة قام رسول الله ﷺ بإنشاء سوق المدينة وبهذا اكتملت التكوينات المعمارية داخل المدينة (المسجد-المساكن-السوق)، وكانت هذه الكتل المعمارية ترتبط فيما بينها بشبكة من الشوارع والطرق، وتلتف حول المسجد النبوي ودار الإمارة (منزل الرسول).⁴

¹ محمد عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 54

² ياقوت الحموي: مصدر سابق، ص 86

³ محمد عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 51

⁴ نفسه، ص 58

وكانت هذه الخطة النموذج الذي أثر في عمارة المدن الإسلامية المستحدثة كما حدث في الكوفة مثلا عندما اختط سعد بن أبي وقاص المسجد ثم دار الإمارة (منزل سعد) ثم اختط الناس مساكنهم.

الخصائص المعمارية للمدينة المنورة:

من خلال ما تقدم يمكن التعرف على أهم التركيبات الأساسية التي كونت مدينة الرسول ﷺ عليه وسلم صلى الله عليه وسلم بصفة عامة، ذلك أن مؤسسي المدن الإسلامية كالكوفة والبصرة والقيروان اعتمدوا مدينة الرسول كنموذج مرجعي لبناء مدنهم.

وأول هذه التكوينات: "المسجد النبوي".

1. المسجد النبوي: (أنظر الشكل السادس)

حين قدم رسول الله ﷺ عليه وسلم المدينة، قرر أن يكون المكان الذي تبرك فيه ناقته مكانا لبناء أول بناء في الإسلام، وكان هذا المكان عبارة عن مريض لغلّامين من الأنصار فاشتراه منهما رسول الله..¹

ويعتبر المسجد النبوي ذا أهمية بالغة في المجال المعماري، فهو أول مبنى ديني يشيّد المسلمون، بحيث يعتبر المرجعية الفكرية في العمارة الإسلامية من الناحية النظرية والتطبيقية، كما يعتبر، هذا المبنى المرجعية للمساجد التي بنيت في فترات لاحقة من تاريخ الإسلام كالمسجد الأموي، ومسجد عمروو مسجد القيروان... إلخ

الوصف المعماري:

كان المسجد النبوي عبارة عن مستطيل طوله 70 ذراعا و عرضه 60 ذراعا أي (30م x 35م)، وألحق بالمسقط المستطيل للمسجد من جهة الشرق بيتان الأول للسيدة سودة بنت زمعة والثاني لعائشة بنت أبي بكر.²

وكانت قبلة المسجد في جهة الشمال لأن رسول الله ﷺ عليه وسلم ظل يصلي إلى بيت المقدس حوالي سبعة عشر شهرا قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة.

¹ السمهودي: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، طبعة إلكترونية، شبكة الوراق، ص100

² نفسه، ص102 .

وجعل النبي أساس المسجد من الحجر يبلغ عمقه ثلاثة أذرع (حوالي 1.50 م) أما جدرانه فكانت ترتفع سبعة أذرع (3.50 م) وجعل له رواقا في الجانب الجنوبي، ومقابل الجهة الشرقية من المسجد نجد حجرات أزواج النبي وفي زاويته الجنوبية الغربية تقع الصفة وهي رواق مغطى كان يلجأ إليه فقراء المهاجرين.¹

ذكر كريزويل أنّ أبعاد المسجد كانت (100 ذراع x 100 ذراع)، وانتقد ما ذكره مؤرخوا الإسلام من أنّ أبعاد المسجد كانت 70 x 60 وعلّل ذلك بأن هذا كان في فترات متأخرة، غير أنّ السمهودي ينقل أقوال ابن زباله وهو أول مؤرخ كتب عن المدينة المنورة في نهاية القرن 2 هـ، حيث ذكر أنّ المسجد في أول بنائه كان (70 x 63) ذراعا، وكان للمسجد 3 أروقه في كل رواق 6 أسطوانات (أعمدة) فإذا كانت المسافة بين كل أسطوانتين حوالي 9 أذرع فالحاصل عندنا 63 ذراعا، ولعل الأمر اختلط على كريزويل لإحتمال أنّ تكون القياسات التي ذكرها إنما تعود للبناء الثاني كما يفهم من نص السمهودي: "...وجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وكذا في العرض وكان مربعا فهذا الذراع في البناء الثاني² ولابن زباله في خبر عن ابن شهاب أنّ رسول الله ﷺ عليه وسلم: "بني مسجده سبعين في ستين ذراعا أويزيد، ولبنّ لبنه من بقيع الخجنبة"³

عمل رسول الله ﷺ أساس المسجد بالحجر على عمق ثلاثة أذرع (1.50)، تعلوه حوائط من الطوب وأعطى السمهودي مقاسات الطوب المستعمل في البناء، معتمدا على بعض الحجارة التي عثر عليها في حوائط الغرف النبوية عند تجديد المسجد النبوي من قبل عمر بن عبد الغريز سنة (88هـ - 89هـ) هـ، وهي على النحو التالي:

- الطول: أزيد من ذراع = 50 سم
- العرض: 1/2 ذراع = 20 سم
- الارتفاع: 1/4 ذراع = 12 سم

¹ كريزويل: مرجع سابق، ص 16.

² السمهودي: مصدر سابق، ص 101

³ نفسه، ص 100

كما عثر على طوبة طولها يساوي عرضها ويساوي ارتفاعها وهي أقل حجما من الأولى. (25 x 25 x 25) سم.¹

وكان المسجد النبوي مبنيًا باللبن وسقفه بجريد النخل، وأعمدته من خشب النخل، وروى أن رسول الله: "بناه بالسميط*لبنة على لبنة ولما كثر الناس بناه بالسعيدة لبنة ونصف، ثم كثروا فقالوا يا رسول الله لوزيد فيه، ففعل فبنى بالذكر والأنثى، وهما لبنتان مختلفتان، و رفع أساسه قريبا من ثلاثة أذرع بالحجارة وجعل طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع"، وجعل عرض الجدار ذراعا ونصف (1.50 م).²

ولم يكن المسجد النبوي مسقوفا في بداية الأمر، فلما اشتد الحر على الناس ظلل الرسول ﷺ عليه وسلم المسجد، فصنعت له أعمدة (سوارى) من جدوع النخيل ثم وضعت عليها الجسور الخشبية (العوارض)، وغطى بالجريد والخصوص ثم غطى سطحه بالطين بعد مدة لمنع تسرب مياه الأمطار، وكان الإنتهاء من بناء المسجد النبوي في أبريل سنة 623 م، أما التسقيف فكان في صيف 623م، أما التلبيس بالطين فكان شتاء 624م.

وكان للمسجد جهة القبلة (بيت المقدس أي الحائط الشمالي) ثلاثة أروقة بكل رواق ستة (06) أعمدة (أسطوانات)، وفي مؤخرة المسجد توجد الصفة المشهورة التي كان يأوي إليها فقراء المهاجرين.

وبلغ ارتفاع جدار المسجد قدر قامة الإنسان، أي حوالي ثلاثة أذرع ونصف (حوالي 1.75 م).³

أبواب المسجد:

جعل النبي ﷺ عليه وسلم للمسجد النبوي ستة أبواب با بين عن يمين القبلة، وباب آخر يسمى باب مروان المعروف بباب السلام، وباب عاتكه ويعرف اليوم

¹ السمهودي: نفسه، ص 101

* السميطة: هو الأجر القائم بعضه فوق بعض، ويطلق السميطة على الحائط قليل الارتفاع.. (سامي سوار، ص 19).

² السمهودي: نفسه، ص 101

³ صالح لمعي مصطفى: مرجع سابق، ص 57

ببواب الرحمة، وللمسجد با بين آخرين على اليسار أحدهما الباب الذي كان يدخل منه النبي -صلى الله عليه وسلم- وباب النساء وبا بين خلف القبلة من جهة الشام.¹

مواد الإنشاء:

تعمل رسول الله ﷺ عند بناء المسجد النبوي موادا بسيطة تتوفر عليها المدينة دون مبالغة ولا إسراف.

وأهم هذه المواد جذوع النخل، وقد استعملت هذه المادة كأساطين أي الأعمدة واستعمل جريد النخل كسقف للمسجد في جزئه الأول (المقدمة) ثم استخدمها الرسول ﷺ في تغطية المسجد لحماية المصلين من الحر في الصيف ومن المطر في الشتاء.

كما استعمل رسول الله ﷺ الطوب اللبني في بناء الأسوار وعملت لباسة من الطين فوق الأروقة الأربعة، وبلغ سمكه ذراعان وهو مكون من الجسور (جذوع النخيل) فوقه تلبسة من الطين، وجعلت للسقف ذروة بإرتفاع 3 أذرع (1م و50سم)، أي أن ارتفاعها فوق مستوى السطح ذراع واحد (0, 50 م)، واستعملت الحجارة في بناء أساس المسجد، وكانت أرضية المسجد من التراب ثم حصبت بحصى جيئ بها من وادي العقيق.²

ومن خلال هذا الوصف للمسجد النبوي فإنه يمكننا استخلاص الدروس المعمارية التالية، وهي دروس أفاد منها المعماريون كثيرا في كل مراحل تطور الفكر المعماري.

- 1- تخطيط المسجد هو أول ما ينبغ القيام به عند إرادة تأسيس المدن للاستفادة منه في الحياة الفكرية والاجتماعية وربما السياسية أيضا.
- 2- يجب أن يقام المسجد على أرض تكون ملكيتها للدولة فإن كانت ملكيتها خاصة، فإن موافقة أصحابها تعتبر أمرا ضروريا من أجل استكمال بناء المسجد وتحاز أرضه بطرق الحيازة المعروفة في الشريعة (الهبة، الوقف، البيع..).

¹ السمهودي: مصدر سابق، ص 126

² صالح لمعي مصطفى: مرجع سابق، ص 63

3- يعتمد في بناء المساجد خاصة والمباني الأخرى عامة على المادة الأولية المتوفرة في البيئة، حتى لا تتحمل الدولة أو الأشخاص أعباء كثيرة من أجل بناء المسجد، فاستعمال اللبن والجنوع والجريد ينبهنا إلى ضرورة الاعتماد على مواد البيئة.¹

2. الأسواق:

واستكمالاً للكتل المعمارية داخل المدينة قام رسول الله ﷺ على وسلم بإنشاء سوق للمبادلات التجارية، لأن السوق مصدر التكسب ومقصد الناس لاستيفاء حاجاتهم من الطعام والمتاع.

وقد روى الطبراني أن رجلاً جاء النبي ﷺ فقال: "إني نظرت موضعاً للسوق أفلا تنظرون إليه؟ قال: بلى، فقام معه حتى موضع السوق فلما رآه أعجبه وركض برجله وقال: " نعم سوقكم هذا فلا ينقصن ولا يضر بن عليكم خراج".² فحدد رسول الله ﷺ على وسلم في هذا الحديث أهم المبادئ التي ينبغي مراعاتها عند تحديد مكان السوق أولها: أن يكون السوق ملكاً عاماً مشاعاً لجميع المسلمين يمنع من البناء فيه أو وقفه أو إقطاعه.. والأمر الثاني: هو أن لا يفرض على أصحابه خراج أو ضريبة مقابل بيعهم أو شرائهم.

وكان هذا السوق خارج المدينة، وهو عبارة عن فضاء واسع لا بناء فيه، يضع التجار بضائعهم على الأرض والمكان لمن سبق فلا يمنعه منه أحد. وقال عمر بن الخطاب: " أن الأسواق على سنة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته أو يفرغ من بيعه"،³ وبقية السوق على هذه الحالة إلى غاية العهد الأموي.⁴

وابتداء من خلافة معاوية بن أبي سفيان بدأت البناءات العامة تظهر في سوق المدينة، فشيّد فيها دار القطران ودار النقصان، غير أن إعمار السوق لم يتم إلا في

¹ خالد محمد عزب: مرجع سابق، ص 48

² ابن ماجه: كتاب التجارات. صاب. ص 40

³ الطبري: مصدر سابق، مج 4، ص 45.

⁴ عثمان عبد الستار: مرجع سابق، ص 58.

خلافة هشام بن عبد الملك إذ أمر واليه على المدينة خالد بن اسماعيل ببناء دارتضم سوق المدينة بأكملها وبقية الزبير بأكمله، وأقام سورا به طاقات- نوافذ- وبوابات ثم بني البيوت التي احتوت جميع الأسواق.¹ ومن هنا أيضا يمكننا أن نستخلص العبر من فعل رسول الله ﷺ عليه وسلم في إقامة السوق.

فعلى الحاكم أن يتولى بنفسه أوأعوانه تحديد مكان للسوق ويختار له الموقع المناسب مما يحقق مصالحهم ولا يترك لهم أمر تحديده فيحدد بطرق عشوائية بحيث يصعب التحكم فيه وينبغي أن تكون أرضه ملكا للدولة كما رأينا سابقا في بناء المسجد.

والأمر الثاني الذي نستفيد به من حديث النبي ﷺ عليه وسلم أنه لا يجوز لأحد أن ينتقص شيئا من سوق الناس، فلا يجوز لأحد أن يمتلك جزءا من السوق بدعوى الأحياء مثلا، فهي وقفا على أهل السوق من الباعة والمشتريين كما لا يجوز لأحد من الناس أوالباعة أن يبني في السوق شيئا بحيث يضيقها على الناس، فيعرقل حركة البيع والشراء.

3. الشوارع والطرق:

ترتبط الكتل المعمارية (المسجد- السوق-الخطط..) ببعضها البعض عن طريق الشوارع التي تيسر من عملية الحركة داخل التجمع المعماري، فقد كانت بالمدينة المنورة شوارع رئيسية تمتد على طول المسجد وتصل إلى أطرافها فمن هذه الشوارع شارع يربط المسجد النبوي باتجاه الغرب إلى أن يصل إلى جبل سلع، وشارع آخر يبدأ من المسجد أيضا ويمر بمنازل بني عدي ليصل إلى جنوب قباء ومن قباء نجد طريقا يصل إلى البقيع.

وعلى أطراف هذه الشوارع بنيت المساكن والمنشآت المعمارية المختلفة، ومن هذه الشوارع الكبيرة تفرعت شوارع صغيرة تصل بين مختلف أنحاء المدينة، وتخطيط الشوارع بهذا الشكل (شوارع رئيسية ثم شوارع ثانوية) القصد منه الربط بين مختلف التكوينات المعمارية من جهة ووسط المدينة الذي يقوم فيه مبنى المسجد من جهة

¹ عمر عبيد حسنة: مقدمة كتاب "عمارة المدن الإسلامية" ص 15. 16.

أخرى¹ ليكون أقرب للمصلين من أجل أداء الصلاة أو الاجتماع في الأمور الهامة كحالة النفير للحرب.

وقد روعي هذا التخطيط بشكل دقيق في المدن الإسلامية التي أنشئت في فترات لاحقة، ونظرا لأهمية هذه الشوارع داخل المدينة، فإن عرضها قد اختلف بحسب أهميتها وبحسب الحاجة إليها، فكان عرض الطريق الكبير عشرة أذرع أي حوالي خمسة أمتار، بينما تراوح عرض الشوارع الفرعية بين خمسة وستة وسبعة أذرع. وتعتبر الطريق في الفكر الإسلامي المعماري ملكا مشاعا موقوفة على استعمال المسلمين، لهذا نجد أن الرسول ﷺ صلى الله عليه وسلم حمى طريق المسلمين بجملة من التشريعات تهدف إلى الحفاظ عليها وعدم الانتقاص منها وعرقلة حركة السير فيها، ومن أهم التشريعات المتعلقة بالطريق ما يعرف في الفقه بحق الطريق.

4. الدور والمنازل:

حين نزل الرسول المدينة المنورة، فإن الأنصار أعطوه كل أرض غير مستغلة يتصرف فيها كيف يشاء، فكان من أمر رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم أن أقطعها المهاجرين وقد استدل الفقهاء بفعل رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم على مشروعية إقطاع الحاكم ما يشاء من الأراضي الموات.

فأقطع رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام المكان المعروف ببقيع الزبير، وفيه بنى الزبير دوره، وفيه دور أبناءه عروة والمنذر وكانتا متلاصقتين، واتخذ ذؤيب بن حبيب دارا بالمصلى مما يلي السوق، وكانت موجودة بين دار عبد الملك بن مروان وبين الزقاق الذي يقال له زقاق القفاصين،² وهذا يدل على أن الأزقة على عهد رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم، كانت تحمل أسماء الأشخاص أحيانا، وأحيانا أخرى تحمل أسماء الحرف، وشاع هذا الأمر بعد ذلك في كل المدن الإسلامية، فكانت الأزقة بأسماء من يقطنها من أصحاب الحرف ومنها مثلا زقاق الخمارين.³ واتخذ أبو بكر عدة منازل

¹ محمد عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 58.

* الزقاق: بالضم هو الطريق (لسان العرب، ج 10، ص 144).

1 ابن شبة: طبعة إلكترونية، شبكة الوراق. ص 67.

³ نفسه، ص 67

منها دارا كانت في زقاق البقيع مقابلة لدار عثمان الصغرى كما بنى دارا أخرى عند المسجد، والراجح أن هذه الدار كانت ملاصقة للمسجد وكانت تنفتح عليه وهي الدار التي قال رسول الله بشأنها: "سدوا عني هذه الأبواب إلا ما كان من باب أبي بكر". واتخذ أيضا دارا أخرى في وسط بيوت بني الحارث وهو المنزل الذي توفي فيه رسول الله ﷺ عليه وسلم¹. واتخذ سائر المهاجرين دورا، كان بعضها محيطة بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم من جميع الجهات وتوزع بعضها في أحياء الأنصار². وكانت أول الدور بناء هي تلك التي بناها رسول الله ﷺ عليه وسلم ملاصقة لمسجده وهي غرف أزواجه وكانت تسعة غرف شارع في المسجد، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون"³. وكانت غرف أزواج الرسول مبنية من الطين ومفصولة عن بعضها البعض بجريد النخل مغطاة بالطين، ووضعت على أبواب الغرف ستائر من القماش الأسود، كل ستار طوله 3 أذرع وعرضه ثلاثة أذرع⁴.

أ. دار الضيافة:

وكانت تسمى أيضا الدار الكبرى، وهي أول دار بناها المهاجرون بالمدينة وروي أن رسول الله ﷺ عليه وسلم ساهم في بنائها بيديه الشريفتين، وكانت ملكا لعبد الرحمان بن عوف، وكان يسكن بها ضيوف النبي ﷺ عليه وسلم لهذا سميت دار الضيفان⁵.

ب. دار القضاء:

وهي أيضا ملك لعبد الرحمان بن عوف وسميت بدار القضاء لأن عبد الرحمان بن عوف أعتزل فيها الناس ليالي الشورى حتى قضى في الأمر، ثم صارت هذه الدار

¹ ابن شبة: مصدر سابق، ص 71.

² عصام محمد شبارو: الدولة العربية الإسلامية الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ط. 3، 1995، ص 108.

³ سورة الحجرات: الآية، 04.

⁴ كريزويل: مرجع سابق، ص 16.

⁵ ابن شبة: المصدر السابق، ص 68.

لعمر بن الخطاب، فهدمها وألحقها بالمسجد فصارت رحبة للمسجد وكانت قبل ذلك تستعمل للدواوين وبيت المال.¹

ويظهر من خلال هذا أن فكرة المؤسسات الحكومية كانت ماثلة في التنظيم السياسي والاقتصادي للمدينة المنورة، فالمسجد هو مركز الإشعاع الحضاري والفكري وهو المقر الذي يمارس فيه الرسول ﷺ كل اختصاصاته الدينية والسياسية والاجتماعية، وزيادة على ذلك اتخذ دار الضيافة ليستقبل فيه من يرد عليه من أجل الإسلام، أو من أجل المفاوضات، كما اتخذ بيتا للمال. أما اتخاذ دار القضاء للدواوين فالمرجح أن هذا الأمر لم يكن إلا في خلافة عمر، فقد ثبت أنه أول من اتخذ الدواوين.

نعلم جيدا أن رسول الله ﷺ والمهاجرين أقاموا دورا ومنازل للسكنى في المدينة المنورة وابن شبه وغيره ممن كتبوا عن تاريخ المدينة أعطوا معلومات مستفيضة عن الدور التي أنشأها الصحابة رضوان الله عليهم، ولكننا لا نجد تفاصيل مفيدة عن كيفية البناء، ولا المواد المستعملة في البناء، ولاسعة هذه البيوت، ومن خلال المعلومات التي وصلت إلينا، فإننا نستطيع أن نستخلص بعض ملامح هذه الدور.

وأول ما يمكن ذكره هو: أن هذه البيوت كانت على غاية من البساطة، وعدم الاتساع فقد كانت حجرات زوجات النبي منخفضة السقوف،² ومن أهم مميزاتها أنها كانت بسيطة من حيث التصميم والإنشاء، وكان كل بيت عبارة عن غرفة مربعة طول ضلعها بين 3 و3.5 متر، والمدخل عبارة عن فتحة بسيطة،³ وذكر الزركشي نقلا عن الحسن البصري قوله: "كنت أدخل بيوت النبي وأنا غلام فأنال السقف"، وتعتبر هذه الغرف التي بناها الرسول ﷺ في الجهة الشرقية من المسجد أولى النماذج المعمارية في الإسلام وليس لدينا معلومات أكثر وضوحا ودقة على ما كانت عليه هذه البيوت. فهي بقدر القامة شأنها في ذلك شأن المسجد النبوي، ويدل على هذا

¹ ابن شبة: مصدر سابق، ص 68.

² عصام محمد شبارو: مرجع سابق، ص 108.

³ كمال سامح: دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية، دار الوفاء للطباعة والنشر، الكتاب الأول، ص 30.

أن رسول الله ﷺ كان يميل إلى التقشف والإكتفاء بالقدر اليسير من البناء، بحيث يقيه حر الصيف وبرد الشتاء، ونظرات الفضوليين، والمارة من الناس. وقد روي أن رسول الله ﷺ جاءه الأنصار فقالوا: يا رسول الله ابن المسجد وزينه إلى متى نصلي تحت هذا الجريد؟ فقال: "ما بي رغبة عن أخي موسى، عريش كعريش موسى".¹ ويظهر من هذه الرواية أن رسول الله ﷺ لم يكن له رغبة في تسقيف المسجد وزخرفته وتزيينه.

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه قال: "لقد رأيتني مع رسول الله، وقد بنيت بيتا يكفني من المطر، ويظلني من الشمس، وما أعانني عليه أحد من خلق الله". فالمنزل في عهد الرسول ﷺ كان على غاية من البساطة والخصوصية والاعتماد على المادة البيئية المتوفرة.

وذكر في هدي الرسول ﷺ في بناء المسكن: "لما علم صلى الله عليه وسلم أنه على ظهر سير وأن الدنيا مرحلة مسافر ينزل فيها مدة عمره. لم يكن من هديه ولا هدي أصحابه الاعتناء بالمساكن وتشبيدها وزخرفتها وتوسيعها بل كانت من أحسن منازل المسافر تقي الحر والبرد، وتستتر عن العيون، وتمنع من ولوج الدواب ولا تخاف سقوطها لفرط ثقلها ولا تعشش فيها الهوام لسعتها، ولا في غاية الارتفاع على الأرض بل وسط وتلك أعدل المساكن وأنفعها وأقلها حرا وبردا..."² ومما يدل على هديه ﷺ في مراعاة الاعتدال في البناء والإقتصار على الجانب الوظيفي للبيت ما رواه أبو داود عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة مشرفة؟ فقال: ما هذه؟ قال له أصحابه هذه لفلان رجل من الأنصار قال: فسكت وحملها في نفسه حتى إذا جاء صاحبها رسول الله ﷺ عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه فقال: والله أني لأنكر رسول الله ﷺ. قالوا: خرج فرأى قبلك قال: فرجع إلى قبته فهدمها حتى سواها بالأرض، فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم يراها قال: ما فعلت القبة؟ قالوا: شكنا إلينا

¹ السمهودي: مصدر سابق، ص 102

² ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 8، ج 4، ص 238-239

صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه، فهدمها. قال: أما إن كل بناء وبال على صاحبه إلا ماء، إلا ما... " يعني ما لا بد منه.¹

ومن هذا الحديث النبوي يتضح لنا جليا أن رسول الله ﷺ كان يرغب عن كل بناء يزيد عن الحاجة، كما يرشدنا الحديث إلى أمر بالغ الأهمية. وهو وجود نوع من التطور المعماري، متمثلا في بناء القبّة، ونحن لا نعلم ما كانت عليه هذه القبّة من إنشاء وزخرفة واستعمال لمواد البناء، ولا نجد في كتب السير ما يفيدنا بهذه المعلومات وما يمكن أن نستخلصه من القصة أن هذه القبّة كانت ذات أبعاد متواضعة بدليل رؤيته ﷺ لها حال خروجه وعلى الرغم من هذا فلا يمكن أن نقيسها على ما ظهر من القباب، والغالب أن المراد بالقبّة البناء المرتفع على سطح الأرض، بدليل أن الرجل هدم البناء كله.

ومما يؤكد ميل الرعيل الأول من الصحابة إلى الاقتصاد في البناء والاكتفاء بما يؤدي الوظيفة. رسالة عمر بن الخطاب إلى أمير جنده سعد بن أبي وقاص لما هم هذا الأخير ببناء دور الجند، فقد ذكر الطبري: أن سعدا كتب إلى عمر يستأذنه في بناء بيوت الكوفة باللبن، فكتب إليه عمر: " افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاث أبيات، ولا تطاولوا في البنيان وألزموا السنة تلتزمكم الدولة.."² وعهد عمر إلى الناس أن لا يرفعوا بنيانا فوق القدر، فقالوا: وما القدر؟ قال: " ما لا يقربكم من الترف ولا يخرجكم عن القصد."

ومن الدروس التي يمكن أن نسجلها انطلاقا من هذه القصة، وندرجها ضمن المنظومة المعمارية الإسلامية أنه لا يجوز لأحد من الناس ولو كان حاكما أن يشرع في البناء دون أن يأخذ إذنا ممن يليه رتبة، ولو كان في البناء منفعة عامة وهذه القاعدة من القواعد التي تنظم حركية العمران في مختلف الدول فلا يجوز لأحد مباشرة البناء دون أخذ تصريح بالبناء من الجهات الوصية، لهذا نجد أن كلا من سعد وعتبة حين باشرا البناء، استأذنا من عمر، ولم يكتف عمر بالإذن لهما بل وضّح لهما القوانين المعمارية التي ينبغي لهما التقيد بها وعدم الخروج عنها، وهذه القوانين وإن كانت مؤقتة فإنها لا

¹ أبوداود: السنن. ص 360

الطبري: مصدر سابق، مجلد 4. ص 331

شك تصدر عن منظومة فكرية تتماشى مع عصرها، وتتبع من تصور لما ينبغي أن يكون عليه البناء، وما هي الأهداف المنتظرة منه.

وبسبب هذا الميل إلى الإقتصاد والابتعاد عن الإسراف كانت دور المسلمين الأوائل على غاية من البساطة وعدم الأتساع والاكتفاء في بناء الدور بما يؤدي الغرض والوظيفة التي من أجلها تبني، وقد روي أن خالد بن الوليد شكى إلى رسول الله ﷺ ضيق منزله فقال له النبي ﷺ: "اتسع في السماء".¹ ومن خلال هذه الرواية ندرك أن الدار لم تعد تف بالغرض الذي بنيت من أجله، فوجهه النبي ﷺ إلى البناء في الطابق العلوي، وهذا الحديث يدلنا إلى أمر مهم، وهو أن في المدينة المنورة كانت الدور تقام على طابقين. ولا أدل على ذلك من القصة المشهورة لأبي أيوب الأنصاري حين نزل ﷺ عليه وسلم ضيفا عليه، فسكن هو وزوجته الطابق العلوي وسكن رسول الله ﷺ عليه وسلم الطابق السفلي فتدفق ماء إناءه، فقام هو وزوجته لتجفيفه حتى لا يقع على رأس رسول الله ﷺ عليه وسلم،² ويظهر من هذه الرواية أن البناء بطابقين كان مشهورا، فأبو أيوب لم يكن من سادة القوم، ومع ذلك كان منزله يتألف من طابقين، ونستخلص من حديث أبي أيوب أن البناء لم يكن على غاية من الإتقان لتسرب الماء إلى الطابق السفلي.

وتروي كتب السيرة قصة شبيهة بهذه فقد كتب عمار بن ياسر إلى عمر في دار له بالمدينة، فبناها له عمر وياشر البناء بنفسه، فحين قدم عمار تعاضمها واستوسعها وقال: "إنما كنت أريد ما يظل راسي، وأقيد فيه راحلتي حتى أرجع إلى مرابطي".³ فالغاية من الدور عند هؤلاء المهاجرين وظيفية لا أكثر، لذلك فكثيرا ما كانوا يهملون الجانب الجمالي فيها، فكان الاتجاه السائد في هذه الفترة عدم الميل إلى إقامة الأبنية والإعتناء بزخارفها.⁴

¹ ابن شبة: مصدر سابق، ص 71.

² السمهودي: مصدر سابق، ص 126.

³ ابن شبة: مصدر سابق، ص 72.

⁴ كريزويل: مرجع سابق، ص 17.

مشهوراً، فأبوأيوب لم يكن من سادة القوم، ومع ذلك كان منزله يتألف من طابقين، ونستخلص من حديث أبي أيوب أنّ البناء لم يكن على غاية من الإتقان لتسرب الماء إلى الطابق السفلي.

وتروي كتب السيرة قصة شبيهة بهذه فقد كتب عمار بن ياسر إلى عمر في دار له بالمدينة، فبناها له عمر وباشر البناء بنفسه، فحين قدم عمار تعاضمها واستوسعها وقال: "إنما كنت أريد ما يظل راسي، وأقيد فيه راحتي حتى أرجع إلى مرابطي."¹ فالغاية من الدور عند هؤلاء المهاجرين وظيفية لا أكثر، لذلك فكثيراً ما كانوا يهملون الجانب الجمالي فيها، فكان الاتجاه السائد في هذه الفترة عدم الميل إلى إقامة الأبنية والإعتناء بزخارفها.²

والأمر الثاني: أن هذه الدور إنّما بنيت بالمواد الخام المتوفرة في المحيط السكني، وهي اللبن والطوب وجذوع النخيل وسعفه، فقد ذكر أن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم بنى إلى جوار المسجد بيوت أزواجه باللبن وسقفها النخل والجريد.³

وهذه جملة من النصوص نوردّها للتدليل على أن الدور الأولى في المدينة إنّما بنيت بالطوب واللبن.

ذكر أحد أحفاد عمّار بن ياسر: أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد عمار بن ياسر فجاءه في منزله وهوي بني داره فوجده ينقل طينا، فنقل عمر رضي الله عنه - معه بنفسه طينا ولبنا.⁴

¹ ابن شبة: مصدر سابق، ص 72.

² كرزويل: مرجع سابق، ص 17.

³ السيوطي (جلال الدين): مصدر سابق، ج 1، ص 77.

⁴ ابن شبة: مصدر سابق، ص 71.

والأمر الثالث الذي نختم به هذه الملاحظات أن أمر البناء في المدينة لم يكن بيد طبقة من أصحاب الصنعة، فكان الرسول والصحابة يبنون بأيديهم يساعد بعضهم بعضا في ذلك. وهذا الأمر ربما يرجع إلى بساطة ما كانوا يقومون به من البناء فلم يكن البناء عندهم يقوم على حسابات وعلاقات هندسية صعبة بحيث يحتاجون إلى أهل الصنعة.

وثبت فيما سبق أن رسول الله ﷺ ساهم في بناء المسجد النبوي وفي بناء غرف زوجاته، وفي بناء دار الضيافة، وذكرنا أيضا أن عمر وجد عمار يبني بيتا له بنفسه، ومر رسول الله ﷺ بعبد الله وعمر بن الخطاب وهما يبنيان بيتا لهما، وفي هذا إشارة إلى قاعدة هامه من قواعد الإسلام وهي التكافل الاجتماعي، وهي قائمة إلى يومنا هذا فلا يزال الناس يجتمعون عند الشخص يعينونه عند بناء بيته حتى تسعه نفقته.

الفصل الثاني:

المدن الإسلامية الأولى

أولاً: مدينة البصرة

ثانياً: القيروان

ثالثاً: مدينة بغداد

الفصل الثالث

أولاً: مدينة البصرة

تعتبر مدينة البصرة المرجع الحقيقي لدراسة نشأة وتطور المدن الإسلامية، فهي أول مدينة ينشئها المسلمون خارج شبه الجزيرة العربية، وهي لاشك خاضعة للمنظومة الفكرية والاجتماعية والسياسية التي جاء بها الإسلام، وبالتالي فهي تختلف عن المدن التي أنشئت في فترات سابقة للإسلام، وأضفى عليها الإسلام بعد ذلك طابعه الخاص كالمدينة المنورة ومكة ودمشق...، وكان للمدينة بعد تأسيسها دوراها في التاريخ الإسلامي، سياسيا وإقتصاديا واجتماعيا وعلميا.... الخ.¹

وتذكر الروايات التاريخية أن المسلمين الفاتحين حين نزلوا المدائن تغيرت ألوانهم واستوخموا المكان، فكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص يسأل عن سبب مرض الجند، فأخبره بأن هواء المدائن لا يلائمهم، فكتب إليه عمر: "إنّ العرب لا يوافقها إلا ما وافق أهلها من البلاد..."²

حلّت الجيوش الإسلامية الأولى بمدينة البصرة حوالي سنة 12 هـ، وكانت عبارة عن منطقة خالية من العمران، فنزل بها الجند تحت إمرة عتبة بن غزوان*، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في اتخاذها قاعدة لإقامة جيشه، فأذن له عمر في ذلك بعد أن عرفه بوصفها، فاتخذها عتبة بن غزوان قاعدة عسكرية للهجوم على جيوش الإمبراطورية الفارسية، ولم يتخذ الجند في بداية الأمر البيوت والمنازل بل أقاموا في الخيام والقباب.

وجاء في كتاب عتبة بن غزوان الذي بعثه إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في اتخاذ موقع المدينة الجديد: "إنّه لابدّ للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا، ويسكنون فيه إذا إنصرفوا من غزوهم."³ وكان المرافقون لعتبة يتراوح عددهم بين 300 و800 مقاتل، فاخطت عتبة بن غزوان المدينة، وقسم الخطط بين الجند وفق التخطيط الذي أقره

¹ دائرة المعارف الإسلامية: دار المعرفة، لبنان، مج3، ص670

² محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المغطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، ص105

* عتبة بن غزوان بن عامر، ولاء عمر على البصرة، ت17هـ (الأعلام، ج1، ص113)

³ أبو الحسن البلاذري: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978، ص341.

النبي ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، فقسمت المدينة إلى خطط يرأس كل خطة رئيس قبيلة أو أمير فرقة حربية.

فبنى الناس منازلهم في بداية الأمر بالقصب، فكانوا إذا ارتحلوا إلى الغزورفعوها، وإذا رجعوا منه أقاموها واستقروا بها.

ويظهر أن الحريق الذي أصاب مدينتي الكوفة والبصرة كان له الدور الفعال في تغيير مرفولوجية المدينتين، فاستأذن عتبة بن غزوان الخليفة في البناء بالطين واللبن، فأذن له عمر في ذلك،¹ فبنى الناس منازلهم بالطين، ولم يكتف عمر بالإذن لهم بالبناء بالطين بل بين لهم سياسته ومنهجه في الإعمار وهولاشك منهج يستمد جذوره من سنة الرسول ﷺ، ويتسم بالبساطة والبعد عن الترف والإسراف، ذكر ابن الأثير: "أن أهل الكوفة استأذنوا عمرا في البناء باللبن بعد الحريق، فقال لهم افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاث أبيات ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلمكم الدولة ثم كتب بذلك إلى أهل البصرة".²

وبعد هذه المرحلة الهامة من مراحل تطور المدينة، عرفت البصرة حركة عمرانية واسعة وسريعة، نتيجة نجاح الفتوحات الإسلامية على الجبهة الفارسية، وتشجيع حركة الهجرة إلى المدينة الجديدة، والتحاق أسر الجند بذويهم، فازداد بذلك عدد السكان، فاخطت الناس الخطط على المنهاج السابق - النظام القبلي - فجعل الوالي الجديد - أبو موسى الأشعري - لكل قبيلة خطة وأمر الناس بالبناء وأمر بتحديد أبعاد الشوارع، فكان عرض الشوارع الرئيسية ستون ذراعا، وعرض الشوارع الصغيرة عشرون ذراعا.³

وشرع أبو موسى الأشعري في بناء المسجد ودار الإمارة بالطين واللبن، فتغير وجه المدينة وأعطاهما بعدا حضاريا جديدا.

¹ ابن جرير الطبري: مصدر سابق، ص 332

* ابن الأثير: اسماعيل بن أحمد، قتل بظاهر حمص، في وقعة مع التتار سنة 698هـ (الأعلام، ج 1، ص 447)

² ابن الأثير: مصدر سابق، ص 368

³ ناجي عبد الجبار: مرجع سابق، ص 160

* أبو موسى الأشعري: عبد الله بن قيس من اليمن، ولاء عمر البصرة، وعزله عثمان (الأعلام، ج 1، ص 130)

وعرفت المدينة مرحلة ثالثة من التطور وهي لاشك مرحلة أهم من المراحل السابقة، وكانت هذه المرحلة في ولاية زياد بن أبيه، فقد شرع هذا الوالي في البناء بالأجر والجص، فأعاد بناء المسجد ودار الأمانة كما توسع في مجال الإقطاع واتخاذ الأسواق وأعاد تخطيط المدينة متبعا في ذلك النظام الإسلامي المألوف، فقسم المدينة إلى خمسة أقسام موزعة على بطون القبائل المختلفة.¹

ويمكن القول أن المدينة في هذه الفترة عرفت تطورا معماريا هاما من حيث التخطيط، فقد اتسعت رقعتها وازداد عدد سكانها، وتعددت أسواقها ومحلاتها وفق خطة محكمة تسيطر عليها السلطة الحاكمة.

أما من ناحية الإنشاء فقد استخدم زياد بن أبيه موادا جديدة متمثلة في الجص والأجر مستغنيا بذلك عن الطين واللبن والقصب.

الخصائص المعمارية لمدينة البصرة:

لم يختلف تخطيط مدينة البصرة عن التخطيط الذي أحدثه صلى الله عليه وسلم في مجال عمارة المدن، وهولا شك تغيير ناتج من روح الشريعة الإسلامية وتعاليم الإسلام الجديدة، ويقوم على التقاف الكتل المعمارية المختلفة حول بناء الجامع، وهوبذلك يشبه التقاف الصحابة والناس حول رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يهدف هذا التخطيط إلى حماية المسجد من الأخطار، وإنما يهدف أساسا إلى انتفاع المسلم بهذه الكتلة المعمارية، لهذا وجدنا أن المسجد في الشريعة يؤدي وظائف مختلفة دينية وسياسية وثقافية، ومن هذا المنطلق حرص عتبة بن غزوان أن يكون أول ما يقوم به في مدينة البصرة، هوبناء المسجد الجامع.

1. مسجد البصرة:

حين اختط عتبة بن غزوان مدينة البصرة كان أول عمل قام به هو اختطاط المسجد الجامع، ثم أمر بعد ذلك بتشبيد دار الإمارة، واختط الناس حول المسجد الخطط

¹ عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 67

* زياد بن أبيه: أمير من الدهاة الفاتحين، ولاءه الإمام علي على فارس، ألحقه معاوية بنسبه، ت 35هـ (الأعلام، ج 1، ص 135).

غير أن تشييد الوحدات السكنية داخل المدينة، في هذه الفترة كان بالقصب،¹ وهذا لا يعني أبداً أنه كان الوسيلة المتوفرة لديهم، أو أنهم لم يكونوا يحسنون البناء بغيره، ولكن الدافع إلى ذلك كان عسكرياً محضاً، فلقد كان غالبية المرافقين لعتبة من الجند وكانوا دائمي التأهب للخروج إلى الغزوفكان البناء بالقصب المادة الملائمة لهذا الظرف. فهو يجعل خروجهم إلى الغزوسهلاً يسيراً، فكانوا إذا خرجوا إلى الحرب رفعوا ما بنوه بالقصب.

وتذكر الروايات أنّ عتبة بن غزوان أمر نافع بن الحارث الثقفي* ببناء المسجد، فكان بناء المسجد كما ذكرنا سابقاً بالقصب، ولما احترق المسجد أثناء الحريق الذي أصاب مدينة البصرة والكوفة، استأذن الناس عمر بن الخطاب رضي الله عنه في البناء باللبن، فأذن لهم وهو كاره لذلك، فتم بناء المسجد بالطين واللبن، وغالب الظن أن ذلك الأمر تم في إمارة أبي موسى الأشعري، الذي قام بتوسعة المسجد، وسقّفه بالخشب، وظل المسجد على هاتاه الحال حتى تولى إمارة البصرة زياد بن أبيه الذي أعطى بعداً جديداً للحركة العمرانية داخل المدينة بصفة عامة وعمارة المسجد بصفة خاصة.²

ويعتبر زياد بن أبيه الوالي الأموي من أهم الشخصيات التي أثرت في مجال الفكر المعماري الإسلامي، فهو أول من استعمل في البناء الآجر والساج، وهو أول من بنى المآذن. ففي عهده انتقلت العمارة الإسلامية من البساطة والتقشف إلى الإبداع. فبنى زياد المسجد بالآجر والحصى واستعمل الساج لتسقيفه بدل الطين الذي استعمل في ولاية أبي موسى الأشعري، وجلب له الحجارة من المناطق المجاورة، وصنع منها سوارى المسجد، وكانت الدعائم تتحت ثم تنقب ثم تملأ بالرصاص والحديد من أجل صلابتها وبلغ ارتفاع هذه الدعائم حوالي ثلاثون ذراعاً،³ وفرش زياد بن أبيه أرضية المسجد بالحصى بدل التراب الذي كان يغطي أرضية المسجد، وروى أنّ زياد خشي أن يعتقد الناس على مر العصور أن نفص

¹ الطبري: مصدر سابق، ص 479.

* نافع بن الحارث الثقفي: أسلم يوم الطائف، تاريخ وفاته مجهول (الأعلام، ج 1، ص 171).

² كريزويل: مرجع سابق، ص 133.

³ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 161.

الأيدي من الأتربة العالقة بها بعد القيام من الصلاة جزء منها فأمر بالحصى فجمع وألقيت في صحن المسجد.¹

ويظهر أنّ مسجد البصرة قد استوحى شكله وعمارته في مراحلها الأولى من المسجد النبوي، وأصبح للمسجد في ولاية زياد أربعة ظلال تظلّل جوانبه الأربعة، وكونت لنا هذه الظلال أربعة أروقة، وكان أكبر الأروقة وأكثرها اتساعاً الرواق الذي على جدار القبلة، وتعدد الظلال يوفر حماية أكبر للمصلين من الظروف الطبيعية مثل الحرارة والمطر، ونتيجة عن هذه الزيادات في مسجد البصرة ظهور عنصر الصحن.² وبهذا اكتمل تخطيط المسجد، وسرعان ما انتشر هذا الطراز في كل أنحاء العالم الإسلامي، قبل أن يظهر طراز جديد هو طراز المسجد ذي القبة المركزية الذي ظهر مع دخول الأتراك إلى الساحة السياسية والثقافية للعالم الإسلامي.

2. دار الإمارة:

بعد اختطاط المسجد قام عتبة بن غزوان باختطاط دار الإمارة ويظهر أن استعمال لفظ «تخطيط» لفظة مبالغ فيها وحتى استعمال "دار الإمارة" التي يطلقها المؤرخون على ما بناه عتبة أمر مبالغ فيه، فلم تكن هذه الدار إلا مجرد كوخ مبني من القصب، بني بجوار المسجد ليأوي أمير الجند وهذه المبالغة في استعمال المصطلحات كثيراً ما قد تقودنا إلى استنتاجات خاطئة.

فإستعمال لفظ "دار الإمارة" يوحي في الغالب بأنّ الأمير أو الحاكم المسلم كان يتميّز في بنائه عن سائر الناس، فيتخذ لنفسه القصور أو الدور الفاخرة دون عامة الناس، غير أن الأمر في بداية الأمر لم يكن كذلك، فقد كان الحاكم يتخذ بيته قرب المسجد ويبنيه بالمادة التي يبني بها سائر الناس ويساهم في بنائه بيده، وهذا الأمر يعطينا فكرة عن الحالة الفكرية العمرانية في القرون الأولى من الهجرة، ويؤكد هذا الأمر ما رواه المؤرخون من أنّ سعد بن أبي وقاص اتخذ باباً من خشب وخص على بابه ليمنع الناس من الدخول إليه فأرسل إليه عمر بن الخطاب رجلاً حتى إذا وصل

¹ البلاذري: مصدر سابق، ص 343.

² كمال سامح: مرجع سابق، ص 32.

الكوفة جمع الحطب وأحرق عليه بابه.¹ وهذا يدل أن عمر بن الخطاب كان لا يحبذ أن يتميز الحاكم عن سائر الناس في بنائه، وتتطلق هذه الرؤية من روح الشريعة الإسلامية، فالناس في الإسلام سواسية لا فرق بين حاكم ومحكوم وهو المقصود بقوله تعالى: "إن أكرمكم عند الله اتقاكم"،² وأثرت مثل هذه النصوص في مجال الفكر المعماري لقرون عدة (القرون الأولى على الأقل)، فلم يتميز رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الناس في بناء بيوته، بل كانت أبسط بيوت المسلمين، وكذلك فعل عمر وأبو بكر وعثمان (رضي الله عنهم أجمعين) ومؤسسو المدن الأولى في الكوفة والبصرة، ولكن الأمر اتخذ مجرى آخر، خاصة بعد نجاح الفتوحات الإسلامية، وامتلاء خزائن بيت المال، وعرف هذا التغير ذروته في الخلافة الأموية، فقد شرع خلفاء بني أمية في اتخاذ الدور الفخمة والقصور والمنتزهات، وهذا يدل دلالة واضحة على تغير ملامح الفكر المعماري الإسلامي بعد القرون الأولى، ولهذا التغيير ما يبرره من الأسباب.

وإذا عدنا إلى دار الإمارة التي بناها عتبة بن غزوان، فإن الوالي الجديد أبو موسى الأشعري قد أعاد بناءها باللبن والطين في سنة أربعة وخمسين هجرية (54 هـ - 673 م) ثم نقل هذه الدار إلى قبلة المسجد،³ ولما تولى زياد بن أبيه إمارة البصرة أحدث تغييرات جذرية على المدينة، فأعاد بناء المسجد ودار الإمارة، ولا نشك أن زياد بن أبيه قد بنى دار الإمارة على غير الحال التي كانت عليه في زمن سابقه: عتبة بن غزوان وأبو موسى الأشعري، واستعمل في بنائها مواد بنائية جديدة خاصة أنه حين جدد المسجد استخدم في بنائه الأجر والحصى والرخام، ومن هذه الفترة التاريخية يمكننا أن نطلق على ما بناه زياد "دار الإمارة"

¹ البلاذري: مصدر سابق، ص 277.

² سورة الحجرات، الآية 13.

³ البلاذري: مصدر سابق، ص 343.

3. الأسواق:

كانت مدينة البصرة خالية من الأسواق باستثناء سوق واحدة، وهي سوق المربرد، وهي سوق خارج المدينة في ملتقى الطرق بين المدينة والبادية وكانت هذه السوق تضم مختلف المبادلات التجارية.

وفي ولاية عبد الله بن عامر بن كريز* (36هـ) اشترى مجموعة من الدور قرب النهر وهدمها وبنى الأسواق، منها سوق عبد الله وهي السوق الرئيسية في المدينة، وشجع هذا الوالي عملية الإقطاع لزيادة الإنتاج، واتخاذ الأسواق وتأسيسها بالمدينة، وأعاد بناء سوق المربرد لأنها لم تعد تفي بالعرض.¹

وفي ولاية زياد، اهتم ببناء الأسواق، فبنى دار الرزق، وهي عبارة عن مجموعة من المتاجر داخل دار واسعة تحتوي أربعة أبواب، كانت تقوم بوظيفة المخزن للطعام والمؤن، وشجع زياد بناء الوحدات المعمارية كالمحلات والحمامات.²

وفي فترة لاحقة أقيمت الدكاكين على جانبي النهر، فصارت سوقا هاما داخل البصرة. وعرفت مدينة البصرة توسعا معماري سريعا لم تعد معه هذه الأسواق ثلاثم وضعية المدينة الجديدة (اقتصاديا واجتماعيا)، فقد حل بها التجار والعاملون وطلبة العلم من مختلف البلدان، فتعددت تبعا لذلك أسواقها وتنوعت، وأعيد تنظيمها من جديد، فصار سوق المربرد عبارة عن سوق كبيرة تحتوي جملة من الأسواق الفرعية، مثل سوق الدباغين وسوق الإبل وسوق الطحانيين...، وتحول سوق الكلا إلى سوق كبيرة تضم أسواقا فرعية متخصصة، كسوق أصحاب القطن وسوق القصابين وسوق الكحالين وسوق الدقيق.³

* عبد الله عامر بن كريز بن ربيعة الأموي: أمير فاتح، توفي عام 54 هجرية. (أنظر الأعلام، ص 139، ج 1).

¹ عثمان عبد الستار: مرجع سابق، ص 65.

² نفسه، ص 67.

³ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 166 - 167.

4. خطط الأهالي:

تأسست مدينة البصرة على نفس الأساس الذي انتهجه رسول الله ﷺ عليه وسلم عند إعادة تنظيم المدينة المنورة، فقد قسم صلى اله عليه وسلم خطط المهاجرين حسب الولاء القبلي، فأسكنهم في منطقة تبعا لأصولهم القبلية. وحين تولى أبو موسى الأشعري ولاية البصرة وأعاد بناءها باللبن والطين، أعاد تقسيم الخطط على رؤوس القبائل، فقسم المدينة إلى خمسة أخماس كل خمس يمثل قبيلة أو مجموعة من القبائل.

وهذا التقسيم أعطى للمدينة تنظيماً دقيقاً وهيئة منظمة، فكل خطة مسجدها ومقبرتها ورحابتها التي تربط فيها خيلها. وكان لرئيس القبيلة السلطة النافذة داخل الخطة، كما كان له الأمر النافذ داخل القبيلة، فهو إمام صلواتها وقاضيتها وحاكمها باسم السلطان، وسهل هذا الأمر على الوالي إدارة المدينة واستتفار الجند عند إرادة الخروج للحرب.¹

ويظهر أن أمر بناء الخطة قد ترك للقبيلة تبنى كيف تشاء، إلا فيما تعلق بالنظام العام، كأمر الشوارع أو بعض توجيهات الخليفة التي رآها هامة وتعكس توجهاته في مجال البناء والعمران.

¹ عثمان عبد الستار: مرجع سابق، ص 65.

ثانياً: القيروان

تعتبر مدينة القيروان واحدة من أهم المدن الإسلامية وتكتسي أهميتها لأنها تعتبر أول مدينة يؤسسها المسلمون في إفريقيا وفي منطقة المغرب الإسلامي، فهي تمثل نقطة التحول في تاريخ المغرب الإسلامي. ولعبت القيروان منذ إنشائها دورين هامين كان لهما بالغ التأثير في شمال إفريقيا، فالدور الأول هو عسكري أما الدور الثاني فهو ديني، إذ كانت تعتبر المدينة قاعدة ينطلق منها العلماء وطلبة العلم لتبليغ الدعوة، وترجع أهمية القيروان إلى أهمية المسجد في تاريخ تونس وتاريخ شمال إفريقيا، فهو أول مسجد بني في شمال إفريقيا، ويعتبر بحق النموذج الأصلي لكل مساجد شمال إفريقيا، فقد اقتبست منه العمارة المغربية والأندلسية الكثير من العناصر المعمارية والزخرفية، و ينطبق الأمر على مئذنته ذات القاعدة المربعة، فهي من أقدم المآذن في العالم الإسلامي ومنها استوحيت مساجد المغرب الإسلامي بناء مناراتها إلى يومنا هذا.

ويعود تاريخ إنشاء مدينة القيروان إلى سنة 50هـ¹ الموافق لـ 670م، ويذكر ابن عذارى أنها أسست سنة 51هـ²، وذكر اليعقوبي* أنها اختطت سنة 60هـ³، والمصادر متفقة على أن عقبة بن نافع الفهري هو مؤسس المدينة.

وكان عقبة بن نافع الفهري قبل إنشاء القيروان مقيماً في برقة خلال الفترة ما بين 42هـ إلى 49هـ⁴، ويظهر أن طول هذه الإقامة جعلته على دراية كاملة بأحوال إفريقيا السياسية والعسكرية والاجتماعية⁵، وقد رغب عقبة في تأسيس مدينة تكون قاعدة عسكرية ومنطلقاً لحملاته العسكرية على شمال إفريقيا وملاذاً له ولجيشه، من أجل إسترجاع الأنفاس والاستراحة من عناء الغزو، وتظهر رغبته هذه في قوله

¹ البلاذري: مصدر سابق، ص 229.

² ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة، بيروت،

مج 1، ص 10.

* أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب، الشهير باليعقوبي.

³ اليعقوبي: مصدر سابق، ص 126.

⁴ محمد بن عبد المنعم الحميري: مصدر سابق، ص 484.

⁵ عبد الله كامل موسى عبده: مرجع سابق، ص 209.

لرجاله: "إني أرى إفريقية إذا دخلها إمام تحرموا بالاسلام، وإذا خرج عنها رجع كل من أجاب منهم عن دين الله عز وجل فهل لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون لكم عزا للأبد فأجابه الناس وانفقوا على أن يكون أهلها مرابطين فيها...."¹

رأى عقبة بن نافع أنه من الضرورة أن يؤسس مدينة ينطلق منها إلى غزوه ويتحصن بها ضد هجومات البربر المفاجئة، ولكن عقبة بن نافع واجهته مشكلة اختيار موقع لمدينته، بحيث يكون في معزل عن هجومات الروم البحرية من جهة وهجومات البربر من جهة ثانية، وحين شاور عقبة بن نافع رجاله في شأن اختيار الموقع قالوا له: "نقر بها من البحر.."²، وهو اختيار سرعان ما أظهر عقبة بن نافع مساوئه، فجعل المدينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط قد يعرضها إلى خطر الروم البيزنطيين، خاصة أن عقبة بن نافع يدرك تفوق الأسطول البيزنطي في المعارك البحرية، التي لم يألفها جند المسلمين³. وذكر المؤرخون أن عقبة بن نافع قال: "إنما اخترت هذا الموضع لبعده عن البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكوا"⁴، وهو دون شك رأي موفق، إذ العرب لذلك الحين لا يملكون أي خبرة في المعارك البحرية أمام الأسطول البيزنطي الذي كان يسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط عدة وعتادا. وذكر الحميري ما يقارب هذه الرواية، فنذكر أن عقبة قال لرجاله لما أشاروا إليه بجعل المدينة قريبة من البحر: "أخاف من ملك القسطنطينية.."⁵.

وإن كان عقبة بن نافع يجتأط في اختيار موقع المدينة من هجمات الروم، فإنه بالمقابل لم يغفل عن خطر لا يقل شأنًا عن خطر الروم، وهو خطر القبائل البربرية المتحصنة بجبال الأوراس، فجعل المدينة مواجهة لهذه الجبال، قريبة من مركز القيادة في القسطاط، ليس بينه وبينهم أي فاصل مائي فتكون بذلك في منأى من هجمات البربر

¹ إسماعيل العربي: المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1974، ص 239.

² محمد بن عبد المنعم الحميري: مصدر سابق، ص 486.

³ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 250.

⁴ ياقوت الحموي: مصدر سابق، ج4، ص 421.

⁵ محمد بن عبد المنعم الحميري: مصدر سابق، ص 486.

والنساء والحكومة كانوا إنفقوا على أن يسكن البربر الجبال ويسكن نصارى الروم
 السهل لاجع معروف: العمارة الدينية في وادي ميزاب. رسالة دكتوراة دولة، كلية الآداب،
 جامعة قنطرة، 2001. لعامل العسكري كان العامل الرئيسي في اختيار موقع المدينة،
 فهو موقع الازبوغ والفرج والمباني القلموطية فوسمها المارة صتل من الزمينة، كمال الله كعمارة،
 الإلهة الجبل الشكري 1999 المختلفة وقد قدرت المسافة بين الفسطاط والقيروان بحوالي
 638 ميلاً² بنو هذول الإخيار الأيسول بالطلح حبة على ما يفهم والتباس من المنهج الحنين الإخطامية
 بالمضي بل الله العزيز في رأسلنى دكتوراه، فتولأمر قوم لا تتفأقة للشجعة، كنية ولهم، فأجلا تمأبى
 بكر تباقيين، اللحنان 2000.

وموقع القيروان يتمشى والذهنية العربية، فهم أولاً قوم يغلب عليه الطابع
 الجليل وتشلهم مراعي دوابهم وإبلهم. فلا يستقرون إلا حيث يتوفر الماء والكأ
 وهو أمر كان متوافراً في موضع القيروان، فيسوق لنا الحميرى رأى عقبة بن نافع في
 هذا الشؤن من "الرحوبك من تجليل خاشقوا على كفى المايكة الإملاتكة من ملكة العينة بالعل بيتي
 مراعيها 974 مؤن بتمبر 2000³، الكويت، ص 85.

2. فلكزنتي القورعان: "فليعمران طو البنيا أرض المسكين باستقبال الفدر الأمان من غير المشقة
 وهي بعيلثالثن أكتوبر 1998 يوم 18، وتبعد مثل ذلك عن الجبال التي كان يتحصن
 بها لبروليد عبد الله المنسي: "أوجه التشابه بين قرارات البلدية و نصوص الحسبة
 وشأهات هملق في التخطيط القطنر تطول ما يدعى عمارات الكوايت احتجى عبد اية الحمرى تطو العجل
 العسكرى العربية للالو إفران كلسا كابت ع الكايل العربية تنزل بها باستمرار مما أدى إلى زيادة
 حجها لمركانير⁴ اهيم: "تأثيرات معمارية وافدة على العمائر المملوكية بمدينة القاهرة"،
 لذكليس اللور بخي للدر عاقان واليات، فليلهتجد العلمى جامعة المدينة لآثار في ذكر العربى عذارى
 المراكشى أن مساحتها بلغت ثلاثة عشر ألف وستمائة (13600) ذراع⁵، أما ابن الأثير

¹ ابن عذارى: مصدر سابق، ص 10.

² عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 251.

³ الحميرى: مصدر سابق، ص 484.

⁴ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق ص 253.

⁵ ابن عذارى: المصدر السابق، ص 10

فيحدد مساحتها بثلاثة آلاف وستائة الفهرس يظهر أن الاختلاف في تحديد المساحة

يرجع إلى الاختلاف في زمن تحديد هذه المساحة، فيكون التحديد الأول هو مساحة

المدينة في الفترات الأولى من إنشائها أما المساحة الثانية فهي للمدينة بعد اتساع

المدن العمرانية بها ونزوح القبائل العربية إليها خاصة أن القيروان كانت مقصدا

للجيوش الإسلامية المتوجهة إلى شمال إفريقيا من أجل محاربة

القبائل البربرية. الفصل الأول: العمارة الدينية 10

أولا المسجد وأستعمل عقبة والناس في البناء القرميد والآجر لتوفر نواحي القيروان على

ثانيا: المدرسة الطين الملائم لصناعة الآجر² ويعكس استعمال الآجر تطورا في الفكر المعماري

الفصل الثاني: العمارة المدنية الإسلاي، فقد عدل الناس عن استعمال القصب والطين، كما حدث في البصرة

أولا: البيعة الإسلامية وهو تطور يعكسه التطور الزمني لبناء المدينة، فالقيروان بنيت سنة 50هـ أما

في الكوفة، وهو تطور يعكسه التطور الزمني لبناء المدينة، فالقيروان بنيت سنة 50هـ أما

في البصرة، فقد بنيت سنة 14هـ. رابعاً: الأبناس في بناء عقبة لمدينة القيروان إتباعه للقواعد التي وضعها عمر بن

الخطيب في تأسيس المدن، غير أن هذا الأمر لم يمنع عقبة من الإفراد ببعض الأمور

الخاصة بها والتي تدل على مرونة الفكر المعماري الإسلامي، وأن الأمر ليس ثابتا لا

التي ظهر فيها تطور في البناء العمراني الإسلامي، فالقيروان بنيت سنة 50هـ أما

في الكوفة، وهو تطور يعكسه التطور الزمني لبناء المدينة، فالقيروان بنيت سنة 50هـ أما

في البصرة، فقد بنيت سنة 14هـ. رابعاً: الأبناس في بناء عقبة لمدينة القيروان إتباعه للقواعد التي وضعها عمر بن

الخطيب في تأسيس المدن، غير أن هذا الأمر لم يمنع عقبة من الإفراد ببعض الأمور

الخاصة بها والتي تدل على مرونة الفكر المعماري الإسلامي، وأن الأمر ليس ثابتا لا

التي ظهر فيها تطور في البناء العمراني الإسلامي، فالقيروان بنيت سنة 50هـ أما

في الكوفة، وهو تطور يعكسه التطور الزمني لبناء المدينة، فالقيروان بنيت سنة 50هـ أما

في البصرة، فقد بنيت سنة 14هـ. رابعاً: الأبناس في بناء عقبة لمدينة القيروان إتباعه للقواعد التي وضعها عمر بن

الخطيب في تأسيس المدن، غير أن هذا الأمر لم يمنع عقبة من الإفراد ببعض الأمور

الخاصة بها والتي تدل على مرونة الفكر المعماري الإسلامي، وأن الأمر ليس ثابتا لا

التي ظهر فيها تطور في البناء العمراني الإسلامي، فالقيروان بنيت سنة 50هـ أما

في الكوفة، وهو تطور يعكسه التطور الزمني لبناء المدينة، فالقيروان بنيت سنة 50هـ أما

في البصرة، فقد بنيت سنة 14هـ. رابعاً: الأبناس في بناء عقبة لمدينة القيروان إتباعه للقواعد التي وضعها عمر بن

الخطيب في تأسيس المدن، غير أن هذا الأمر لم يمنع عقبة من الإفراد ببعض الأمور

الخاصة بها والتي تدل على مرونة الفكر المعماري الإسلامي، وأن الأمر ليس ثابتا لا

التي ظهر فيها تطور في البناء العمراني الإسلامي، فالقيروان بنيت سنة 50هـ أما

الماء 60. وهو حملنا اصطقلمنا الموديع للإسلامية، المدايسة فأغلبنا المشاالم القطنى، طابقتنا المودة أنشبتة على ضفاقها لأفها الشوق نابع المياه.

61 وشكر زالفولى عبلى الحميدة القيرورة الكفون قليات والماء الإسفاك، هذا المعالار أن، ماءهم ضلالسكندرا بموقد تمكن عقبة بن نافع بطبيعته الصحراوية من حل المشكلة عن طريق 6 بناسود قطه ليرى في بطنال البحر لىء طالمطارد ارباللى ومقها للناس 6. فقد إعتادوا تخزين المياه 63 كما أنشئت بواليار تلاتر فى الإسلام، السيرة فى طقس هذا الآلى، شر الأى بوضالم، وذكر المؤرخ جوق هنيشرمونسلولو القيان انكافى من عالم العلم "صهاريج" بنيت لهذا الغرض وكان 64 عديده ذوز الوى هاريج الضلوة الإسلامية والعلة عدمالم للضرورة مياط الأبح السعيديات بناء الصهاريج أمر وز لمرة الثقافة القيرورة، فبالكو أحمد 1990 لأغلب بنى ماجلا عظيم الشأن، وهو صهرج مستدير متناهي الكبر وفي وسطه صومعة مئمة الشكل وتعلو هذه الصومعة قبة لها أربعة أبواب³.

الخصائص المعمارية لمدينة القيروان

1. دار الامارة:

حين أقام عقبة المسجد الجامع أنشأ دار الامارة وسط المدينة، في الجهة الجنوبية من المسجد، وكانت دار عقبة بن نافع على غاية من البساطة والتواضع، وهوشان الصحابة والسابقين من المسلمين في بناء دورهم، خاصة أن عقبة كان لا يبقى إلا ناذرا في القيروان، فقد كان دائم الخروج للغزو، وورد في الكامل لابن الأثير أن عقبة بن نافع كان أثناء عمارته للقيروان يغزو ويرسل السرايا⁴.

¹ المقدسى: مصدر سابق، ص 225.

² عبد الله كامل: مرجع سابق، ص 292.

³ الحميرى: مصدر سابق، ص 485.

* أحمد بن الأغلب: كان مولعا بالعمران (242هـ-249هـ)

⁴ ابن الأثير: مصدر سابق، ص 628.

وبقيت هذه الدار منزل الأمراء والولاة في العصرين الأموي والعباسي إلى غاية سنة 184هـ، وهو التاريخ الذي بني فيه إبراهيم بن الأغلب* قصرا خاصا لمقامه¹. ومن المؤسف أنه لم تصلنا أي معلومات معمارية عما كانت عليه دار الامارة التي بناها عقبة بن نافع، وكل ما نعرفه عنها أنها كانت في وسط المدينة مجاورة للمسجد، أما ذكره ياقوت الحموي "ثم إختط دارا للامارة"²، وهي معلومات بسيطة لا تسمح لنا بتتبع التطور المعماري لهذه المنشأة. وتبقى بين أيدينا مجرد تخمينات يعوزها الدليل، والملفت للانتباه أن ابن عذارى المراكشي ساق لنا خبرا غريبا لم نألفه في تأسيس المدينة الاسلامية، ونص الخبر أن عقبة بن نافع قد اختط دار الامارة قبل أن يخط المسجد فقال "... فأختط عقبة أولا دار الامارة ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فأختطه ولم يحدث فيه بناء"³. أما البلاذري مثلا فلم يذكر أن عقبة بنى دار الإمارة قبل المسجد، بل ولم يذكرها مطلقا وكل ما ذكره أن عقبة بن نافع اختط القيروان وبنى مسجدها⁴.

ولا نعلم تفسيراً قطعياً لما فعله عقبة بن نافع من بناء دار الامارة قبل المسجد وهو عمل لم نعهده عند تأسيس المدن الاسلامية، سواء المتقدمة أو المتأخرة، وهو الذي كان حريصا على اتباع منهج الصحابة في البناء، يؤكد ذلك تمسكه بالقواعد التي وضعها عمر ابن الخطاب لتأسيس المدن.

ونعتقد أن عقبة إنما بدأ بدار الامارة لعدم إدراك موضع القبلة، ويدعم هذا الرأي كون عقبة ابن نافع اختط المسجد ولم يشرع في بناءه وكان يصلي فيه وهو مجرد رحبة خالية، ويؤكد هذا الرأي أيضا ما ذكره المؤرخون في اختلاف الناس على أمر القبلة، ومنها رواية ابن عذارى المراكشي أن الناس اختلفوا على عقبة وقالوا: "إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك في تقويمها"، فرأى عقبة في منامه أنه قد جاءه رجل فقال له: "إذا أصبحت فخذ اللواء بيدك وأجعله على عنقك

ابراهيم بن الأغلب: أحد أمراء الأغلبية (184هـ-196هـ)

¹ عيد الله كامل موسى: مرجع سابق، ص 297.

² ياقوت الحموي مصدر سابق، مج 4، ص 421.

³ ابن عذارى: مصدر سابق، ص 10 راجع أيضا ياقوت الحموي: ج 4، ص 421.

⁴ البلاذري: مصدر سابق، ص 230.

فإنك تسمع بين يديك تكبيرا... فأنظر الموضع الذي ينقطع فيه عنك التكبير فهو قبلتك ومحرابك..¹

فأغلب الظن إذا أن عقبة إنما قدم بناء دار الامارة على المسجد لإختلاط أمر القبلة عليه.

2. جامع عقبة بن نافع بالقيروان (أنظر الشكل الخامس)

يحمل هذا المسجد اسم الصحابي الذي بناه، وهو عقبة بن نافع الفهري الصحابي الجليل، وقد ذكر ابن عذارى في أمر بناء المسجد، أن عقبة لما دخل إفريقيا اختط دار الإمارة، ثم جاء إلى موضع الجامع فاخبطه، ولم يحدث فيه بناء، وكان يصلي فيه وهو على حاله، فاختلف الناس في أمر القبلة... فدعا عقبة الله أن يبسر له أمر القبلة... فسمع في منامه صوتا يقول له: "...إذا أصبحت فخذ اللواء في عنقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك، فإن الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك..."² فكان بناؤه سنة 50هـ الموافق لـ 670م³ ولقد تعرض المسجد للهدم والتوسعة عدة مرات، فقد قام حسان بن النعمان بهدمه وترك المحراب، وأعاد بناءه وزاد فيه وحسنه، واعتمد في بنائه على بقايا كنيسة قديمة، ثم أمر الخليفة هشام بن عبد الملك بتوسعته سنة 734م على يد عامله بالمغرب بشر بن صفوان⁴.

وفي حكم بني الأغلب عرف المسجد ثلاثة تعديلات، وجدد كليا في ولاية زيادة الله بن الأغلب* سنة 836هـ، وهدمه وأراد أن يهدم المحراب فاعترض عليه الناس واحتجوا عليه بأنه من بناء الصحابي عقبة بن نافع، وأن من سبق زيادا لم يتجرأ على هدمه، فلما رأوا إصراره على هدمه، أشار عليه أحد المعماريين بترك المحراب على حاله وبناء محراب آخر أمامه، فبنى زياد الله حائطا ومحرابا.

¹ ابن عذارى: المصدر السابق، ص 10.

² ابن عذارى المراكشي: مصدر سابق، ج 2، ص 20-21.

³ أنور الرفاعي: تاريخ الفن عند العرب، ط2، لبنان: دار الفكر، 1977، ص 74.

⁴ أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، تحقيق مريا خيصوص، تقديم محمود بوعياض، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1981، ص 71.

* زياد الله بن الأغلب: ثامن الأغلبية (تـ250هـ)

ويعتبر مسجد القيروان أصل كل المنشآت الدينية - المساجد - التي ظهرت فيما بعد في بلاد المغرب الإسلامي، وكان من شأن سكان المغرب إذا أرادوا تحديد قبلة مساجدهم، أن يتبعوا قبلة مسجد عقبة بن نافع¹.

مخطط المسجد:

مسجد القيروان عبارة عن مخطط مستطيل الشكل طوله مائة وستة وعشرون مترا (126م) وعرضه ستة وخمسون مترا (56م). ويشتمل على صحن وحرم. والصحن عبارة عن شكل مستطيل طوله سبعة وستون مترا وعرضه ستة وخمسون مترا (67مx56م)².

ويحيط بالصحن أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة، وتطل على الصحن بأربعة بوائك، والرجح أنّ هذه الأروقة من عمل أبي حفص الذي رمم المسجد سنة 1045م³. وحرم المسجد مستطيل الشكل أيضا يبلغ عمقه سبعين مترا وعرضه سبعة وثلاثين مترا وسبعين سنتيمترا (70مx3770م)، ويتألف من سبعة عشر رواقا عموديا على جدار المحراب.

وتمكن المعماري من إبراز المحراب وتفاصيله وزخارفه بفضل المجاز القاطع وهو الجناح الأوسط، وهو أوسع الأجنحة وأشدها ارتفاعا، حيث تكتنفه أعمدة مزدوجة ويشكل الرواق الأفقي شكلا يشبه حرف (T)، ولعل هذا يرجع إلى تأثر مخطط المساجد الإسلامي الأول بمخططات الكنائس المسيحية⁴.

¹ G Marçais, Manuel d'architecture, p15.

* ذكر أنور الرفاعي أن طولهxعرضه (135مx80م)، راجع أنور الرفاعي، مرجع سابق ص 70.

² عفيف بهنسي: الفن الإسلامي في بداية تكوينه، ط1، دار الفكر لبنان، 1983، ص 78.

³ ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعرفة، القاهرة، ص 246.

⁴ Gorges Marçais. « L'Art Musulman » Université de France Paris 1962, p45.

3. الأسواق:

وصف الكثير من المؤرخين مدينة القيروان بكثرة أسواقها ونشاط الحركة التجارية بها وإزدهارها، ولكنه لم يصلنا الشيء الكثير عن الحالة المعمارية لهذه الأسواق والراجح أنها كانت على هيئة أسواق المدن الإسلامية الأولى. وقد وصف المقدسي القيروان من الناحية الاقتصادية فذكر: بأنها حسنة الأخبار جيدة اللحوم وفي أسواقها الكثير من الفواكه وكانت أسعار البضائع فيها رخيصة الأثمان¹.

أما ابن حوقل فإنه يذكر أن مدينة القيروان أكثر مدن المغرب تجارة وأموالا وأحسنها أسواقا، ولقد بلغ عشور ما يؤخذ من التجار الداخلين والخارجين منها المال الكثير، والصناعات والتجارات المتنقلة عبر القيروان من الرقيق والأنسجة الحريرية والصوفية كثيرة ومثلها الزئبق والرصاص والخيول والعنبر والفواكه².

وإذا عدنا للمقدسي فإننا نجده يعدد بعض دروب مدينة القيروان، ويظهر أن هذه الدروب قد أخذت أسماء الحرف التي كانت متداولة بها، فيذكر درب الصرافين³ وهو السوق الذي يجتمع فيه الصرافون وكانت هذه السوق مجاورة للمسجد⁴، ثم يذكر باب الصياغين وباب الحواريين وباب سوق الخميس ودرب سوق الأحد⁵.

وكل هذه الأسواق تعود لفترة متأخرة عن بناء المسجد ولا ندر شيئا مما ماكانت عليه السوق في ولاية عقبة بن نافع، ولا شك انها كانت على غاية من البساطة، شأنها شأن أسواق البصرة والكوفة، ولم يحدث التغيير على السوق إلا في فترات لاحقة، كما كان الحال في عهد هشام بن عبد الملك حيث وزع السوق توزيعا مهنيا منتظما فجعل كل سوق خاص بنوع من المهن والبضائع⁶.

¹ المقدسي: مصدر سابق، ص 216.

² ابن حوقل: صورة الأرض، ص 259 260.

³ المقدسي: مصدر سابق، ص 216.

⁴ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق ص 259.

⁵ المقدسي: مصدر سابق ص 216.

⁶ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 259.

4. خطط الأهالي:

ذكرنا سابقا أن عقبة لم يشذ عن القواعد التي اتبعتها مؤسسوا المدن الإسلامية الأولى كالبصرة والكوفة، ولهذا فإننا لا نشك أن يكون هذا الصحابي الجليل قد اتبع نفس المنهج في توزيع خطط الأهالي، وهو توزيع الخطط تبعا للنظام القبلي السائد آنذاك، ويرجح هذا التوجه عدة أمور، من أهمها انتماء الصحابي الجليل إلى نفس الفترة التي أسست فيها المدن السابقة، وإنتمائه إلى نفس الجيل وهو جيل الصحابة، ولهذا نستبعد أن يكون الصحابي قد تبع نهجا مخالفا، خاصة وأنا نلمس إلتزامه بالقواعد التي وضعها الصحابي عمر بن الخطاب. أما الأمر الثاني فإن أغلب جند عقبة كانوا من الجزيرة العربية، وهذا ما يعني إنتماءهم إلى نفس الفصيل الاجتماعي الذي رأيناه عند بناء البصرة والكوفة.

وما يدفعنا إلى هذا القول وهذه الافتراضات المسبقة هونقص المعطيات التاريخية، فأغلب من تطرق إلى ذكر القيروان لم يتعرض إلى ما كانت عليه خطط الناس¹، كما فعلوا عند الحديث عن البصرة والكوفة وبغداد، ومع هذا فإننا نجد بأن اليعقوبي حين تحدث عن القيروان ودروبها ومحلاتها ذكر جملة من الأسماء توحى إلينا بأن خططها قد وزعت توزيعا قريبا، فنذكر درب الربيع ودرب عبد الله ودرب أسلم². وإن كانت روايات المقدسي متأخرة عن الفترة التي بنيت فيها القيروان، غير أن هذا قد يدل على أن هذه الدروب قد حافظت على أسماءها القديمة التي أعطيت لها عند تأسيس المدينة.

ومن الأسماء التي تدل على إتباع "النظام القبلي" في تخطيط المدينة نجد "منازل الفهريين" وهم آل عقبة بن نافع، ونجد أيضا حارة "يحصب" وحارة "بني نافد" و"رحبة الأنصار" و"رحبة القرشين" ومن الدروب نجد درب "المغيرة"³ ومما يؤكد هذا الرأي ما ذكره ابن الأثير، عند حديثه عن تأسيس القيروان فقد ذكر: "... وأمر ببناء المدينة فبنيت وبني المسجد الجامع وبني الناس مساجدهم

¹ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 258.

² اليعقوبي: مصدر سابق، ص 347.

³ إسماعيل العربي: مرجع سابق، ص 239.

ومساكنهم"¹، فذكر أن الناس قد بنوا مساجدهم، وهذا يدل على أنهم بنوا مسجدا في كل خطة كما هو الشأن في أمصار الاسلام.

أما السكك والدروب فهي قليلة مقارنة بالبصرة مثلا، فقد أحصيت فكانت خمسة عشر دربا، ولاندرى ما كانت عليه هذه الدروب، هل هي الشوارع الكبيرة؟ أم هي مجرد أزقة؟ ولا نعرف أيضا ما كانت عليه مقاسات هذه الدروب ومن المؤكد أن هذه الشوارع كانت الشوارع الرئيسية للمدينة، فلا يعقل أن يكون عدد الشوارع المدينة كلها خمسة عشر شارع فقط، ولا شك أيضا أن هذه الشوارع قد تفرعت عنها شوارع أقل عرضا وأقل أهمية، ويمكن أن نحدد قياس هذه الدروب قياسا على ما كانت عليه الدروب والشوارع في البصرة والكوفة، خاصة وأن أغلب رجال عقبة كانوا من الصحابة، فلا شك أنهم إلتزموا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحديد عرض الشوارع فجعلوها خمسة عشر ذراعا على الغالب.

ولم يسكن خطط القيروان إلا العرب وحين اتسعت رقعتها ضمت المدينة مزيجا من السكان عربا وبربرا وفرسا كانوا يمثلون قوة ضاربة في جيوش بني العباس².

¹ ابن الأثير: مصدر سابق، ص 628.

² اليعقوبي: مصدر سابق، ص 347.

ثالثاً: بغداد

روي المقدسي أنّ المنصور العباسي حين أراد بناء مدينة السلام سأل عن الشتاء فيها والصيف والأمطار والهواء، ثم إنه أمر مجموعة من الرجال أن يبيتوا فيها في فصول السنة المختلفة حتى عرفوا أحوالها المناخية¹.

ولم يكن عامل المناخ العامل الوحيد في إختيار موقع مدينة بغداد فهي على مقربة من مجموعة من الأنهار تحصنها تحصينا طبيعيا وتوفر لها المياه للشرب ولحركة السفن، وهي مع هذا ملتقى مجموعة من الطرق التجارية. وروى الطبري أن المنصور قال: "إنما أريد موضعا يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لي، ولا تغلوا عليهم الأسعار ولا تشتد فيه المؤنة، فإن أقيمت في موضع لا يجلب إليه في البر والبحر شيء غلت الأسعار وقلت المادة، وأشدت المؤنة وشق ذلك على الناس"². ومن خلال قول المنصور يمكن تحديد الشروط التي وضعها لبناء مدينته وهي:

- ملاءمة مجموع الناس: والملائمة كلمة عامة فهي تقتضي ملاءمتهم في صحتهم وأرزاقهم، وبناء مساكنهم.

- كونها على ضفاف الأنهار: لتيسير حركة التنقل البحرية للأشخاص والجند والسلع زيادة على كونه يكون عاملا دفاعيا مهما.

- أن تكون على موقع الطرق التجارية: تجلب إليها السلع وتتخذ منها، فتتشط الحركة التجارية، فيعم الرخاء، وترخص الأثمان. وذكر المؤرخون ان المنصور قال: "... تاتيها الميرة في الدجلة والفرات، ومن واسط والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة وما يتصل بذلك، وما يأتي من أذربيجان وأرمينية والشام.. ومصر والمغرب"³

¹ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة إلكترونية، ص 41.

² الطبري: مصدر سابق، ص 233.

³ محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في معرفة الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة تأثير للطباعة ط2، الطبعة الإلكترونية، ص 108، ص الكتاب 110.

ويمكننا في هذا المجال أن نقارن بين ما اشترطه عمر بن الخطاب من شروط لتأسيس مدينتي البصرة والكوفة وما اشترطه المنصور. فقد ذكر المؤرخون أن عمرا قال لعتبة بن غزوان وسعد بن أبي وقاص: "إن العرب لا يلائمها إلا ما لاءم إيلها". ولاشك أن نظرة المنصور، تعتبر نظرة أكثر نضجا من نظرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهي لاشك - نظرة عمر - تتطبق مع ما كانت عليه نظرة العرب قبل الاسلام، فلم يكونوا يفكرون إلا في ايجاد الأماكن التي تصلح أن تكون مراعى لأبلهم، وتعطينا نظرة المنصور فكرة واضحة عن تطور الفكر المعماري الاسلامي، فالمنصور يفكر في بناء مدينة وفق جملة من المعايير السياسية والاقتصادية والعسكرية.. وهذا الأمر الذي نفتقده في مدن الأمصار الأولى كالبصرة والكوفة.

ويؤكد نظرة المنصور الثاقبة، إنه استشار أهل الحكمة وكان ممن استشارهم الفقيه أبوحنيفة النعمان، وقد أشاروا عليه بقولهم: "... وأنت على الصراة تأتيك الميرة في السفن الفراتية والقوافل من مصر والشام"¹.

وشرع المنصور في بناء مدينته في بداية سنة 140هـ/757م، وقيل في سنة 141هـ². وحين قرر المنصور بناء مدينته، كتب إلى أمراء الأقاليم أن يبعثوا له أحسن من عندهم من المهندسين وكل من له دراية بأمر البناء والمساحة والقياس فتجمع له من المهندسين والبنائين من سورية والموصل وغرب ايران والكوفة وواسط البصرة مالم يجتمع لأحد³.

وكانت المدينة المدورة تحفها ثلاثة أسوار، و الأسوار يحيط بها خندق دائري مليء بالماء وبين السور الخارجي والسور الأوسط فصيل (فضاء) عرضه 50م (100ذراع) وهوخال من أي بناء، وعرض السور الأوسط عند الأساس 45م وهويستدق باتجاه الأعلى ليصل في القمة عرضه إلى 12،5م، أما إرتفاع هذا السور فيبلغ حوالي 30م.

¹ المقدسي: مصدر سابق، ص 41.

² ناجي عبد الجبار: مرجع سابق، ص 319.

³ كريز ويل: مرجع سابق، ص 219.

وبين السورين الأعظم والداخلي مجال سكني عرضه 150م ويفصل السور الثالث بين المنطقة السكنية وقصر الخليفة والمسجد الجامع.

كان للمدينة مدخل رئيسي نمر من خلاله عبر دهليز طوله 10م وعرضه 06م أمتار، وقد نصب الخليفة على المدخل برجان للمراقبة يفترض أن عرض كل برج حوالي 20م وارتفاعه 12،5م¹.

وكانت المنطقة السكنية متواجدة بين الجدار الرئيسي ومنطقة القصر المركزية، وقسمت المنطقة السكنية إلى أربعة أرباع الدائرة، أي ما بين 8 و12 منطقة سكنية، وقسمت بواسطة طاقات المقنطرة وهي تمتد من البوابات الرئيسية إلى رحبة القصر².

وتفتح المساكن على سكك لها أبواب من الطرفين، وتفتح أبواب السكك على طريقين دائريين أحدهما داخلي والآخر خارجي وهذه السكك لا تفتح على الرحبة³.

إن أول ما يلاحظه الدارس لمدينة المنصور، والذي يمثل تحولا فكريا معماريا ولبنة جديدة في تطور الفكر المعماري، هو أن هذه المدينة جاءت مخالفة تماما لما كانت عليه المدن الإسلامية الأولى فلقد خضعت هذه المدينة منذ الوهلة الأولى إلى تخطيط محكم، واضح الرؤية والمعالم والهدف، وخلافا للمدن الإسلامية الأولى التي مرت بعده مراحل في نشأتها، راجعة إلى اعتبارات ظهورها كمدن معسكرات ثم إلى مدن إستيطان وإدارة لدعم الفتوحات، ثم إلى مدن مستقرة بتوافر المعايير الحضرية التي أهلتها لتكون مدنا ضخمة⁴. فإننا نجد أن السلطة الحاكمة تدخلت، ولم تترك الأمر للسكانين بينون كيف يشاءون، فالمنصور العباسي لم يتبع النظام الإسلامي المعروف وهو نظام الاقطاعات والخطط التي كانت متروكة تحت حركية ساكنيها.

والأمر الثاني الذي يلاحظ في بغداد، هو انفصال المنصور بسكناه عن سائر العامة، فزيادة على الصور الذي يفصل القصر عن باقي المناطق نجد تلك الرحبة

¹ كريز ويل: مرجع سابق، ص 224، 225.

² نفسه، ص 226.

³ جميل أكبر: مرجع سابق، ص 193.

⁴ عثمان عبد الستار: مرجع سابق، ص 77.

الخالية التي تقع كحاجز فارغ تمنع من وجود المباني ملاصقة لقصر المنصور، وهو الأمر الذي لم نعهده في المدن الإسلامية الأولى، إذ نجد المنازل والخطط ملاصقة لقصر الحاكم، بحيث لا يتميز عنهم في بناء، فالمدينة الإسلامية الأولى ذات طابع اجتماعي، أما مدينة المنصور فإنها ترتبط ارتباطاً كبيراً بشخصية الحاكم، فهو لا يرغب في الاختلاط بالعامّة حتى لا تنتشر أسراره بالإضافة إلى الاعتبار الأمني.

وهذه الرحبة تحيط بالقصر والمسجد، وهذا الابتكار يمثل نقطة تحول في مجال الفكر المعماري، بحيث يتميز الحاكم عن سائر الناس ببناء القصور والأسوار، ويفرد أهل الدولة والعائلة الحاكمة بالسكن إلى جواره دون عامة الناس، وهو لا شك تغيير يمثل تحولاً سياسياً واجتماعياً خطيراً داخل المجتمع الإسلامي الذي يفترض فيه أن أفراده متساوون كأسنان المشط، والظاهر أن المنظومة الفكرية المعمارية في هذه الفترة قد تأثرت باتجاهات فكرية جديدة، يدل على ذلك الملاحظات العديدة التي أبداهها ملك الروم للمنصور حول مدينته.

فقد أشار عليه بضرورة فصل نفسه عن العامة من الشعب، وبضرورة مد المدينة بقنوات الماء، وزراعة أنحاء المدينة بالأشجار¹، ولا شك أن المنصور قد أخذ هذه الإنتقادات بالحسبان.

ومن الأمور التي فارقت فيها بغداد المدن الإسلامية الأولى، هو السوق، ففي المدن الأولى كان السوق ملاصقاً أو مجاوراً للمسجد أمافي بغداد فإنّ السوق وجدت خارج الأسوار².

الأصول المعمارية لمخطط مدينة بغداد:

ذكرنا أن المنظومة المعمارية قد تكون تأثرت باتجاهات جديدة دفعت المنصور إلى اتخاذ الشكل الدائري لمدينته، وسنحاول التعرف على بعض مظاهر التأثير في عمارة هذه المدينة، وإن كان هذا الأمر محل خلاف، فمؤرخوا الإسلام ممن تحدثوا عن

¹ عثمان عبد الستار: مرجع سابق، ص 31.

² نفسه، ص 77.

مدينة بغداد يصرون على أن شكل المدينة الدائري إبتكار لم يعرف من قبل، بينما يرى كريز ويل بأن هذا الأمر إدعاء بعيد عن الصحة.

ويرى كريز ويل أن التخطيط الدائري يكون قد ظهر في الحضارة الأشورية، خاصة في المباني العسكرية، وقد عثر على مخطط بشكل دائري على ظهر لوحة في نينوى تخترقها طرق من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. كما يوجد حوالي إثني عشر مدينة دائرية عرفت قبل الاسلام منها:

1- كيتسيفون التي بناها الفرس وهي ذات شكل بيضوي¹.

2- هرقله وهي تعود للفترة البارثية (فارسية).

3- جور: وبناها أردشير، مؤسس الأسرة الساسانية عام 224 وهي دائرية.

ولقد عرفت المدن المدورة قبل ظهورها في بغداد بعدة قرون في منطقة بين شرق آسيا الصغرى وجنوب غرب إيران.

ويؤكد كريز ويل أن نموذج دارا بجرد الشهير كانت النموذج الذي اختط المنصور مدينته على شاكلته، فهناك تشابه كبير بين أساسات مدينة المنصور وهذه المدينة كما يؤكد الأثري فلا ندن كوست². ويؤكد هذا التأثير التحول الكبير في الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية الذي حدث في الخلافة العباسية، فقد سيطر العنصر الفارسي على الحياة العامة، وانتشرت الكثير من العادات والتقاليد الفارسية في أرض الخلافة، فلا شك أن هذا التأثير قد انتقل إلى مجال العمارة والبناء، خاصة أن خلفاء بني العباس اعتمدوا اعتماداً مطلقاً على العنصر الفارسي في كل المجالات الفكرية.

وسواء علينا أن المنصور إبتكر هذا الطراز من البناء أوأخذه من الحضارة الفارسية، فإنّ مدينة بغداد تعطينا دليلاً واضحاً عن المنحى الذي أخذه الفكر الاسلامي بعد ثلاثة قرن من الزمن، وهذا دليل على المرونة التي يمتاز بها الفكر المعماري الاسلامي، فهو وإن كان يخضع لمبادئ إسلامية إلا أنه يتميز بحركية ومرونة فائقة تمليها في الغالب الظروف الجديدة.

¹ كريز ويل: مرجع سابق، ص 231.

² نفسه، ص 232.

وبلغ قطر مدينة بغداد من باب الفرسان إلى باب الكوفة ألفين ومائتي ذراع (2200 ذراع) أي حوالي 1100م، ومن باب البصرة إلى باب الشام مثله، ووضع البناعون على السور أبراج، سمك كل برج خمسة أذرع (5،2م) وبنيت في أعلى الأبراج شرفات¹. وقد الخطيب البغدادي مساحتها بحوالي 5كلم². واستهوت المدينة المدورة الكثير من الباحثين والأثريين خاصة المستشرقين منهم بسبب شكلها وتخطيطها ومخالفتها لنموذج المدن التي ظهرت في بداية الاسلام، ولعل هذا الأمر هو الذي شغلهم عن سؤال هام:

هل كانت بغداد مدينة بالمعنى التام لمفهوم المدينة؟

إن بغداد ماهي إلا مجمعا حكوميا داخل المدينة، أو قلعة تضم المسجد والقصر ومساكن القواد والمقربين، ويدل على هذا الرأي الكثير من الاعتبارات. فقد كان يقف على أبواب المدينة قائدين من الحرس على ألف فارس فلا يترك أحدا يدخل بغداد إلا مرتجلا باستثناء ابن المنصور المهدي وعمه داود بن علي، فلو كانت بغداد مدينة بالمفهوم العام للمدينة لما منع الركاب من دخولها، فهذا يدل على أن بغداد لم تكن سوى مجرد قلعة كبيرة.

وذكرت الروايات أن قطر بغداد بلغ كيلومترا واحدا وهي مسافة صغيرة نسبيا. ويدل على هذا أيضا إرتفاع أسوارها وكثرة حراسها على البوابات، وتوزع القطائع والأرياض خارج أسوار بغداد، فلقد كانت هذه القطائع والأرياض أكبر مساحة مما كانت عليه مدينة السلام.

ويعتبر تخطيط المدينة تحولا جديدا في الفكر المعماري الاسلامي من عدة جوانب (اقتصادية سياسية اجتماعية...)

أما من الناحية الاقتصادية فإننا نجد أن المنصور قد بالغ في الإسراف في الأنفاق على البناء، وذكر المؤرخون أن بناء القبة الخضراء قد كلفه ثمانية عشر مليون درهما وهو مبلغ يخرج به من حد الاقتصاد إلى الإسراف ويمكننا أن نتصور كم كلفة بناء المسجد والقصر والأسوار... وهوبهذا يخالف قاعدة جوهرية في البناء، وهي

¹ حسن مؤنس: تاريخ الإسلام، ج 2، ص، 302.

² ناجي عبد الجبار: مرجع سابق، ص 321.

الاكتفاء بالقدر أو التوسط وهي المبادئ التي كانت سائدة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. فقد كان منهجه صلى الله عليه وسلم الاقتصاد في البناء، وعدم الإسراف في النفقات يدل على ذلك الكثير من النصوص النبوية، وسيرته صلى الله عليه وسلم وهونفس المنهج الذي صار عليه الخلفاء الراشدون عمر وأبو بكر، فقد ذكر أن عمر أمر أهل البصرة بالاقتصاد والتوسط والابتعاد عن التبذير.. ومع بداية خلافة عثمان فإن نلمس بعض التحول عن هذا المنهج ولكنه تحول لا يخرج عن مبادئ الإسلام، ثم حدث انفراج أكبر في الخلافة الأموية والعباسية.

أما من الناحية الاجتماعية فإننا نجد أن المنصور قد قسم طبقات المجتمع الإسلامي إلى ثلاثة طبقات متباينة.

1- طبقة الخليفة وأسرته: ويسكن الخليفة داخل الأسوار ولكنه يفصل عن بقية السكان عن طريق الرحبة التي تفصل بين القصر وباقي الخطط.

2- ثم تأتي طبقة القواد والحجاب والحاشية.... وهي أيضا تسكن داخل الأسوار وتتميز عن عامة الناس.

3- عامة الناس: وهي تسكن خارج الأسوار.

وهو الأمر الذي لا نجده في مدينة الرسول، إذ لم يتميز رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عامة الناس في ماكل ولا ملابس ولا مسكن وهو بذلك يطبق روح الإسلام، التي تؤكد أن عموم الناس متساوون لا فرق بين حاكم ولا محكوم. وعلى هذا الأمر سار الحكام والولاة في القرون الأولى للإسلام كعتبة بن غزوان وسعد بن أبي وقاص في الكوفة وعمر بن العاص في الفسطاط وعقبة بن نافع في القيروان.

ولعل هذا الاختلاف في المنهج هو الذي حكم على مدينة بغداد بالخراب، ففي سنة 156 هجرية بني المنصور قصر الخلد خارج المدينة وأخرج الأسواق إلى جهة الكرخ خارج الأسوار. وفي سنة 329 هجرية سقطت القبة الخضراء، وفي حوالي سنة 330 هجرية دخل الماء إلى شوارع المدينة فهدمت بعض المنازل¹.

¹ جميل أكبر: مرجع سابق، ص 195.

فقد كانت بغداد مثل الجسم الغريب داخل المجتمع الإسلامي، المتشبع بالثقافة الإسلامية، وسرعان ما لفظ هذا المجتمع هذا الجسم الغريب الذي يخالفه في عاداته وتقاليد الدينية والاجتماعية والثقافية.

الخصائص المعمارية لمدينة بغداد

1. مسجد بغداد

اختط المنصور مسجده في قلب المدينة المدورة بقرب القصر ولم يجعل بقربها أي بناء باستثناء الدار التي بناها للحرس من ناحية باب الشام وسقيفة كبيرة قائمة على أعمدة مبنية بالأجر والجص مخصصة لصاحب الشرطة وصاحب الحرس¹.

وجعل المنصور مسجده ملاصقا للقصر وبناه باللبن والطين وجعل مساحته (200م x 200م) وجعل أساطينه من الخشب، وتتكون كل أسطوانة من قطعتين، وبقي المسجد على هذه المقاييس حتى تولى الخلافة هارون الرشيد، فنقضه ثم أعاد بناءه بالأجر والجص وكان ذلك سنة 192هـ، وحين أتم بناءه أمر بكتابة اسمه وسنة البناء واسم البناء والنجار ثم جدد بعد ذلك المعتضد بالله وزاد فيه القصر².

ويفترض كريز ويل أن القصر كان في الجهة الشمالية الشرقية بحيث يكون جدار القبلة ملاصقا للقصر كي يتمكن الخليفة من الدخول إلى المسجد من خلال المقصورة عبر باب في جدار القبلة وهو الأمر الذي كانت عليه المساجد في القرون الخمسة الأولى³.

وبلغت مساحة المسجد أربعون ألف ذراعا مربعا (20000م²)، وكانت أبواب منازل القادة تشرف على رحبة المسجد، فأشكى الناس ذلك إلى المنصور فأمرهم بتحويل أبوابهم⁴.

¹ حسن مؤنس: مرجع سابق، ص 301.

² كريز ويل: مرجع سابق، ص 242.

³ نفسه، ص 243.

⁴ حسن مؤنس: مرجع سابق، ص 303.

وبقي المسجد إلى فترة متأخرة، وبدأ يفقد بريقه وشهرته مع دخول سنة 653هـ/1255م فوقعت القبة الخضراء¹، التي كانت تابعة للقصر وزادها المعتضد في المسجد. فحين زار الرحالة ابن بطوطة مدينة بغداد لم يذكر الشيء الكثير عن المسجد ولا عن المدينة وهذا يدل على فقدان المسجد الكثير من شهرته.

قصر المنصور: (أنظر الشكل الثالث)

بنى المنصور قصره المعروف باسم "قصر الذهب" وبلغت مساحة القصر مائة وستون ألف ذراع مربعا (80000م²)².

أما مخطط القصر فكان عبارة عن مخطط مربع طول ضلعه 400 ذراعا (200م)، وبداخله إيوان، وهو عبارة عن قاعة مقنطرة مفتوحة من أحد الجوانب يبلغ عمقها 30 ذراعا (15م) وعرضها 20 ذراعا (10م)، أما غرفة الخليفة فتبلغ مساحتها 20 ذراعا مربعا (10م²)، وارتفاعها 10 امتار متوجة بقبة، وتعلوها غرفة لها نفس المقاسات ونفس الارتفاع³.

وكان القصر في وسط المدينة يراه الداخل من كل أبواب المدينة وظل القصر على حالته الأولى، ولما ضاق المسجد على الناس أدخلت أجزاء من القصر في المسجد، فضم المعتضد بالله القصر إلى المسجد، ووضع سبعة عشر طاقا بين القصر والجامع⁴.

3. القطائع والأرباض:

وحين أتم المنصور بناء بغداد، أقطع رجال دولته والمقربين منه قطائع من الأرض رغبة منه في تخفيف الضغط على المدينة ورغبة منه في التوسع العمراني خارج الأسوار. ثم إن هذه القطائع اتسعت وازدحمت بالسكان وكانت هذه القطائع تعرف باسم من أقطعت لهم، فنجد قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس

¹ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 326.

² حسن مؤنس: مرجع سابق، ص 303.

³ كريس ويل: مرجع سابق، ص 241.

⁴ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 325.

وقطیعة الصحابة وهم من قبائل قریش والأنصار وقطیعة الربیع بن یونس بن موسی المنصور¹.

وكانت هذه القطائع كبيرة جدا لدرجة أن كل واحدة منها اشتملت على سكك وطرق غير نافذة، وقسمت القطائع والأرباض إلى أربع مجموعات، وكلف المهندسون بالبناء في الأرباض وأعطوا المال من أجل ذلك، والملاحظ أن هذه القطائع والأرباض لم تخضع لتخطيط السلطة كما هو الشأن داخل الأسوار، فترك الأمر لأصحابها لعمارتها، ولم تتدخل السلطة إلا في تحديد عرض الشوارع وضرورة اشتمال كل ربض على المرافق الضرورية.

وذكر أن السكك والطرق قد بلغت حوالي 6000² (ستة آلاف) وهذا العدد يعطينا فكرة عن المساحة التي كانت عليها هذه القطائع والأرباض.

وأسهب اليعقوبي في ذكر هذه السكك والطرق والدروب، فذكر سكة الشرفة وسكة المطبق، وسكة الربيع وسكة المؤذنين... وبلغ عدد الحمامات 10 آلاف حمام³. وبالغ اليعقوبي فذكر أن عدد مساجدها قد بلغ 30 ألف³، وهولاشك مثل عدد الحمامات عدد مبالغ فيه، فهي أرقام لا تكاد نعثر عليها حتى في أكبر المدن الحالية، واشتملت الأرباض إضافة إلى السكك والحمامات على السوق والمسجد للصلاة.

4. أسواق المدينة:

كانت الأسواق في المدن الإسلامية الأولى كالبصرة والكوفة تتواجد قرب المسجد الجامع. ولما كان قصر المنصور ومسجده منفصلين عن المحلات السكنية برحبة واسعة، فإن الأسواق قد ابتعدت كثيرا عن هذا المجمع السكني (القصر + المسجد) وتوزعت المحلات التجارية على حافات الشوارع الكبيرة للمدينة ووضعت في

¹ حسن مؤنس: مرجع سابق، ص 306.

² جميل أكبر: مرجع سابق، ص 192.

³ اليعقوبي: مصدر سابق، ص 242.

طاقات خاصة وسرعان ما اكتظت بغداد بأهل الحرف والصناعات فأمر المنصور بإخراج الأسواق إلى الكرخ سنة 157هـ / 773م¹.

وكانت هذه الأسواق موزعة بالنظر إلى اختلاف الحرف والصناعات، فذكر أن ريبض وضاح كان فيه سوق أغلب أصحابه الوارقين وبلغ عددهم أكثر من مائة حانوت. فكانت كل سوق وتجارة لها شوارع معلومة، في تلك الشوارع حوانيت ولا يختلط أصحاب الحرف بعضهم ببعض ولا تجاور تجارة تجارة أخرى تخالفها².

ويظهر من هذا العمل أن المنصور أراد أن يعزل نفسه كلية عن العامة، فلا يختلط بهم ولا يقترب منهم فيطلعون على أسرارهم، فتفشوا بين الناس ولعله أيضا أراد أن يبتعد عن الضوضاء التي تحدثها العامة داخل الشوارع والأسواق.

¹ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 328.

² محمد بن عبد المنعم الحميري: مصدر سابق، ص 109.

الفصل الأول المصادر الخارجية

أولاً: العمارة البيزنطية
ثانياً: العمارة الفارسية

أولاً: العمارة البيزنطية

1. نشأة الدولة البيزنطية

يبدأ تاريخ الدولة البيزنطية منذ تاريخ الذي قرّر فيه الإمبراطور الروماني "ديقلتيانوس" * (282م-301م) تغيير نظام الحكم، فقام بتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين، قسم شرقي وقسم غربي، وقد أعلن هذا التقسيم سنة 286م، وحكم القسم الشرقي وكانت عاصمته «بيوكوميدية» وحكم "مكسميانوس" * الإمبراطورية الغربية وعاصمتها ميلانو.¹

وعندما انتقل الحكم إلى الإمبراطور قسطنطين بني عاصمة جديدة لحكمه، وأنشأ المدينة الجديدة على أنقاض مدينة قديمة تدعى: Byzas ثم عرفت المدينة باسمه،² وبينما كان نجم روما يؤول إلى الأفول، كانت المدينة الجديدة تعرف أسباب التطور والرقى، حتى صارت بيزنطة عاصمة الإمبراطورية الإدارية.³

والحقيقة أن بيزنطة في القرون الأولى لم تكن إلا استمراراً لروما في كل المجالات، ولكنها سرعان ما بدأت مرحلة انتقالية انفصلت فيها شيئاً فشيئاً عن الحضارة الرومانية، فتسرّبت إليها خصائص الحضارة الهيلينية، وجعلت من اليونانية اللغة الرسمية ابتداء من القرن 7م، في حين استعملت في القرون الأولى اللغة اللاتينية،⁴ غير أن الشيء المهم في تاريخ بيزنطة هو اعتناقها للمسيحية التي كان لها الأثر العظيم على الحياة البيزنطية في كل جوانبها.

. عاش بين 245 و313م. حكم بين 248 و305م. Diocletien * s. caus Aurelius Valerus Diocletianu
حكم حوالي 308 و313م. Caius valirius maximus * : maximin *

¹ - نعيم فرح: تاريخ بيزنطة، مطبعة طربين، ج1، 1977، ص 08

² - محمود سعيد عمران: الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، ص 24

³ - فاطمة قدورة السامي: الحضارة البيزنطية، دار النهضة العربية، بروت، لبنان، 2002، ص 11

⁴ - نعيم فرح: المرجع السابق، ص 5.

ويظهر أنّ الإمبراطورية البيزنطية تسمية مستحدثة فهي عند العرب دولة الروم، وقد وردّ هذا الاسم في القرآن الكريم،* إشارة إلى الحروب التي كانت دائرة بينها وبين الفرس، وغلب استعمال هذا الاسم في المصادر التاريخية العربية.

الاعتراف بالمسيحية:

نتحدث عند هذا العنصر لما له من أهمية في تغيير ملامح الفن البيزنطي، خاصة في الجانب المعماري، فقد عدل البيزنطيون عن إنشاء المعابد الوثنية وبنوا بدلها الكنائس.

في حوالي سنة 811م أصدر الإمبراطور "غاليريوس" مرسوماً ينصّ على الاعتراف بالديانة المسيحية، و عندما آل الأمر إلى الإمبراطور قسطنطين، يقال إنه رأى قبل إحدى معاركه، فوق قرص الشمس صليبا من نور كتب عليه « بهذا تغلب » كما ظهر له المسيح، فأمر باتخاذ الصليب راية لجيشه.¹

وذكر ابن الأثير رواية أقرب إلى هاته الرواية، وفحواها أن أحد وزرائه ممن كان يكتنم مسيحيته أشار إليه بإحداث دين يقاتل عليه، ثم حسن له النصرانية، ففعل ذلك، فتبعه النصارى من الروم، وتبعه أصحابه وخاصته، فقوي وقهر من خالفه.²

وبعد المرسوم الأول سنة (311م) أصدر قسطنطين وليكلنيوس (ليكلينيوس) مرسوماً جديداً يعرف بمرسوم ميلان، ولكن ليكلنيوس لم يحترم هذا الإعلان، وعاد إلى مضايقة المسيحيين واضطهادهم ومصادرة ممتلكاتهم، فأعلن قسطنطين نفسه راعياً للمسيحية، وقضى على حليفه القديم وصار إمبراطوراً لروما دون منازع.³

* الم (1) غلبت الروم (2) في أنتى الأرض وهم من بعد عليهم سيّطون (3)

* Galerius Valerius Maximinus :. Dictionnaire de la langue, impremie en Italie, 98, p1400.

1- فاطمة قنور سامي: مرجع سابق، ص 9.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، المجلد 1، ص 230.

3- نعيم فرح: المرجع السابق، ص 15.

وأصدر الإمبراطور الجديد مرسوما يأمر بالتسامح الديني، فصارت المسيحية بموجبه مساوية للوثنية واليهودية، وأصبح لكل فرد روماني الحق في اختيار الدين الذي يرتضيه لنفسه، وأمر الإمبراطور بردّ الأموال والكنائس المصادرة للمسيحيين.

وبعد مرسوم ميلان بدأ انتشار الكنائس في كل مكان، فلم تخلوقرية أو مدينة من كنيسة، بل إن بعض المدن اشتملت على عشرات الكنائس، وسرعان ما صارت المسيحية الدين الرسمي للدولة، وبدأ الإمبراطور يحضر الاجتماعات واللقاءات الدينية، وأمر قسطنطين بإرجاع الممتلكات للكنيسة، وأذن للمسيحيين ببناء الكنائس، وفي الغالب كانت تبني بأموال الدولة، فبنيت كنائس القسطنطينية وأنطاكية والقدس وبيت لحم، وبنيت أمه (هيلانة) كنيسة القيامة.¹

لهذا يعتبر الإمبراطور قسطنطين ووالدته الإمبراطورة هيلانة (hélène) في بعض الكنائس بمثابة القديسين، ويمكن الإجمال بأن قسطنطين قام بعملين مؤثرين جداً من الناحية الدينية والسياسية والاجتماعية والمعمارية وهما:

1/ نقله للعاصمة من روما إلى القسطنطينية.

2/ الإعراف الرسمي بالديانة المسيحية.

3. الفن البيزنطي:

الفن البيزنطي عبارة عن خليط لجملة من الفنون، فقد تأثر بالفن الإغريقي الروماني، باعتبار بيزنطة هي استمرار الإمبراطورية الرومانية، فلا شك أنها تأثرت بالنماذج الفنية الرومانية وخاصة في القرون الأولى من نشأتها، كما تأثر الفن البيزنطي بالحضارة الهلينية وأوضاع الشرق التي سيطرت عليها بيزنطة أمدا بعيدا، ويضاف إلى هذه العوامل، عامل مهم جداً، وهو اعتناق البيزنطيين للمسيحية التي أعطت للفن البيزنطي بعدا جديدا مخالفا لما كان عليه الفن البيزنطي الوثني، ويمكننا تقسيم فترات الفن البيزنطي إلى ثلاث فترات هامة.

¹ - ابن الأثير: المصدر السابق، ص 330.

Helène* (328 و 255). Dictionnaire, op-cit, p1283. أم قسطنطين، عاشت بين 255 و 328).

* Constantin, Vlavius valerius constantinus : 337 و 306. حكم بين 306 و 337. Dictionnaire, op-cit, ولد حوالي 270 و 288 نيكوميديا، حكم بين 306 و 337. (p288).

أ.الفترة الأولى:

وتبدأ ابتداء من سنة528م، وبلغت الحركة الفنية أوجها وعرفت بناء آياصوفيا وهي المثال الذي تأثرت به الكثير من المنشآت الإسلامية، وألهمت المعماريين الأتراك في إبداع المساجد ذات القباب العظيمة، وفي هذه الفترة ظهرت قضية (الأيقونات) وانقسم الناس إلى قسمين، فأصدر الإمبراطور أمرا يمنع عبادة الأيقونات فنتج عن ذلك طمس كثير من التحف الفنية.

ب.الفترة الثانية:

وتبدأ من تاريخ 867م-1059م تحت حكم مكيدونيا،¹وتعرف الفترة بعصر النهضة الفنية وظهرت هذه النهضة في البندقية، وأغلب كنائس القسطنطينية وأرمينيا شيدت في نهاية الفترة الثانية، ثم سرعان ما دخلت الإمبراطورية في صراعات مختلفة في الداخل والخارج، وفي سنة 1204م سقطت القسطنطينية في يد الصليبيين مما أدى إلى زوال النهضة في الشرق.

أهم مباني هذه الفترة:

- كنيسة القديسة صوفيا، سالونيك.
- كنيسة القديسة إيرين القسطنطينية.
- كنيسة القديسة تيودورا القسطنطينية.

ج.الفترة الثالثة:

تبدأ هذه الفترة مع بداية سنة 1216 و تمتد إلى سنة1453م، وتمثل آخر ازدهار للحضارة البيزنطية، قبل أن تتعرض الإمبراطورية لغزو الأتراك، لتسقط عام 1453م على يدي محمد الفاتح.²

¹ - نزيه كواكبي: تاريخ العمارة، فجر المسيحية البيزنطية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 19 ص 119.

² - نفسه، ص 116.

4. العمارة البيزنطية:

خلفت الحضارة البيزنطية على مر العصور شواهد معمارية رائعة، تمثلت على وجه الخصوص في بناء الكنائس الفخمة. والعمارة البيزنطية وإن كانت في بدايتها رومانية إغريقية، فسرعان ما اكتسبت شخصية خاصة بها، وهوفن القسطنطينية، وهونوطابع ديني يمثل انتصار المسيحية على الوثنية، فسُخر الفن المعماري لخدمة الدين الجديد وتميّزت مباني العهد الجديد بالعظمة والأبهة ويظهر هذا في عمارة آياصوفيا.¹

اعتمد المعماري البيزنطي على استخدام الفسيفساء ذات الألوان المختلفة، فزين جدران الكنائس بالفسيفساء المستوحى من الكتاب المقدس، وابتكر لنفسه حيلة معمارية جديدة لم تكن معروفة من قبل، فقاوم ضغط القباب بحملها على أقبية سريرية، كما قام بتعلية القبوات في البلاطة الوسطى واستخدام القباب المحمولة على المثلاث الكروية.² واهتم المعماري البيزنطي بداخل البناء على حساب الخارج، والعمارة البيزنطية على العموم تتسجم مع تعاليم المسيحية.

فالمهم في الدين المسيحي هو داخل الإنسان، وليس مظهره الخارجي.³

1. نماذج العمارة البيزنطية:

نحاول التعرف على بعض المباني التي شيدت في الفترة البيزنطية وسنكتفي بنموذج واحد وهو الكنيسة البيزنطية، وذلك لأنّ مجال البحث لا يتسع للخوض في كل النماذج التي ظهرت في العمارة البيزنطية مثل القصور، والفوروم* والمسرح والحمامات والقلاع، والسبب الثاني أن الكثير ممن درس العمارة الإسلامية وخاصة المستشرقين قد أكدوا أنّ تخطيط المسجد مستوحى من عمارة البازليكا البيزنطية، لهذا

¹ - فاطمة قدورة السامي: مرجع سابق، ص 104.

² - محمد بن سنوسي: الأصول العميقة لمعايير التناسق العمارة الدينية الإسلامية بالمغرب العربي، رسالة دكتوراه دولة، قسم الثقافة الشعبية، كلية الآداب، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان 2000، ص 572.

³ - عائشة سليمان عارف: مدارس الفن القديم، دار صادر، بيروت، 1972، ص 384.
* الفوروم:

سنحاول فيما بعد أن نقارن بين مخطط الكنيسة ومخطط المساجد، ونتعرف على أوجه الاتفاق والاختلاف.

أ. عمارة الكنيسة: (أنظر الشكل السابع والتاسع)

بدأت عمارة الكنائس مع إعلان قسطنطين، إعلان ميلان واعترافه بالمسيحية واعتناقه لها فيما بعد وتشجيعه بناء الكنائس.

وكانت الكنائس الأولى صغيرة البناء وغير ممدودة الأجزاء، فكانت دور العبادة المسيحية عبارة عن بيوت خاصة وأحيانا بعض المعابد اليهودية، لهذا تأثر بناء الكنيسة ببناء المعابد اليهودية والتي كانت أصلا متأثرا بنظام البازليكا الرومانية.

كما تأثرت الكنائس بالعمارة الرومانية كالمعابد الوثنية والأماكن العامة والحكومية، ونظام الأعمدة والأروقة الذي يعرف بالبازليكا (أنظر الشكل لتاسع) وروعي في تصميم الكنيسة البيزنطية نموذجين:

الأول: موروث في شكله عن المعابد الإغريقية، فهو ذو شكل مستطيل ينتهي بمدرج ينتهي بمذبح* رئيسي يحيط به مذبحان رئيسيين أو أكثر. الثاني: وهو شبه مستدير تتوسط سقفة قبة رئيسية تحيط بها قباب جانبية، بحيث تتوزع الأحجام على هيئة صليب بيزنطي.

وأفضل مثال هو كنيسة القديس في رافين ravenne، أما آيا صوفيا فتمثل انصهار الشكلين، المستدير والمستطيل.¹

ب. مكونات الكنيسة البيزنطية:

اعتمد المعماري البيزنطي في بناء الكنيسة على مخطط البازليكا، وتنقسم الكنيسة إلى قسمين:

1- قاعة عامة كبيرة هي البازليكا وهي مستطيلة الشكل يحفها من الجانبين خطين من الأعمدة، فتكون بذلك ثلاثة أروقة الرواق الأوسط منها هو ما يعرف باسم صحن الكنيسة، ونصل إليه عن طريق الباب الرئيسي.

* المذبح: صدر الكنيسة

¹ - إبراهيم خليل، مرجع سابق، ص 14.

2- القاعة الثانية: وهي القسم الذي يقع شرق الكنيسة ويسمى الهيكل،
ويمنع الناس من الدخول إليه، وهونوشكل مستطيل تتوسطه قبة مزينة بالصور
وتماثيل القديسين.¹

ج. القبة البيزنطية:

القبة من أهم العناصر المعمارية في العمارة البيزنطية، وهذا العنصر المعماري
لم يبتكره البيزنطيون بل ورثوه على حضارات سابقة، ولكنهم أدخلوا عليه الكثير من
التعديلات، حتى صارت تعرف بها العمارة البيزنطية.

وأخذ المعماري البيزنطي عنصر القبة عن المعماري المصري،² كما استعملها
اليونان في البازليكا³ واستخدمها بعدهم الرومان في معبد البانثيون، حيث غطى المعبد
بقبة ذهبية.

والقبة قبل المعماري البيزنطي كانت تستند على دعائم ضخمة متصلة عن
طريق عقود محمولة فوق هذه الدعائم، لهذا نجد القباب في الكنائس الأولى مجرد
تقليد للعمارة الرومانية، وأحسن الأمثلة لهذا النوع من القباب هي قبة معبد البانثيون في
روما، فنجد أن القبة شيدت على قاعدة واسعة استندت على عقود ومشكوات ذات شكل
مستدير أونصف مربع وبلغ قطر هذه القبة 43 متراً.⁴ أما في العمارة البيزنطية فقد
صارت القبة أكثر أهمية، بحيث صارت تتحكم في الشكل العام للمبنى، كما تحكمت في
نوع دعائم الجدران.

ومن أجل الحفاظ على البناء من السقوط بسبب ثقل القبة فإن المعماري
البيزنطي عمد إلى طريقة فنية تجعل القبة أكثر خفة بحيث لا يقع ثقل وزنها على
الجدران والدعائم الحاملة للقبة وبالتالي لا يضطر إلى الزيادة في سمك هذه الدعائم

¹ - إبراهيم خليل، مرجع سابق، ص 15.

• البازليكا: مشتقة من Stoabasileius ومعناها الرواق الكلي. وكان غرضها الأول هو اقتبسها اليونان عن

الحضارة الهلنستينية، مدارس الفن القديم، مرجع سابق، ص 331.

² - ثروث عكاشة : مرجع سابق، ص 24، 25.

³ - عائدة سليمان: مرجع سابق، ص 376.

⁴ - عزت حامد قادوس: مرجع سابق، ص 451.

فاستخدم في بناءها قطع حجرية صغيرة مترابطة بواسطة المونة، مدعمة فيما بينها بصفوف من الطوب، من أجل تماسكها.

وأحيانا أخرى استخدم عناصر فخارية متداخلة على شكل حلقة متماسكة عن طريق المونة وبهذا تكون أقل خفة وأكثر انسيابا ولا تحتاج إلى دعائم سميكة.¹ وكانت قاعدة القبة البيزنطية تركز على أربع نقاط بحيث تظل بقية قاعدتها معلقة في الفراغ، تاركة بذلك في غطاء القبة أربع فجوات، مما يحدث نفورا لدى المشاهد، فابتكر الفنان البيزنطي ماسوف يعرف فيما بعد بالعناصر المتدلّية أو المثلاث الكروية، فاستخدموا لوحة حجرية على هيئة مثلث في زوايا فجوات القبة، يبدأ من مستوى قاعدة القبة نحو الأسفل، وقاعدة المثلث تكون إلى قاعدة القبة ورأسه إلى الأسفل، فهذه التقنية بيزنطية محضة فحيثما استعملت المثلاث الكروية فإنها من صنع بيزنطي²، وعلى العموم فإن القبة المركزية أخذت ثلاثة أبعاد :

أ- القبة البسيطة.

ب- القبة المركبة.

ت- القبة المحززة الشكل.³

كما استخدم المعماري البيزنطي الأسلوب الفارسي لفصل المربع إلى شكل دائري فوضعوا عقودا عند الزوايا، مثل ما هو الآن في ضريح دكليسيا نوس وفي القصور الفارسية وكنائس سوريا ومصر.

أما أفضل طريقة ابتكرها المعماري البيزنطي فهي تحويل المربع إلى شكل دائري عن طريق استخدام المثلاث الكروية.⁴

¹ - عزت حامد قانوس: مرجع سابق، ص 452.

² - ثروت عكاشة: مرجع سابق، ص 25.

³ - نزيه كواكبي: مرجع سابق، ص 202.

⁴ - عزت حامد قانوس: مرجع سابق، ص 453.

د. الفسيفساء البيزنطي:

يرجع استخدام تقنية الفسيفساء إلى الحضارة الهلنستية والأمثلة الأولى للفسيفساء قد وجدت في صقيلية وترجع للقرن 3 ق.م، ووجدت نماذج أخرى في الإسكندرية، وهذا ما يوحي بأن تقنية استخدام الفسيفساء قد جاءت من صقيلية ثم انتقلت إلى الحضارة الهلنستية¹ ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحضارة اليونانية ثم الرومانية، ثم أخذ الفنان البيزنطي هذه التقنية، وقام بتطويرها، فصنع الفسيفساء من الزجاج، بدل الحجر الملون أو الحصى أو الصدف الذي كان مشتهرا في الحضارة الرومانية. وكان الفسيفساء في البداية يوضع على الأرضيات، ثم انتقل استخدامه إلى تغطية الجدران والأسقف، وسخر الفنان البيزنطي الفسيفساء في الموضوعات الدينية، القصد منها مخالفة ما كانت عليه المعابد الرومانية، وتعميق تعاليم المسيحية في نفوس الأتباع، ولهذا فإن أغلب المواضيع كانت مقتبسة من التوراة والإنجيل، وأقدم مثال بين أيدينا لهذا النوع من الفسيفساء موجود في كنيسة الرسل بالقسطنطينية والتي يرجع تاريخ إنشائها إلى ما بين سنة 536-546م، حيث قام الفنان البيزنطي برسم صورتين للمسيح عليه السلام.²

و زخرف واجهة الكنائس بالرسوم الفسيفسائية المختلفة للمسيح عليه السلام، وأمه مريم العذراء وشخصيات القديسين، مما يترك انطباعا حسنا في نفس المشاهد، وزينت قباب الكنائس أيضا بصور عيسى وأمه مريم العذراء والقديسين والباباوات والشعارات الرمزية في الدين المسيحي، و زخرفت المساحات بين النوافذ بفسيفساء تصور تاريخ العقيدة المسيحية.³

5. تأثير الفن الإسلامي بالفن البيزنطي:

كان الفن السوري جزء لا يتجزأ من الفن البيزنطي، باعتبار أن بلاد الشام ظلت خاضعة لفترة طويلة للسيطرة البيزنطية. وحين فتح المسلمون سوريا سنة 52هـ

¹ - محمود عبد العزيز مرزوق: الفنون الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، ص 72.

² - عائدة سليمان: مرجع سابق، ص 317.

³ - نزيه كواكبي: مرجع سابق، ص 107.

وجدوا فنا معماريا قائما بذاته، هو عبارة عن مزيج سوري بيزنطي، فلما شرع المسلمون في عمارة المدينة وبناء دور العبادة والقصور والمرافق العامة، اضطروا للاعتماد على اليد العاملة المحلية لخبرتها بفنون البناء، ولافتقار العرب الفاتحين لمثل هذه المهارات.

ومن هنا لعب السكان الأصليين دورا هاما في تكوين الفن الإسلامي، ويكمن هذا الدور في أنهم كانوا حلقة وصل بين الفن الإسلامي والفن البيزنطي، وأسهم هؤلاء الحرفيين في تطوير الفن البيزنطي، ثم قاموا بنفس الدور مع الفن الإسلامي.

وهنا يظهر البعد الإنساني للحضارة الإسلامية، خاصة في الجانب المعماري، فهي حضارة أسهمت فيها جميع الشعوب والثقافات، والإسلام عند احتكاكه بهذه العناصر لم يقم بقمعها بل استفاد منها وجعلها جزء لا يتجزأ من بنيته وهذا لا يعني أبدا أن الحضارة الإسلامية هي مجرد خليط لحضارات مختلفة، وخلوة من الأصالة والتجديد، ذلك أن في هذه الحضارات الكثير من العناصر (الإيقونات مثلا) التي لا تتماشى مع دينه وثقافته، لهذا نجد فناني المسلمين حين استعانوا بالتراث القديم أضفوا عليه صبغة جديدة مما يتماشى مع روح الدين الإسلامي.

وعلى أرض سوريا تالقت الثقافة الإسلامية الأموية مع ثقافات مختلفة مترجمة، امتزجت فيما بينها على مر العصور بالحضارات السامية، والكنعانية، والفنيقية والحضارة الهلنستينية ثم الحضارة الرومانية ثم البيزنطية... فقامت الحضارة الإسلامية باقتباس الكثير من الأفكار والنظريات في ميادين مختلفة، فنتج عن هذا الامتزاج تأثيرا واضحا على العمارة الأموية وعلى الطرز الفنية المعمارية التي اعتمدها الأمويون.¹

فنتج عن هذا التأثير روائع معمارية منقطة النظر، ولعل أهمها مسجد قبة الصخرة والمسجد الأموي وجامع حلب وبعض القصور الأموية.

ومظاهر تأثر الفن الإسلامي بالفن البيزنطي كثيرة، نكتفي في هذا المجال على

مثالين هامين، وهذا على سبيل المثال لا الحصر، وهذين المثالين هما:

أ- المسجد الأموي (706م-715م).

ب- مسجد قبة الصخرة (683م-703م).

¹- ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 91.

أ.قبة الصخرة:

ذكر اليعقوبي أن الخليفة الأموي عبد الملك (683هـ-703م) أمر ببناء مسجد قبة الصخرة، في محاولة منه توجيه أنظار الحجاج عن التوجه لمكة وأداء مناسك الحج وبالتالي منعهم من الاتصال بأهل الحجاز من المناوئين لعبد الملك، وليحج الناس لبيت المقدس.¹ ونحن لا نميل إلى هذا الرأي، فلا يجهل مسلم أن الحج لا يكون إلا لبيت الله الحرام، وإن كانت الزيارة للقدس مشروعة، فهي مثل ذلك بالنسبة للمسجد النبوي ولا يزعم مسلم أن زيارة المدينة النبوية وهي أعظم حرمة من بيت المقدس يسمى حجا، ولا نعتقد أن خليفة مثل عبد الملك يفوته هذا الأمر وربما أدى إلى بغض الرعية له، وهولن يمنعهم من زيارة مكة ويبقيهم في الشام ليبغضونه، وأيا كان الدافع لبناء هذا المسجد فإنه يمثل آية في الفن الإسلامي في التناسق والانسجام في الشكل والزخرفة، وقبة هذا المسجد أول عمل إبداعى في الحضارة الإسلامية في بناء القباب بعد قبة النسر وإن كانت هذه الأخيرة لا ترقى إلا قبة الصخرة من حيث الضخامة والتزيين.

ولهذا فإننا نميل إلى الرواية التي رواها المقدسي حيث يذكر: "أن عبد الملك رأى الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعا حسنة قد افتنن الناس بزخارفها وانتشر ذكرها كالقيامة وبيت لحم، فاتخذ للمسلمين مسجدا أشغلهم به عنها، وجعله أحد عجائب الدنيا، ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظمة قبة القيامة وهيئتها، خشي أن تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى".² وتقع القبة على الصخرة المقدسة، التي يقال إن رسول الله ﷺ أعرج به منها، وهي كتلة غير منتظمة من الصخر الطبيعي، ويبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب 17م و70سم وعرضها من الرق إلى الغرب 13،50م، أما ارتفاعها عن الأرض 150م.³

¹ - عفيف بهنسي: مرجع سابق، ص 56.

² - المقدسي: مرجع سابق، ص 159،

³ - ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 99.

والقبة تقوم على أربع دعائم كبيرة، ملبسة بالرخام الأبيض وهذه الأعمدة والدعائم مرتبة في تكوين دائري كاف للإحاطة بالصخرة، ويقع بين كل دعامة وأخرى ثلاثة أعمدة. والأعمدة والدعامات جملت بـ 16 عقدا مبينا¹.

ويعلو القبة رقية أسطوانية، تحتوي هذه القبة على 16 نافذة تسمح بدخول النور داخل القبة، وتركز القبة على هذه الرقبة، ويبلغ ارتفاعها عن الأرض 35,5م. أما ارتفاع القبة نفسها فيبلغ 15م²، وارتفاعها بقبتها وقاعدتها يبلغ 20,5م، وقطر القبة فهو 20,4م.

مخطط قبة الصخرة، عبارة عن مثنى وهو مخطط من أصل روماني ونعثر عليه في ضريح الشهيد "Martgrium"، وهو مخطط مركزي يلتف حول نواة مهمة كضريح عظيم أوتمثال إله بحيث يستطيع الأتباع الطواف حوله، لهذا نعثر على هذا النوع من الأبنية في الشام وخاصة في الكنائس، ككنيسة بصري في حوران وكنيسة القيامة في القدس، ولكن قبة الصخرة الأموية أكثر هذه القباب توازنا³ وتتفوق على القبة البيزنطية، ومن هنا ندرك الهدف الذي بنيت من أجله هذه القبة وهو منافسة ما كانت عليه العمائر البيزنطية لذلك الوقت، فلقد سعى الخلفاء الأمويين إلى صرف أنظار رعاياهم عن الكنائس وجمالها، خاصة أنهم قريبي عهد بالمسيحية، وبالدولة البيزنطية كما حاولوا الدعاية لدين الإسلام، ونشره بين العرب المقيمين في القدس أو القادمين إليها للحج، وإظهار الدولة في مظهر القوة والعظمة، وهو مما يبعث الرغبة والرغبة في آن واحد في نفوس الرعايا.

وللقبة أربعة أبواب في جهاتها الأربعة تسمح بالدخول إلى داخل المسجد، ويتم إنارة الداخل عن طريق ستة عشر نافذة موزعة على محيط عنق القبة (Tambour)، كما نجد في الجدران الخارجي للبنية أربعين نافذة بعدد خمسة نوافذ في الواجهات الثمانية، زخرفة القبة من الداخل بقيت على هيئتها الأولى، والأجزاء السفلية مغطاة بحجارة تكسيه مزخرفة بأشكال متنوعة وهي تشبه تلك التي في آياصوفيا، والأجزاء العلوية

¹ - عبد الله كامل موسى: مرجع سابق، ص 55.

² - عفيف بهنسي: مرجع سابق، ص 59.

* martin1er :.655و590عاش بين (larous,p1395).

³ - ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 99.

حيطانها مغطاة بفسيفساء تمثل حديقة رائعة الجمال، الأشجار ممثلة بورقات الأكوتن «Acante»،* وبعض النماذج "Motif" النباتية المملوءة بالفواكه والمجوهرات.

ولأول مرة في العمارة الإسلامية تظهر الكتابات الأثرية، وهي بخط كوفي على شكل لفاف Ruban من الفسيفساء وهي موجودة فوق الأروقة الداخلية، وكل هذه الكتابات مقتبسة من القرآن الكريم، وأغلبها تتحدث عن المسيح عيسى عليه السلام. وتنتهي الكتابات الأثرية بتحديد تاريخ الإنشاء "هذه القبة بنيت من طرف عبد الله المأمون أمير المؤمنين في سنة 72هـ، وهذه الكتابة تدل على تزييف تاريخي، فلقد عمد الخليفة العباسي سنة 83هـ إلى القيام بجملة من التحويلات على قبة الصخرة ولم يتردد في إخفاء اسم الخليفة الأموي عبد الملك ليعوضه باسمه ولكنه غفل عن تغيير التاريخ.¹

هذه القبة تشبه في أدق التفاصيل الأشكال والنماذج (forme) المنتشرة في سوريا وفلسطين وهي من مخلفات الفن المسيحي، أما المخطط القاعدي والبناء فهو صورة مطابقة للنماذج المسيحية، ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن قبة الصخرة تقابلها كنيسة (Saint Sépulcre) التي بناها الإمبراطور قسطنطين، والقبتان لهما نفس القطر تقريبا (20,46) لقبة الصخرة و (20,44) لقبة كنيسة القيامة.

كما يلاحظ تشابه طفيف مع كنيسة الصعود "L'ascension" فوق جبل الزيتون وهي أيضا على شكل مثنى (Octogonale) والجدران الخارجية طولها يساوي طول جدران قبة الصخرة وتمثل هذه القبة (512-513) نفس المخطط.²

والقبة مبنية من الحجر الصلب طولها 70,17م وعرضها 13,50م، وعلوها 31,5م وهي تتكون من طبقتين: من الخشب الأولى مكسوة بصفائح من الرصاص، وطبقة داخلية بينهما فراغ يحتوي طبقة من اللباد للتخفيف من حرارة الشمس³ وهي مزينة من الداخل والخارج بالخشب المنقوش والملون وهذه الفسيفساء تحتوي على آية

* نبات متوسطي، شانك له أوراق طويلة. وهو هنا حلية زخرفية.: Acante
¹ Volkman enderlin, L'art Musulman , p64,65

²- ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 99.

³- عفيف بهنسي: مرجع سابق، ص 56.

الكرسي وتستند القبة على رواق من الأعمدة عددها 12 عمودا ويعلوالرواق رقبه القبة.¹

ب. المسجد الأموي: (أنظر الشكل الثاني)

أمر ببناء هذا المسجد الوليد بن عبد الملك سنة 98هـ/710م، وكان المسجد مناصفة بين المسلمين والنصارى، فعند فتح دمشق سنة 14هـ، دخل خالد بن الوليد من جهة المسجد وكان كثرة دخول المسلمين من هذه الجهة عنوة، ودخل أبو عبيدة بن الجراح إلى المسجد من الجهة المقابلة صلحا، فظل هذا الجزء عبارة عن كنيسة للنصارى، حتى أخذه منهم الوليد بن عبد الملك وهدمه لبناء الجامع الأموي،² وهذا ما يفسر تأثر مخطط هذا المسجد بمخطط الكنيسة البيزنطية التي بنيت على أنقاض المعبد الوثني بعد اعتناق البيزنطيين للمسيحية.

وأخذ الأمويون المسجد النبوي مثالا لهندسة مسجدهم خاصة فيما يتعلق بالتقسيم الداخلي، وهويتكون من حرم داخلي وصحن محاط بأروقة.³

الوصف المعماري:

يسجل لنا الرحالة ابن بطوطة وابن جبير وصفا دقيقا للجامع الأموي، وإحصاء لأبعاده، فيذكر ابن بطوطة أن هذا المسجد طوله من الشرق إلى الغرب ثلاثمائة "300" ذراع وعرضه من القبلة إلى الجوف مئتي "200" ذراع.⁴ يتكون المسجد من قاعة صلاة (40,5x148)، وتقسم القاعة إلى ثلاثة أجنحة متوازية ومتساوية في العرض والارتفاع، وذكر ابن بطوطة أن عرض قاعة الصلاة ثمانية عشرة خطوة، وبها أربعة وخمسون سارية (عمود) وثمانية أرجل (دعائم) من الحصى والرخام وستة دعائم من الرخام،⁵ تفصل بينها أقواس متناسقة مرفوعة على

1- عفيف بهنسي: مرجع سابق، ص 54.

2- ابن بطوطة: مصدر سابق السابق، ص 87، 86.

3- عفيف بهنسي: المرجع السابق، ص 86.

4- ابن بطوطة: مرجع سابق، ص 39.

5- المسعودي: مروج الذهب، سلسلة الأنيس، الجزائر، ص 87.

أعمدة من الرخام وهي لا شك من مخلفات المعبد الوثني، فهي ذات تيجان كورنثية، و قاعة الصلاة قسمة إلى اثنين وعشرين (22) بلاطة باتجاه جدار القبلة ، إحدى عشر منها إلى يمين المجاز القاطع والنصف الآخر في الجهة اليسرى منه، ويفتح حرم المسجد على الصحن بسلسلة من البوائك بعدد البلاطات، ويعلوها نوافذ زجاجية ، عددها 74 نافذة ملونة.¹

والمجاز القاطع الذي يوجد أمام المحراب، تعلوه قبة، القصد منها إبرازه والاهتمام بشأنه، وإعطائه الضوء الكافي، وهذه القبة تدعى قبة النسر أوقبة الرصاص، وهي مما أمر ببناؤه الوليد بن عبد لملك واستعان على بناءه ببناء سوري.² ويقع محراب الجامع تحت هذه القبة مباشرة وهو مزين بالفسيفساء الملونة وعلى يمينه المنبر.

أما صحن الجامع فهو فناء عظيم طوله x عرضه $(121 x)$ 48 وبالصحن ثلاثة قباب، كل واحدة قائمة على أربع سوار من الرخام.

ومآذن المسجد الأموي هي في الأصل أبراج معبد وثني كان قائما أيام اليونان، فتركها الوليد بن عبد الملك على هيئتها مع الحائط الخارجي، وحولها إلى مآذن، ولم يذكر المسعودي من هذه المآذن إلا ثلاثة فقط،³ ولعل الرابعة تهدمت وهذه المآذن هي: المئذنة الشرقية: وهي من بناء الروم، وبابها داخل المسجد وهي المسماة بمئذنة عيسى أو البيضاء.

المئذنة الغربية: وقد اختفت هذه المئذنة تماما.

مئذنة العروس: وهي من إنشاء الوليد بن عبد الملك في وسط الجدار الشمالي.⁴ وأمر الخليفة الأموي عبد الملك أن يكتب اسمه عند الإنتهاء من البناء على ما ذكره المسعودي: "فأمر الوليد أن يكتب بالذهب على حائط المسجد، ربنا الله، لا نعبد إلا

¹ - المسعودي: مصدر سابق، ص 84.

² - عفيف بهنسي: مرجع سابق، ص 41.

³ - المسعودي: مصدر سابق، ص 88.

⁴ - عفيف بهنسي: مرجع سابق، ص 43.

الله، أمر ببناء هذا المسجد، وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين"، وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا، وهوسنة اثنتي وثلاثين¹.

ب. الفسيفساء:

وهومن العناصر المعمارية الزخرفية التي عرفت في الفن البيزنطي والهلنستي، بحيث برع في صناعته وتصنيفه البناعون السوريون ومن الراجح أن هؤلاء الفنانين والبنائين قد نقلوا هذه التقنية للعمائر الإسلامية²، ونجد له أمثلة كثيرة في الكنائس البيزنطية في فلسطين والأردن وسوريا.* وأشهر هذه الفسيفساء ما وجد في القسطنطينية في آياصوفيا وهي تعود للقرنين 5 و6م.

أما الفسيفساء الإسلامي، فهو وإن أخذ من نظيره البيزنطي تقنياته المختلفة فإنه خالفه في الموضوع، بحيث نجد أن اللوحات الفسيفسائية في قبة الصخرة تقتصر على الكتابات القرآنية والتاريخية والتوريق والإعتماد على الزخارف النباتية، وبعض الأشكال الغامضة والتي ربما مثلت تحويرا لتيجان الملوك ومتطلبات وظائفهم، وهذا التحول ناتج كما هو معلوم عن كراهية الإسلام للتصوير وخاصة في القرون الأولى³. وفسيفساء مسجد قبة الصخرة يتشابه في بعض التفاصيل مع فسيفساء عصر المسيحية، فنتشابه الأشجار بأوراق الأكونت، التي نجدها في تكسيه جدران كنيسة الميلاد في بيت لحم⁴.

ونعتقد أن الخلفاء الأمويين هم الذين اختاروا المواضيع والنصوص بحسب الموضوعات السياسية والإعلامية والدينية، فنجد الآيات القرآنية تتحدث في الغالب عن

¹ - المسعودي: المصدر السابق، ص 192-193.

² - عفيف بهنسي: مرجع سابق، ص 46.

* - الأشجار والنخيل وشجرة الزيتون.

³ - ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 19.

⁴ - Vol-Knarendlerlin, ornementation des édifices, L'art musulman, obcid, p80.

السيد المسيح، وتيجان الملوك مقلوبة رمزا لسيادة الإسلام وأقول نجم الحضارات الأخرى من بيزنطية وفارسية.¹

فسيفساء المسجد الأموي:

فسيفساء المسجد الأموي مستوحى أيضا من العمارة البيزنطية، فهو يتشابه مع ما وجد في بعض الكنائس المسيحية، وخاصة كنيسة القديس أبوليناري الجديدة Apoliaro nuevo، وشيدت هذه الكنيسة حوالي سنة 519م في إيطاليا،² فهناك لوحة من الفسيفساء تمثل واجهة لقصر « تيودوريك » الملك القوطي المتحالف مع بيزنطة والمتشعب بثقافتها 490م، وهذه الواجهة تشبه أشد الشبه واجهة الجامع الأموي الداخلية برواقها من دون الأعمدة، ومثلث العقود في منتصفها وكذلك الفسيفساء الذي يزين حواشي العقود في الجامع الأموي.³

وفي المسجد الأموي زينت جميع السقوف والجدران والأروقة و بطون الأقواس والدهاليز والأقسام العليا من الحرم لارتفاع يصل إلى سبعة أمتار. ويقال أن أرضية المسجد كانت أيضا مغطاة بالفسيفساء،⁴ وغلب على الزخرفة الفسيفسائية الطابع النباتي، ففي بيت الصلاة يمتد شريط عريض يحمل صورة رائعة متناسقة الألوان لمنظر طبيعي، فالأشجار تحف نهارا، و رسمت الصورة على قاع مذهب، وقد يصل طول الأشجار إلى سبعة أمتار، وهي مملوءة بالفواكه به، وأشكال الجذوع والفروع والأوراق متألئة تكاد تضيء لوحدها.⁵

ونعتقد أن هذه الفسيفساء هي من أهم مظاهر تأثر العمارة الإسلامية بغيرها من الحضارات، شأنها في ذلك شأن أغلب الحضارات المتعاقبة. ومثل هذا الأمر لا ينقص من عظمتها شيئا، فهذا شأن الحضارات المتعاقبة، والمعماري المسلم وإن تأثر بمن سبقه فإنه لم يغفل عن الإبداع والابتكار، ولم يغفل عن

¹ - ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 101.

² - محمود عبد العزيز مرزوق: مرجع سابق، 72.

* Teodorique le grand : 526 و425. (larousse, p1263).

³ - ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 103.

⁴ - عفيف بهنسي: مرجع سابق، ص 12.

⁵ - Vol-Knarendlerlin: l'art musulman, p80.

روح الدين الجديد، الذي تسري تقاليدته في عروقه، فهوحين يبني ويزخرف يستوحي من الحضارات السابقة ما يحقق به الغرض، ويضفي عليه من الصبغة والتجديد ما يجعله إسلامياً، متماشياً مع دينه وعقيدته. فهوحين أخذ الفسيفساء ونمق بها واجهات المسجد الأموي ومسجد الصخرة، فإنه ترك استخدام صور الحيوانات والأدميين واعتمد على الزخرفة النباتية فقط.¹

¹ - وان استعمل فيما بعد بعضاً منها وخاصة في العصور الأموية مثل قصر عميرة.

ثانياً: العمارة الفارسية

1. نشأة الدولة الفارسية

يعود أصل سكان بلاد فارس إلى مجموعة القبائل الهند وآرية، وقد وفدت هذه القبائل ضمن هجرات متتابة إلى مدن الشمال فيما يعرف اليوم بجبال القوقاز، واستوطنت الهضبة الإيرانية¹ ولا يعرف لهذه القبائل تاريخ إلا منذ القرن 6 ق.م.² وأدى استيطان هذه المنطقة إلى ظهور نزاعات داخلية بين هذه القبائل للسيطرة على المنطقة، وكانت أقوى هذه القبائل الميديون، حوالي سنة 715 ق.م استطاع الميديون التخلص من السيطرة الآشورية، واستقلوا بحكم المنطقة، ولم تلبث ميديا أن سارت إمبراطورية مترامية الأطراف تسيطر على معظم ممالك آسيا الغربية.³ أما ثاني القبائل التي لعبت دوراً أساسياً هاما في المنطقة، فهم الفرس الأخمينيون، وإليهم تنسب بلاد فارس، وكان الأخمينيون في صراع مستمر مع الميديين من أجل السيطرة على المنطقة.

واستطاع الأخمينيون الانتصار على الميديين، تحت حكم الملك كورش الثاني، سنة 559 ق.م. فنظم أمور مملكته، وأخضع القبائل لسيطرته،⁴ وتوسعت مملكته فاستولى على مصر وبلاد الهند وحاول أن يسيطر على بلاد الإغريق فنشأت بينهما ما يعرف بالحرب الميديّة الثانية. وبلغت بلاد فارس أوج قوتها قبل أن يقضي عليها الإسكندر الأكبر حين اجتاح بلاد الأناضول وانتصر على الفرس سنة 333 ق.م.⁵

ومع بداية القرن 2م وبالتحديد سنة 224م استولت الأسرة الساسانية على الحكم في إيران واستطاعوا القضاء على الدولة البارثية التي سيطرت على بلاد فارس ابتداء من سنة 155 ق.م، ونجحوا في توحيد الشعب الإيراني، وضمت الدولة الساسانية بلاد الهند وجزءاً كبيراً من بلاد ما بين النهرين وأرمينيا وخراسان، وصارت

¹ جميلة عبد الكريم محمد: قورينائية والفرس الأخمينيون، دار النهضة العربية، بيروت، 1969، ص 29.

² عزت زكي حامد قادوس: مرجع سابق، ص 94.

³ جميلة عبد الكريم محمد: مرجع سابق، ص 33

⁴ نفسه، ص 14.

⁵ عزت زكي حامد قادوس: المرجع السابق، ص 14

منافسا عنيدا للقوة الضارية آنذاك وهي الدولة البيزنطية. واتخذ الإيرانيون من طيسفون على نهر دجلة عاصمة لملكهم.¹

ورغم الحروب الداخلية والخارجية التي خاضها الساسانيون، فإنها لم تمنعهم من العناية بالفنون، فكثرت التبادل الفني بينهم وبين الإغريق، كما تأثر الفن الساساني بالفن المصري، وأثرت الفنون الساسانية في الأعمال الفنية البيزنطية، ثم في الأعمال الفنية الإسلامية بعد ذلك، حين استطاع الفاتحون المسلمون القضاء على الدولة الساسانية، فانصهر بذلك المجتمع الإيراني داخل المجتمع الإسلامي، ولكنه لم يكن انصهارا سلبيا، فقد استطاع الإيرانيون السيطرة على الحياة الثقافية والفنية في الدولة الإسلامية وخاصة في الخلافة العباسية، فظهر الطابع الساساني بكل وضوح في الأعمال الفنية، وخاصة المعمارية منها، كما سنراه لاحقا في ثنايا هذا البحث.

2. العمارة الفارسية:

ذكرنا سابقا أن بلاد فارس عرفت تعاقب عدة أسرات على الحكم مما نتج عن ذلك طرز معمارية مختلفة وسنحاول في هذا الجزء من البحث التعرف على العمارة في هذه الفترات المختلفة، وسنلتزم بالإيجاز والاختصار، لأن القصد هو التعرف على مظاهر تأثر العمارة الإسلامية بنظيراتها الفارسية.

أ- العمارة الدينية:

كان الشعب الإيراني يدين بالزرادشتية، وهي العقيدة التي وضعها زرادشت،* والتي أوحى بها الإله أهورمزدا "AHURMUSDA"، وهي أساسها ثنائية الخير والشر. فقد سوا النار لأن النور مصدره الشمس، والشمس من نار، ولأجل هذا كانت المعابد في إيران بسيطة ومفتوحة على السماء، ولم تعرف دور العبادة الفخمة التي نجدها في بيزنطة المسيحية، ولا نكاد اليوم نعثر إلا على اليسير من هذه المعابد، الأمر الذي لا يعطينا صور قواضح لما كانت عليه هذه المعابد.²

¹ ادوار بروي، تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر - فريد م. داغر، عويدات للنشر والطباعة، بيروت)، ص 525.

* زرادشت: ولد بميدية، وعاش بين 660 و583 ق.م (محمد بيومي مهران، ج 2، ص 416، 415)

² محمد بيومي مهران: حضارة الشرق الأدنى، دار المعرفة الجامعية، 99، ج 2، ص 422

وذكر المسعودي بعض هذه المعابد التي كان يتخذها الفرس للعبادة بفارس بمدينة اسطخر: "قرأيت بنيانا عجيبا، وهيكلًا عظيمًا وأساطين صخر عجيبة، على أعلاها صور من الصخر طريفة من الخيل وغيرها من الحيوان عظيمة القدر والأشكال، محيط بذلك حيز عظيم وسور".¹

وكانت هذه المعابد منتشرة بكثرة في بلاد فارس والعراق وبلاد الهند والصين، منها ما وجد في مدينة الهترا معبد النار وهو يرجع للفترة الأخمينية، وهو عبارة عن قاعة مغطاة بقبوبرميلي، كما عثر على قبوكان يستعمل للطواف والغالب أن كل المبنى كان يغطيه سقف مستو تحمله مجموعة من الأعمدة.

كما عثر الأثريون على بقايا لثلاثة معابد أخمينية، وهي على هيئة برج مربع يشتمل على حجرة واحدة يصل إليها بدرج، كان الكهنة يضعون فيها النار المقدسة.²

ب- العمارة المدنية:

كانت بلاد فارس ملتقى لجملة من الفنون المعمارية ظهرت في المنطقة، فقد تأثرت العمارة الفارسية بالعمارة المصرية والهنسية والإغريقية، ورغم هذا الخليط من التأثيرات الفنية إلا أن الفن المعماري الفارسي استطاع أن يوجد طرازًا خاصًا به ضمن هذا الزخم الفني، وهذا الكلام له من الشواهد ما يؤكد، فقد خلد الفرس شواهد معمارية تدل على اهتمامهم وتفوقهم في المجال المعماري. وسنتعرض لبعض النماذج المعمارية من الفترات المختلفة للتاريخ الفارسي، واختيار هذه النماذج على سبيل المثال لا الحصر، وإن كنا أحيانًا نؤكد على النماذج الساسانية باعتبارها الفترة التي حدث فيها الالتقاء مع الحضارة الإسلامية، فإن كان المسلمين قد أخذوا من العمارة الفارسية فلا شك أنهم أخذوا من العمارة في الفترة الساسانية، التي ورثت الكثير من العناصر الفنية المعمارية عن البارثيين والأخمينيين.

¹ المسعودي: مصدر سابق، ص 285

² محمد أبوالمحسن منصور: معالم الحضارات في الشرق القديم الأدنى القديم، دار النهضة العربية، 1981، ص

القصور:

كانت القصور الفارسية تُبنى بالآجر، ويظهر أنها تأثرت بعمارة بلاد ما بين النهرين، وأحيانا أخرى نجد المعماري الفارسي يبني بالحجارة كما هو الشأن في قصور بريسبوليس.¹ كما اعتاد الفرس بناء قصورهم على المرتفعات والروابي، بحيث يتم الوصول إليها عن طريق صعود مجموعة من الأدراج أو السلالم سهلة المرقى واسعة الجانبين.²

ومن أشهر القصور الفارسية:

1. قصر كورش: وقد شيد هذا القصر في مدينة "بازارجاد"، وأهم ما يميزه وجود الفناء الواسع، يحيط به حائط سمكه حوالي ثلاثة عشر قدماً تتقدمه بوابة تذكارية، وأقيم على المدخل ثوران مجنحان نحتاً من الحجر الرمادي، أما سقف حجرة الملك فيحمل على ثمانية أعمدة سوداء، يحتوي المبنى على مجموعة من الغرف الصغيرة تحيط بالفناء،³ ويعود قصر كورش إلى الفترة الأخمينية.

وأهم ما ميز قصور هذه الفترة:

1- استعمال الحجارة في البناء.

2- ظهور البوابات الكبيرة تتقدمها تماثيل الثيران ذات الرؤوس

الأربعة.

3- بناء القصور على الروابي.

أما القصور في الفترة البارثية فقد كانت تبنى بالطوب البني أو المجفف، ثم يتم طلاؤها بطبقة من الدهان، كما نعثر في العمارة البارثية على الإيوان، وكان عبارة عن قبورميلي يغطي قاعة مغلقة من الخلف ومفتوحة على فناء أو ساحة، ويظهر أن أصل الإيوان يعود إلى الفترة الأخمينية،⁴ ومنذ ظهور الإيوان في هذه الفترة صار عنصراً

1 لبيب عبد الستار: تاريخ الحضارات، دار المشرق، بيروت، ط9، ص 73

2 سعد زغلول: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص 266.

* القدم يساوي 3.96م

3 عائدة سليمان، مرجع سابق، ص 100.

4 نفسه، ص 120

معماريًا مميّزا في عمارة هذه المنطقة، كما سنعرّث عليه في عمارة إيران الإسلامية في بناء المساجد والمدارس.

أما الساسانيون فإنهم شيّدوا مجموعة من القصور، ولعل أهمها القصر المعروف بطاق كسرى، أوبايوان كسرى في مدينة فيروز آباد. وقد بني بالآجر والجص، وتبلغ مساحة القصر (300 م × 400 م) ويشتمل القصر اليوم على الإيوان وبقايا بناء شرقية على مسافة 100 م. وغرف جنوبيه، وهي غرف حريم كسرى ومن الشمال مجموعة من الخرائب. والإيوان هو العنصر الوحيد الذي حافظ على الكثير من شكله الأول.

ويصل ارتفاع واجهة القصر حوالي 28 إلى 30 م، وهي عبارة عن جدار خال من الفتحات تزيّنه الطيقان، وهي عبارة عن أعمدة منقوشة وبارزة تزيّنها عقود على أربع طبقات، وكانت هذه الواجهة والبهو قائمة إلى سنة 1888¹. كما توجد في طاق كسرى قبة هائلة ذات شكل بيضوي، وهي تقوم فوق بهو الاستقبال (طولها × عرضها) (25.63 م × 43.72 م) وخلف جناحي الواجهة مجموعة من البهوات (بهو) تعلوها قباب صغيرة².

وأشهر إيوان هو إيوان كسرى الموجود في مدينة طيسفون "Ctesiphon" على نهر دجلة، والذي عرف عند المسلمين باسم المدائن، الذي لم يبق منه اليوم إلا الإيوان أو الطاق، يتوسط فتحته المقوسة الواجهة الأصلية التي سقط جناحها الشمالي سنة 1886 بعد فيضان نهر دجلة، وبقيت أجزاء من النصف الجنوبي والتي يمكن من خلالها تصور ما كانت عليه الواجهة الأصلية من حيث البناء والزخرفة³. والإيوان عبارة عن بهو مستطيل هائل الأبعاد بعرض حوالي 26 متر، وعمق 43 متر، وسقفه المعقود يرتفع لأكثر من 35 م⁴.

ولقد أعجب الشعراء العرب والمؤرخون بهذا البناء العجيب وخلدوه في أشعارهم ورحلاتهم، فهذا البحترى يقول في وصفه:

¹ آرثر كريستنس، إيران في الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، ص 375

² نفسه، ص 376.

³ ناصر الرباط، مرجع سابق، ص 128.

⁴ نفسه، ص 129.

وما يهمننا هنا هو ظهور الإيوان أو الطاق كعنصر معماري مهم ساد منطقة غرب آسيا، ثم انتقل إلى العمارة الإسلامية ليصير من أهم مميزاتها، خاصة فيما يعرف بالمسجد ذي الإيوان، والذي سنعود إليه بالتفصيل في موضع لاحق من هذا البحث لإبراز مظاهر تأثر المعمارى المسلم بالموروث الساسانى.

والخلاصة أن فى الفترة الساسانية استطاع المعمارى أن يتخلص من الهيمنة الهيلينية، ليبتكر نمودجا معماريا خاصا به، تمثل فى ظهور الإيوان، وظهور طراز القباب المرتفعة، وتتوع العناصر المعمارية المختلفة التى طغى عليها طابع الجدة والابتكار.

3. العناصر المعمارية الفارسية:

أ. الأعمدة:

كانت الأعمدة فى بلاد إيران تقام بالخشب على قاعدة من الحجر، أما البدن فقد كان يغطي برقائق المرمر الملون والأملس،¹ ثم صنع العمود من الرخام، وهوعبارة عن قطعة متصلة نحيلة السمك دقيقة، يبلغ ارتفاعها عادة 64 قدما (19.50م)، وهناك تشابه كبير بين العمود الفارسي والأيونى، وأخذت قاعدة العمود الفارسي شكل الجرس والوردة وأشكال النباتات، أما البدن فقد زخرف بالخروز، وهى تقنية مأخوذة من العمود الأيونى.

أما تاج العمود فهوا ابتكار فارسي، فجزؤه العلوي يشبه إلى حد كبير الشجيرة المسننة، كما زين التاج بتمثالين لحيوانين، وهما غالبا ثورين برأسى إنسان.²

وكان التاج دقيقا، يتألف من جزء هو أشبه بالشجيرة المسننة، يقوم مباشرة على نهاية البدن، يرتبط به بقوالب معدنية ثم يأتي كوع الزهرة ليرتكز عليها الجزء الثالث من التاج، وهوعبارة عن كتلة من أشكال حلزونية عددها ثمانية، أربعة على كل جانب وفى آخر التاج يأتي الحيوانين وهما عادة إما ثورين أو حصانين، ويبلغ ارتفاع التاج حوالي 17.50 سم.³

¹ سعد زغول عبد الحميد: مرجع سابق، ص 269.

² عائدة سليمان عارف: مرجع سابق، ص 128.

³ سعد زغول عبد الحميد: مرجع سابق، ص 270.

ب. القبة الفارسية:

ظهرت القبة الفارسية في الفترة البارثية، وكانت تقام فوق بناء مربع مع تدعيمها بواسطة أعمدة تقوم عند الأركان،¹ ولقد استعملت القبة لتغطية قاعة العرش، وهي مكان جلوس الملك، كما هو الحال في قاعة العرش بقصر نيسابور غرب فارس. وانتقلت القبة إلى العمارة الساسانية، حيث شاع استخدامها في تغطية قاعة جلوس الملوك، وفي تغطية البهو، كما استخدمت في تغطية بيوت النار.² وشيد الساسانيون قباباً ضخمة، مثل القبة التي تغطي مدخل البهوفى برسيليوس، و في إيوان كسرى، وهي عبارة عن قبة بيضاوية هائلة، تغطي بهوالاستقبال، وقام المعماري الساساني بحمل القبة على طاقات لتحويل الحجرة المربعة لنتهياً لحمل القبة المستديرة.³

واستخدم الساسانيون الأجر في بناء القبة، وبرعوا في ذلك، ونافسوا القبة الفارسية والقبة البيزنطية، باختلاف منحنياتها وتعدد تكوينات مناطق الانتقال من الشكل المربع إلى الشكل الدائري في تشكيلات مذهلة. فاستعمل الفنان الفارسي العناصر المعقودة التي تذكرنا بالتكوينات الإنسيابية المتنوعة،⁴ وهي بهذا تختلف عن القبة البيزنطية التي يتم فيها الانتقال من الشكل المربع إلى الدائرة عن طريق المثلث المعلق أو الكروي.

كما برع الساسانيون في استخدام الدلايات أو ما يعرف بالمقرنصات، كعامل ربط وانتقال من الشكل المربع إلى الدائرة. وامتازت القباب الإيرانية بارتفاعها وتناغم بندها وحسن دورانها، وأخذت في الغالب شكل البصلة، كما قام الفنان الفارسي بتزيينها بالقاشان.⁵

¹ عائدة سليمان: مرجع سابق، ص 128

² زكي محمودحسن: الفنون الإيرانية، ص 52، ج 3.

³ عائدة سليمان عارف: المرجع السابق، ص 128

⁴ ثروت عكاشة: مرجع سابق، ص 105

⁵ زكي محمد حسن: مرجع سابق، ج 5، ص 51

ذكرنا سابقا أن العمارة الإسلامية في الفترة الأموية قد اقتبست الكثير من العناصر الإنشائية والزخرفية من العمارة البيزنطية نتيجة اعتمادها على المعماريين السوريين والبيزنطيين، وبعد قضاء العباسيين على الخلافة الأموية، وفي إطار سعيهم لخلافة الأمويين في كل شيء، فقد ظهر على الساحة المعمارية طراز معماري جديد، يمثل مرحلة سياسية ومعمارية جديدة، عرفت لدى الدارسين بالعمارة العباسية، والسؤال الذي نطرحه: ما هي الأسباب التي كانت وراء نشأة هذا الطراز؟ مع أن العقيدة واحدة والعادات والتقاليد واحدة.

إنّ الخلافة العباسية كما هو معلوم، قد قامت على كاهل مسلمي الفرس من الناحية العسكرية والسياسية، وحين استتب الأمر للعباسيين، استعانوا بسكان إيران في تسيير شؤون الدولة، وهم كما هو معلوم قريبي عهد بالدولة الساسانية، وبما انطوت عليه من حضارة وثقافة وفنون. ولم يقف الاعتماد وعليهم على المجال السياسي والعسكري والإداري بل تعد الأمر ذلك ليصل إلى مجال الآداب والفنون.

وفي مجال الفنون والعمارة على وجه الخصوص اعتمد العباسيون على الخبرات الفنية لفناني وصناع الدولة الفارسية، فاعتمد هؤلاء الفنانون أساليبهم الإنشائية والزخرفية وسخروها لخدمة عمارة الدين الجديد، فظهر لنا ما يعرف بالطراز الإيراني.

والطراز الإيراني، وإن اعتمد على الأساليب الموروثة عن الحضارة الفارسية، فإنه كان إسلامي الروح والجوهر، لم يخرج في الغالب عن تعاليم الدين. وظهر التأثير الإيراني في أغلب العماير التي شيدت في الفترة العباسية* ابتداء من مدينة بغداد ومسجد المتوكل بسمراء ومسجد ابن طولون، سواء من حيث الإنشاء أو الزخرفة أو مواد البناء.

إن كان هذا التأثير قد ظهر حتى في بعض المباني الأموية كظاهرة الإيوان في القصور الأموية.

والجدير بالذكر أن الفن الفارسي قد أثر في أغلب الفنون التي عاصرها والتي تلتها، فلا يوجد فن إلا وأخذ من الفن الفارسي، وهذه حقيقة يؤكدها الكثير من المهتمين "... إنه ليس هناك فن عظيم لم يأخذ من الفن الفارسي شيئا من زخارفه وأساليبه.."¹ والفنان المسلم، حين استلهم من الفن الفارسي فإنه لم يقف منه موقف الانبهار فنقله بغثه وسمينه بل انتقى منه ما يخدم دينه وعقيدته، وزاد عليه وطوره حتى صار فنا إسلاميا خالصا، لا يدرك بعض مصادره إلا أهل الاختصاص، ولهذا نجد أن الفن الإسلامي الإيراني إنما بلغ أوجه وذروته لما استعمل في العمارة الدينية وخاصة في عمارة المساجد.

وتوثيقا لما نقوله من آراء سنسوق بعض الأمثلة تدل على اقتباس الفن المعماري الإسلامي من الفن الإيراني، وهي النماذج التي نراها من أهم مظاهر التأثير.

1. المسجد ذي الأربع إيوانات:

أ. تعريف الإيوان:

ويجمع على أووين وإيوانات وهي كلمة فارسية معربة ويراد به في اللغة الصنعة أوكل مكان واسع مظلل أو المدخل الذي لا أبواب له، وهو من الناحية المعمارية عبارة عن قائمة مسقفة، لها ثلاثة جدران فقط، ومفتوحة كلياً من الجهة الرابعة، تطل على صحن مكشوف.²

ويراد بالإيوان الأرضية المرتفعة في قاعات الاستقبال، وقد يراد بالإيوان القصر فيقال: "إيوان كسرى" وهو القصر الساساني بالمدائن الذي شيده كسرى أنوشروان (531م-579م)، كما أطلقت هذه التسمية على بعض قصور العهد الإسلامي مثل "قصر الإيوان الكبير" وهو قصر الخليفة الفاطمي العزيز الذي بناه سنة 970 م.

والإيوان تعود جذوره إلى الحضارة البارثية التي ظهرت قبل الحضارة الساسانية، ثم انتقل إلى العمارة الساسانية وصار عنصراً مميزاً في عمارة هذه

¹ محمد زكي حسن: مرجع سابق، ص 13، ج 3..

² موسوعة العمارة الإسلامية، طبعة الكترونية، ص 67-68.

الفترة، ثم نقله الفنانون الساسانيون إلى العمارة الإسلامية، واستعمل في العمارة الإسلامية بشكل كبير حتى صار أحد مميزاتها المختلفة (كالقبة، والمئذنة...)¹. ولم يعرف الإيوان الشهرة إلا مع قدوم الإسلام، فظهر في كل العنائر الدينية والمدنية، ولعب هذا العنصر المعماري منذ ظهوره في المساجد ذات الإيوانات دوراً إنشائياً أساسياً، متكاملاً مع باقي العناصر المعمارية التي اقتبسها المسلمون من غيرهم، ونعثر على الإيوان وبدرجة أقل في بعض العنائر الأموية كقصر المشتى الذي بناه الوليد بن يزيد، وقد احتوى هذا القصر على إيوانات.

واستخدم الإيوان في المسجد والمدرسة والمستشفيات وفي القصور وهوفي أحد مظاهر الأبهة في عمارة القصور الفارسية أو الإسلامية، لما كان عليه من فخامة وعلو ارتفاع، وللإيوان وظائف متعددة فهوفي القصور والمسكن فراغ للاستقبال أو الاحتفال كما يستعمل في البيوت للجلوس والهروب من درجة الحرارة المرتفعة داخل المبنى، كما يعتبر فسحة للسمر والسهر لأفراد العائلة، أما في المساجد والمدارس فيستعمل لإلقاء الدرس أو الصلاة في زمن الصيف.

وفي الخلافة العباسية عدل الفنانون عن مخطط المسجد ذي الأعمدة والدعامات ليحل محله طراز جديد يصطلح على تسميته طراز المساجد ذات الإيوانات، وهو طراز متأثر بالعمارة الفارسية، ويبدو أن الظروف لم تتح لنا التعرف على نماذج تعود للفتريات الأولى من الخلافة العباسية، والنموذج الذي بين أيدينا يعود إلى فتريات متأخرة، وهي فترة حكم السلاجقة نهاية القرن الخامس الهجري.²

ب. مسجد الجمعة بأصفهان

يعتبر هذا المسجد أقدم نموذج يمثل ظهور المسجد ذي الإيوانات الأربعة، وشيد مسجد الجمعة مع بداية القرن 9م وعرف بعد ذلك عدة تحويلات إلى نهاية القرن 17م، ففي البدء كان يوجد مكانه المسجد الذي بناه العباسيون وكان عبارة عن مخطط ذو شكل مستطيل ثم تمت توسعته في القرن 10م، وتم تصغير مساحة الصحن، أما في القرن 11م فقد أدخلت عليه التحويلات التالية:

¹ ناصر الرباط، مرجع سابق، ص 127.

² نفسه، ص 134-135.

• بناء قبة تغطي المحراب تمتاز بالانتقال من الشكل المربع إلى الشكل الدائري بواسطة الأجر.

• بناء الإيوانات الأربعة.¹

ويبدو أن هذا الطراز قد ظهر منذ القرن 6 هـ، ولكننا لا نعثر له على شاهد يعود إلى تلك الفترة، وهو عبارة عن مقاربة للأشكال التي كانت سائدة في بلاد فارس،² واستمر في الإنتشار حتى أصبح النموذج السائد في كل جوامع إيران إلى غاية العهد الصفوي،³ وتجاوز حدود بلاد فارس ليصل إلى أغلب الدول الإسلامية سواء في عمارة عمارة المساجد أو عمارة المدارس أو العمارة المدنية، فنجد أن ساحات المدارس في طوس ونيسابور وبغداد احتوت على الإيوانات، كما اشتملت الفنادق "Caravanserail" والمدارس على أربع إيوانات، ومع بداية القرن 13م ظهرت الإيوانات في مدارس القاهرة وعددها أربع إيوانات في كل مدرسة.⁴

2. القبة الفارسية:

القبة الفارسية تختلف في طريقة إنشائها عن القبة البيزنطية، التي رأيناها في قبة الصخرة والتي تعتمد أساسا على مثلثات كروية، وهي تتجه إلى الأسفل، والمعروف بالقبة ذات الخناصر المتدلية، أما القبة الفارسية فتقوم من الداخل وفي نقطة الالتقاء بين الدائرة والمربع نجد أربعة أنصاف كرات، و تتركز على النقاط الأربعة للقاعة لتغطية الفراغات التي تنشأ عند إلتقاء الشكلين المربع والدائري، وبذلك ننتقل من الشكل المربع إلى الشكل المثلث باتجاه الأعلى وتتركز عليه القبة، وبهذه الحيلة المعمارية تمكن المعماري من توفير منطقة انتقال مريحة من الناحية الإنتقالية والجمالية تعرف هذه التقنية بـ "الخناصر المعقودة".⁵

¹ Denis Grandet :. Architecture et Urbanisme Islamique 3OPU, 92, p

² Ulya Vogt- Gokuil- " Grand courant de l'architecture Islamique – Mosquées."

³ - ثروت عكاشة: مرجع سابق، ص 102.

⁴ Ulya Voght, op.cit , p 72..

⁵ - ثروت عكاشة: مرجع سابق، ص 25.

وكانت القبة الإيرانية بيضوية الشكل أوبصلية مغطاة بلوحات من القشاني، أما القبة في سمرقند فظهرت برقبة طويلة، وتحتوي مصرخليطا رائعاً من القباب، أقدمها يعود للعصر الفاطمي، وكانت القبة الفاطمية من الداخل تتركب من حنية (خنصراً) واحد، ثم من حنيتين ابتداء من القرن 6 هـ.¹

أما في تركيا فكانت القبة على شكل نصف كرة غير كاملة، وظهر في العمائر العثمانية القباب العظيمة، تحيط بها قباب صغيرة أو أنصاف قباب.

وفي المغرب العربي كانت القبة نصف كروية، وبيضوية الشكل في الجزائر.² والملاحظ أنّ في بلاد المغرب العربي، لا نعثر على قباب عظيمة مثل تلك التي ظهرت في إيران أو تركيا، وهذا يدل على أنّ المعماري في هذه البلاد لم يولي اهتماماً بالغاً لهذا العنصر المعماري رغم أهميته الإنشائية والوظيفية وحتى الجمالية، ولا يمكن أن يرجع هذا الأمر إلى عامل القصور أو عدم الدراية، فقد أبدع الفنان المعماري المغربي في كثير من العناصر المعمارية الأخرى كالمئذنة والمحراب ولا تزال الشواهد على ذلك قائمة، ومدينة تلمسان ومراكش وفاس تشهد على هذا التفوق والإتقان. ويمكننا أن نرجع هذا الفرق في عمارة القباب، إلى أنّ هذه البلاد لم تعيش من الحضارات ما يدفعها إلى تقليدها أو محاولة مجاراتها في المجال المعماري، كما هو الشأن في سوريا أو إيران، فأغلب سكان هذه المناطق تغلب عليهم مظاهر البداوة ويميلون إلى التقشف، وكثير من ملوك وأمراء هذه البلاد لم يعرفوا بالبذخ والإسراف في الإنفاق، كما هو شأن غيرهم من السلاطين.

وما يميز القبة الفارسية أيضاً هو ظهور عنصر المقرنصات وإن كان الخلاف قد وقع في أصلها فأرجع الكثير من الباحثين أصوله إلى الإسلام وإنها ابتكار إسلامي محض.

والمقرنصات تعريب الكلمة الاغريقية "Coronis"، التي اشتق منها لفظ كورنيش واستعملت بوفرة في العمارة الإسلامية حتى صارت من أظهر مميزاتهما، فظهرت في

¹ - محمود زكي حسن: فنون الإسلام، المجلد 3، ص 150.

² نفسه، ج 3، ص 144.

واجهات المساجد والمآذن وفي القباب وفي تيجان الأعمدة وبلغ استعمال المقرنصات في قصر الحمراء وفي الأندلس غموما حدا منقطع النظير.¹

¹ محمود زكي حسن: مرجع سابق، المجلد 3، ص 152.

الفصل الثاني المصادر الداخلية

أولاً: القرآن

ثانياً: السنة

ثالثاً: العمارة وأصول الفقه

رابعاً: المؤسسات المؤثرة في مجال العمران

أولاً: القرآن

إنّ القرآن الكريم قد تضمن الكثير من الأفكار التشريعية في مجالات الحياة المختلفة، إما بطرق مباشرة أو غير مباشرة في كثير من الأحيان، فالقرآن جامع لكل ما يتعلق بحياة المسلم تشريعاً وتوضيحاً.

ولا يعني هذا القول أن القرآن لم يترك واردة ولا شاردة إلا أحصاها، لأن هذا الأمر لا يتماشى مع تكريم الله عز وجل للإنسان بالعقل ولا تكليفه في التدبر في آيات الله، فالقرآن يعرض لنا تصوراً شاملاً للحياة والكون والإنسان، وهذا التصور هو الذخيرة الموضوعية لكل فن من الفنون.¹ ولكن المراد أن الله عز وجل قد رسم لنا المعالم الرئيسية التي يمكن أن نستهدي بها (نسترشد) في قراءتنا للقرآن الكريم، بحيث يجد كل قارئ ومتدبر للقرآن الكريم ضالته وفق الأصول والمناهج الذي وضعها علماء التفسير، وهو المراد بقول الشاطبي: "فقد تكلف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج على صحة الأخذ في علومهم بآيات القرآن وأحاديث النبي كما استدل أهل العدد بقوله تعالى: قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ"² وأهل الهندسة بقوله "أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ"³ وأهل التعديل بالنجوم بقوله " الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ"⁴ مما هو مسطور في الكتب، وجميعه يقطع بأنه مقصود لما تقدم.⁵

ولنا أن تساعل هل القرآن الكريم خلوم من موضوع هام في حياة المسلم كموضوع العمارة؟ وهل في نصوص القرآن من المعالم ما يمكننا أن نسترشد به في مجال العمران؟ سواء من حيث التخطيط أو التنفيذ؟

¹ محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ط6، دار الشروق، 1983ص137.

² سورة المؤمنون، الآية 113.

³ سورة الرعد، الآية 17.

⁴ سورة الرحمن، الآية 5.

⁵ الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق محمد عبد القادر فاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2000، ص30.

وبعبارة أكثر وضوحا هل يمكننا أن نرسم منهاجا معماريا من خلال نصوص

القرآن؟

إننا مأمورون كمسلمين بقراءة القرآن وتدبر آياته واستخلاص العبر، ولكننا - كدارسين وباحثين- مأمورون بدرجة أكبر بقراءة القرآن واسترشاد معالمة وصبر أغواره واستخراج ما بمكنونه.

وسأحاول في هذا الجزء من البحث إعطاء قراءة لبعض نصوص القرآن، بحيث تمكننا من التعرف على الرؤية المعمارية في القرآن الكريم، وقد تكون هذه المحاولة على درجة من البساطة ولكننا نأمل أن تكون بصيص النور الذي يفتح الطريق أمام الباحثين والدارسين.

ولا نزع البتة أن القرآن الكريم كتاب معمار، يعود إليه البناعون والمهندسون وطلبة العمارة وغيرهم، ولكننا ننكر على من يزعم أن القرآن لا يحتوي على شيء من هذا القبيل.

فالقرآن قد تضمن توجيهات عامة، هي بمثابة الأصول المعتمدة في عملية البنيان وال عمران.¹

بل إن القرآن قد أشار إلى بعض المفاهيم في مجال العمران، وإن لم يسلّم لنا بأن القرآن يشتمل على هذه المفاهيم، فإنه على الأقل اشتمل على الكثير من المصطلحات التي نستعملها في مجال العمارة كالمدينة والقرية، السور، الباب، القواعد، السجن، العمد، الطين و الحجارة، الفخار... إلخ

ويذكر محمد قطب في سياق حديثه عن علاقة الفن بالقرآن، "فالقرآن هو المرجع الذي ينبغي أن ترجع إليه الفنون الإسلامية، وهي الفنون الإسلامية السامقة، تصل إلى آخر ما قد يصل إليه الإنسان من عمق ورفعة واتساع، وفنون كونية يتسق مدارها مع مدار الكون، ويتسق جمالها مع جمال الكون".²

وقد يرى الكثيرون أن هذا العمل من باب تحميل القرآن ما لا يطيق أو التعسف في استعمال نصوص القرآن، كما قد يصرح البعض بأن القرآن لم يشتمل على رؤية

¹ العربي بوعياذ: العمران والبنيان عند المسلمين، مجلة الأمة، ع6، السنة الثالثة، أكتوبر 1998، ص 18.

² محمد قطب: مرجع سابق، ص 138.

معمارية، وهم بذلك يكونون أقل شأنا من المستشرقين، فإننا نجد رجلا مثل قولفان (GOLVIN) يصرح بمثل هذا القول، فهو يزعم بأن القرآن والسنة لا يشتملان على رؤية معمارية.

" والقرآن حين يتحدث عن بناء المدن فهو يقيم بذلك في سياق سلبي، فكثيرا ما يتحدث القرآن على خراب المدن بالكوارث الطبيعية"¹، ويستثني من ذلك ما ورد في قوله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ"² وقوله: "خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ"³. ولا شك أن مثل هذا القول قول متحيز ويدل على عدم إدراك صاحبه لنصوص القرآن، فهناك في القرآن نصوصا أكثر دلالة على مفاهيم العمارة من هذين النصين.

وصدور هذا القول من مستشرق لا يفيدنا في شيء، فإننا قد علمنا دأبهم على إفراغ الإسلام من كل نوع من أنواع الفنون، ولا أدل عن ذلك محاولتهم إرجاع مجموع العمارة الإسلامية إلى تأثيرات فارسية وبيزنطية...، ولا أدل على ذلك أيضا محاولات قولفان المقارنة بين مخطط المسجد في الإسلام وبين دور العبادة اليهودية، وهونفس العمل الذي صدر عن المستشرق كريسويل، إذ حاول إرجاع كل المعالم المعمارية الإسلامية إلى حضارات سابقة للإسلام.

1. المدينة في القرآن:

يتحدث القرآن الكريم في مواضع كثيرة عن المدينة، ومن خلال تتبعنا لهذه النصوص القرآنية فإننا نحاول مجتهدين تحديد صورة المدينة في القرآن، وأهم خصائصها.

¹ LUCIEN Golvin : op.cit, p48

² سورة الرعد، الآية 02.

³ سورة لقمان، الآية 10.

ومن أهم المعايير التي تدخل في تحديد مفهوم المدينة عند علماء العمران الحضري، هي اجتماع مجموعة من الناس، وهي نفس المعايير التي يضعها علماء الإسلام والجغرافيون.

ومن النصوص القرآنية التي تؤكد هذا المعنى قوله تعالى: "قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"¹، فالمدينة هي عادة ما يجتمع فيها الناس، وورد نفس المعنى تقريبا في سورة الكهف "قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا"² فالمدينة تمثل تجمعا حضريا وتجاريا واقتصاديا.

وأغلب ما ورد ذكر لفظ المدينة للإشارة إلى المراكز التمدنية المتحضرة الواقعة في منطقة البحر الأبيض المتوسط مثل أنطاكية وأفسوس ومصر.³ ولا نعثر في القرآن على ذكر مدن شبه الجزيرة العربية كصنعاء ومكة مستعملا لفظ "المدينة" وهذا يدل دلالة واضحة أن المصطلح القرآني "المدينة" إنما استعمل للدلالة على الحواضر الكبرى.

وهو حين يتعرض بالذكر لهذه المدن الصغرى إنما يستعمل لفظ "القرية" ويقصد بها المدينة الصغيرة أو المتوسطة. ومن هذه النصوص قوله تعالى: "أَوَكَلِّدِي مَرًّا عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا"⁴ وقال في نص آخر: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ"⁵ وقال أيضا: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ"⁶ وقال في سورة الزخرف: "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ"⁷.

¹ سورة الأعراف، الآية، 123.

² سورة الكهف، الآية، 19.

³ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 63.

⁴ سورة البقرة، الآية 259.

⁵ سورة الأنعام، الآية، 123.

⁶ سورة الأعراف، الآية، 94.

⁷ سورة الزخرف، الآية، 23.

وقال في سورة النمل: " فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ " ¹.

وفي مواضع مختلفة من القرآن نجد أنه استعمل لفظ القرية للدلالة على المدينة مثل قوله تعالى: " وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ " ² ثم ذكر ما قاله إخوة يوسف: " وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " ³ (82) والقرية هنا هي مدينة منفيس مقر إقامة الفرعون. ⁴

ومن مظاهر استعمال كلمة القرية للدلالة على المدينة قوله تعالى: " حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ " ⁵، ثم ذكر في نفس السياق " وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ " ⁶. وفي موضع آخر من القرآن قوله تعالى: " وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ " ⁷ وهي أيضا مدينة مصر ثم ذكر تعالى: " وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ " ⁸.

فالقرآن غالبا ما يستعمل كلمة المدينة للدلالة على التجمعات الحضرية الكبيرة وأحيانا يعدل عن كلمة المدينة إلى كلمة القرية فتأتي اللفظة للدلالة على معنى المدينة وأحيانا يعكس الأمر فيستعمل لفظ المدينة للدلالة على القرية.

ولا يمكن الجزم بهذا الترادف بسهولة كما فعل المفسرون، فذكروا أن لفظ القرية مرادف للمدينة، ⁹ إذ يختلف اللفظان في الدلالة قطعا.

¹ سورة النمل 56.

² سورة يوسف 30.

³ سورة يوسف 82.

⁴ الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ج13، ص20.

⁵ سورة الكهف 77.

⁶ سورة الكهف 82.

⁷ سورة يس 13.

⁸ سورة يس 20.

⁹ الطاهر بن عاشور: مرجع سابق، ص20.

ومن خلال تتبع آيات القرآن الكريم التي ورد فيها استعمال لفظ المدينة يمكن أن نستخرج بعض خصائصها.

ولا نزع أن هذه الخصائص هي التي يجب أن تبنى عليها المدن وإنما نقصد أن هذه الخصائص هي التي راعاها الإنسان وحددها منذ أن شرع في التكتلات الحضرية وعرف نظم الحكم المختلفة.

ومن هذه الخصائص الذي يمدنا بها النص القرآني ما يلي:

أ.وجود الأسواق:

وهي واحدة من أهم خصائص المدن قديما وحديثا، إذ لا تكتمل حياة الناس في المدينة إلا بوجود الأسواق التي تمكن السكان من استيفاء حاجاتهم اليومية، كما تعتبر السوق من أهم عوامل نشأة المدن وقد كانت كثيرا من المدن مجرد ملتقى للقوافل التجارية أو أسواقا موسمية.

أما القرآن الكريم فيدل دلالة واضحة، لا تترك مجالاً للشك على هذه الحقيقة، فقد ذكر السياق القرآني أن الذين عثروا على يوسف باعوه في مصر، وهذا دليل على أن مصر كانت تحتوي سوقا يقصده عامة الناس والتجار. ولعل القافلة التي عثرت على يوسف كانت قاصدة أصلا إلى سوق مصر قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ" اويؤكد هذا المعنى، أن إخوة يوسف لما أصابهم القحط، قصدوا مصر، قصد الميرة، وحملوا معهم بضاعتهم يريدون بيعها وشراء بضاعة أخرى بدلها، ويفهم هذا من خلال حوارهم مع يوسف عليه السلام: "فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ".² فلفظة "بضاعة" توحى بأنهم قصدوا مصر من أجل البيع والشراء، والظاهر أن عزيز مصر كان يراقب كل المبادلات التجارية بسبب القحط الذي أصاب

¹ سورة يوسف، الآية 21.

² سورة يوسف، الآية 88.

مصر، وأن أهل البضائع كانوا يبيعونها للعزير مقابل مواد استهلاكية أخرى وهو ما يفهم من قولهم " فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ " .

ومن الآيات التي تدل على وجود الأسواق داخل المدن ما ورد في قصص أصحاب الكهف قال تعالى: " فَأَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ " ¹ وتدل الآية أنهم كانوا يستعملون النقد في المعاملات التجارية²، والمراد بقولهم " المدينة " السوق، فاستعملوا لفظ المدينة لأنه أعم، ولعلمهم أن المدينة عادة ما تشتمل على الأسواق، وهو أيضا من باب إطلاق الكل على الجزء، والمدينة هي أفسس، وكان لها أجزاء كثيرة منها دكاكين الباعة.³

وتدل الآية أيضا أنهم كانوا يستعملون النقود - الفضية - في المبادلات التجارية عوض المقايضة التي رأيناها في قصة يوسف عليه السلام إذ كانوا يقايضون بضاعتهم بالطعام وهو ما يعكس فترات زمنية مختلفة، وهي دلائل واضحة يمدنا بها القرآن الكريم في محاولتنا التعرف على ما كانت عليه الأمم السابقة، استجابة لأمره بالتبصر في آيات الأمم السابقة.

وإن كانت المدن تحتوي أسواقا، فإن بعضها المدن قد خصّصت يوما خاصا للسوق، كما هوشأن الناس اليوم وهوشأنهم في القرون الماضية ومن الآيات التي تدل على هذا التوجه قوله تعالى: " قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ " .

ب. وجود الحاكم:

لا يمكن أن نتصور تجمعات حضرية دون حاكم يدير شؤونها ويرجع إليه اتخاذ القرارات الهامة، وتنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وإقامة العدل ورعاية المصالح العامة وسن القوانين المختلفة. وقد دلت التفاسير المختلفة للقرآن، أن كل المواضع التي أطلق عليها لفظ المدينة كان يقوم على إدارتها حكام وملوك ويوجد بها مؤسسات قضائية ودينية وإدارية وسياسية.⁴

¹ سورة كهف، الآية 19.

² محمد بن احمد كنعان: خلاصة تفسير ابن كثير، ط1، مؤسسة المعارف، بيروت، 1997، ج4، ص375.

³ الطاهر بن عاشور: مرجع سابق، ج15، ص285.

⁴ ناجي عبد الجبار: مرجع سابق، ص18.

قال تعالى: " وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ...¹ فمن أهم مميزات المدينة في القرآن، وجود الحاكم، أما القرى فغالبا لا تحتاج إلى حاكم، وإنما تخضع القرية لنفوذ القبيلة أو شخص كبير في القرية، لهذا نجد أن القرآن حين يتحدث عن أهل الطائف ومكة يقول: " لَوْلَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ "، فوصف الرجلين بالعظمة ولم يثبت لهما صفة الحاكم أو الملك.

وحاكم المدينة في القرآن يحتاج إلى أعوان ومساعدين، إذ لا يستقيم أمر الملك إلا بوجود المستشارين والوزراء والحجاب ورجال الدولة، ونحن في هذا الموضوع نتحدث عن وجودهم فقط ولا نخوض في فعاليتهم كالإيمان والصدق ونحوه.. وورد في نفس القصة من سورة يوسف " وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ "² والملا هم السحرة والمستشارون، ودلت الآيات القرآنية أن في مدينة مصر كان الفرعون قد اتخذ هامان مستشارا قال تعالى: " فَأَوْقَدَ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ "³

وهو يخاطب مقربيه ومستشاريه قائلا: " وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي "⁴

ويتكرر الأمر في قصة سليمان وبلقيس، فقد دلت الآيات أن سليمان قد اتخذ مقربين من الجن يكلفهم بأولويات الأمور: " قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ "⁵

وبلقيس حين يسقط بين يديها كتاب سليمان فإنها لا تجزم أمرها وتقرر بمفردها وهي الملكة، بل تستشير مقربيه ومستشاريها قائلة: " قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ

* سماه القرآن ملكا لأن مصر كانت تحت حكم الهكسوس، من 1900 ق م إلى سنة 1525 ق م (التحرير والتتوير، مرجع سابق، ج 21، ص 280).

¹ سورة يوسف، الآية 43.

² سورة يوسف، الآية 43.

³ سورة القصص، الآية 38.

⁴ سورة القصص، الآية 38.

⁵ سورة النمل، الآية 38.

كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ¹.

ج. وجود المرفأ:

ومن خصائص المدينة في القرآن أن توجد على البحر أو على نهر كبير. وهذا شأن المدن منذ القديم، فكثير من الحضارات إنما نشأت على ضفاف الأنهار أو منابع المياه، ذلك أن البحر سمح لها باتخاذ المرفأ التي تسهل عملية التبادلات التجارية ونقل البضائع والتجار، كما تسهل عملية تنقل الأشخاص، ونماذج المدن التي تحتوي المرفأ ورد ذكرها في القرآن أكثر من مرة.

قال تعالى: "وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"²

والمراد بالقرية هنا المدينة، إذ لا تسمى قرية من كانت حاضرة البحر، وهذا يدل على اشتمالها على المرفأ ترده السفن محملة بالسلع والبضائع³.

وقال تعالى: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ"⁴ (112) فالقرية التي يأتيها رزقها من كل مكان يفهم منها أنها المدينة الميناء حيث التجارات الواردة من كل جهة⁵.

د. وجود الأسوار والأبواب:

والأسوار والأبواب تميز الكثير من المدن في القرآن الكريم فكثيرا ما يذكر أبواب المدن، والأبواب تدل على وجود الأسوار وهوشأن أغلب المدن، إذ يحرص أصحابها على تحصينها مخافة هجوم الأعداء، ومن أجل الحفاظ على الإستقرار وأمن الناس فيها. والمدن المحصنة تفتح أبوابها في النهار، فيقوم عليها الحراس والجند

¹ سورة النمل، 29، الآية، 30، 32.

² سورة الأعراف، الآية 163.

³ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 64.

⁴ سورة النحل، الآية 112.

⁵ عبد الجبار ناجي: مرجع سابق، ص 64.

يراقبون حركة الدخول والخروج، فإذا جاء الليل أغلقت على أصحابها، ومنع الغرباء من الدخول أو المبيت فيها. قال تعالى: "لَا يِقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ" (14)¹ وقال أيضا: "هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ" ² والمقصود في الآية هم اليهود ونحن لا نقصد أن اليهود كانت لهم مدن ضخمة ولكننا أحببنا الاستدلال بهذه الآيات لإثبات شيوع ظاهرة التحصن بالأسوار في القرآن الكريم. ولعل الآية التي سنذكرها لاحقا أشد دلالة على تحصن المدن الضخمة بالأسوار قال تعالى: " وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ" ³ والأبواب هي أبواب مدينة منفيس، وكانت من أعظم مدن العالم، وهي ذات أبواب⁴.

وهذا يدل على أن مدينة يوسف عليه السلام كانت مشتملة على عدة أبواب، ولو افترضنا أن اخوة يوسف دخل كل اثنين من باب واحدة لكان عدد أبواب المدينة ثلاثة أبواب على الأقل .

وذكر بعض المفسرين أن يعقوب عليه السلام أمرهم بالدخول من أبواب متفرقة لكي لا يلتفتوا انتباه الحراس الموجودين على مداخل المدينة، لأن شأن الحراس أن يقفوا على أبواب المدينة⁵

وهذا ما يعني أن هذه الأبواب كانت محروسة، وهذا أمر منطقي فشان الملوك الاحتياط واخذ الحيطة والحذر وخاصة في الأوقات العصيبة.

وقال تعالى: " وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا" ⁶ والمقصود بأهلها كما يذكره المفسرون، العسس أو الحراس.⁷

¹ سورة الحشر، الآية. 41

² سورة الحشر، الآية 2.

³ سورة يوسف، الآية 76.

⁴ الطاهر بن عاشور: مرجع سابق، ص 4.

⁵ الطاهر بن عاشور: المرجع السابق، ج 13، ص 20، 21.

⁶ سورة القصص، الآية 15.

⁷ أبو علي الفضل الحسين: مجمع البيان في تفسير القرآن، مكتبة الحياة، بيروت، مج 5، ص 272.

هـ. اتساع رقعة المدينة:

ومما يميز المدينة عن القرية اتساع رقعة المدينة، بخلاف القرية فلا يمكننا أن نطلق مصطلح المدينة إلا إذا كانت مساحتها معتبرة، ، ومما يؤكد هذا القول ما ورد في موضعين من القرآن الأولى في قوله تعالى: "وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21)"¹ والمدينة هي مصر، وهذا يدل على ترامي أطراف المدينة، فالقرآن يطلق عليها اسم المدينة أولاً، ثم يصفها بالاتساع في سياق إخباره عن سعي الرجل من أطراف المدينة، قال الصابوني جاء هذا الرجل من أبعد أطراف المدينة².

ولاشك أن كل تجمع حضري توجد به مؤسسات ومرافق حكومية تساهم بشكل أو آخر في تسيير شؤون هذه المدينة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. ومن هذه المرافق التي سنعرض لها باختصار وذلك لعموم ذكرها في القرآن الكريم.

1- خزائن الدولة: وخزائن الدولة مثل ببيت المال في الحضارة الإسلامية، أو ما

يعرف لدينا بخزينة الدولة وقد ورد ذكر الخزائن في قوله تعالى: "قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ"³ وذكر ابن عاشور في تفسير هذه الآية أن المراد بخزائن الأرض، هي خزائن الأموال إذ لا يخلو سلطان من خزائن معدودة لفوائد بلاده، وليس المقصود الخزائن التي زادها يوسف لتخزين الأقوات⁴.

2- السجن: وورد ذكر السجن أيضاً في قصة يوسف عليه السلام:

"وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ"⁵ وقال أيضاً: "لئن اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ"⁶.

¹ سورة يس، الآية 20.

² محمد علي الصابوني: مرجع سابق، ج 2، ص 10.

³ سورة يوسف، الآية 55.

⁴ الطاهر بن عاشور: المرجع السابق، ج 13 ص 8.

⁵ سورة يوسف، الآية 36.

⁶ سورة الشعراء، الآية 29.

3- المسجد: والمراد بالمسجد هنا دور العبادة سواء كانت دور العبادة اليهودية أو النصرانية، وتعتبر أماكن العبادة من أهم المرافق التي تحتوي عليها المدينة ولو كانت هذه الدور للعبادات الوثنية، ومن أهم النصوص التي تدل على اعتياد الناس بناء المعابد ما ورد في قصة أصحاب الكهف " وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمُ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا (21) " ¹

2. إرتباط العمارة في القرآن بالأخلاق.

حين نتتبع الآيات القرآنية التي تحدثت عن الجانب المعماري وخاصة في قصص الأنبياء، فإنها تشدنا حقيقة ثابتة، وهي أن أغلب هذه الآيات تربط التطور المعماري بالعقاب الإلهي، والأمر الثاني الذي يشد إنتباهنا أن أغلب هذه الآيات تدعونا إلى الإعتبار بما جرى لهذه الأقوام.

فالله عز وجل يأمرنا في كتابه العزيز بضرورة السير في الأرض وتعقب أخبار الأمم السابقة والنظر إلى ما حل بهامن عقاب، نظره إعتبار وحذر، فنحن مطالبون بالإفادة من هذه الأخبار.

لقد خلفت الأمم السابقة أنماطا معمارية ضخمة، ومع ذلك فقد حل بها عقاب الله عز وجل، فنتساءل هل الأمر مرده إلى هشاشة بنائها؟ أم هو أمر آخر؟ والجواب أن هذه العمائر لما تجردت من رسالتها الحضارية وتحولت إلى مجرد محلات للفساد، وتخلق أصحابها بأخلاق السوء وتركوا الأخلاق الإيمانية، فإن هذه المباني لم تغن عنهم شيئا، فإلهلاك إنما هونتيجة حتمية لفقدان هذا العمران للمنطقات والضوابط الشرعية².

وقد ذكر لنا القرآن الكريم من قصص عاد وثمود وفرعون ما يكفينا لاستخلاص أسباب التي أدت إلى إهلاك هذه الأمم، والأمر واضح، فالعقائد الفاسدة والثقافات البالية والأخلاق الساقطة التي كانت متمسكة بها هذه الأمم أدى إلى خراب عمرانها.

¹ سورة الكهف 21.

² محمد عبيد حسنة: مقدمة كتاب تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، خالد عزب، كتاب الأمة وزارة الأوقاف ط1

1997 ص 33.

فالعامة إن لم تكن تستجيب للضوابط الشرعية والأخلاق الإيمانية محققة لشروطها الوظيفية، فإنها ستكون فاقدة لروحها فاقدة لهويتها الحضارية وبالتالي فإنها لن تؤدي رسالتها الحضارية، فتصير العمارة مجرد مغارات يأوي إليها أصحابها، تفهم حر الصيف وبرد الشتاء.

والقرآن بهذا يحمل رسالة واضحة للفرد المسلم بصفة عامة وللبناء بصفة خاصة، فهو حين يبني يجب عليه أن يراعي خصوصية المجتمع الإسلامي و يراعي تعاليم دينه، ويراعي عاداته وتقاليده، فتأتي تصميماته وتشكلايته ملائمة للحياة الاجتماعية والثقافية داخل المجتمع الإسلامي، ولا يكتفي بمجرد نقل أعمى لتصاميم ومخططات ذات أبعاد ثقافية واجتماعية مخالفة لعادات وتقاليده المجتمع الذي كلفه بالبناء، لأن البناء في أي مجتمع ما وخاصة إذا كان مجتمعا عربيا له وظيفته الاجتماعية، ورموزه الثقافية وموروثاته المتعددة، وهذا الطراز المعماري أوداك قد يجعلك تابعا لمنظومة فكرية جديدة تختلف عن منظومتك الفكرية، وبالتالي فستجد نفسك أمام مجموعة من السلوكيات مخالفة لدينك وعاداتك وتقاليديك، ولعل أفضل مثال على ذلك ما نعيشه اليوم ضمن سيطرة النموذج السكني الأجنبي، وهو ما يعرف بالعمارة، فزيادة على أنها لا يحترم خصوصياتنا، فإنه مع مرور الوقت سار يأسرنا في منظومة فكرية إجتماعية وثقافية جديدة.

وإذا عدنا إلى تتبع آيات القرآن التي تحدثت على تطور العمران وربطته بالهلاك والخراب نتيجة التحول عن المسار الإيماني، ولكن قبل ذلك لابد من ذكر نقيض هذه القضية فالأمم التي حافظت على مسارها الإيماني بمفهومه الواسع، لم تتعرض لنفس النتيجة التي تعرضت لها الأمم السالفة الذكر.

فقد بلغ التطور المعماري في مملكة النبي سليمان ذروته ولما كان مرتبطا بالصلاح مبتعدا عن الفساد فإن السياق القرآني لم يحدثنا عن هلاك أمة سليمان قال تعالى: " يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ " ¹ وقال في سورة النمل وهو يصف ما كانت عليه ملكة بلقيس من تطور حضاري قال تعالى: " إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ " ¹

¹ سورة سبأ، آية 13.

فلوأن أهل بلقيس ظلوا على ما كانوا عليه من زيغ إيماني وعقيدة فاسدة ولم يتحولوا إلى المسار الإيماني الذي يرتضيه الله لمسهم العذاب ولخربت مدينتهم، وهذا ما يؤكد القرآن على لسان بلقيس "إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ"²

أما الآيات الدالة على خراب العمران بسبب مخالفة أوامر الله عز وجل وترك الشكر فكثيرة وسنعرض هنا بعض النماذج الاستدلالية.

سورة الشعراء: قال تعالى: "أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ"³

والريع هو المكان المرتفع فقد كانوا يبنون فوق المرتفعات بنيانا يظهر من بعيد كأنه علامة ولم يكن قصدهم هداية السبيل ولكن كانوا يفعلون ذلك تفاخرا وتطاولا، لهذا وصفه الله عز وجل "بالعبث" ولوكان هذا البنيان للسكنى وهداية المارة لما قال فيه "تعبتون"⁴.

وهذا توجيه من الله عز وجل للإنسان لأن يسخر عقله وجهده وبراعته وماله في العمل إلى ما هو نافع وضروري لنفسه وغيره. أما إن كان من أجل الاسراف وإظهار البراعة لا غير فإنم هذا مما يمقته الله.

ولقد بلغ قوم عاد من التقدم الحضاري والمعماري أنهم كانوا يتخذون المصانع لنحت الجبال وبناء القصور، وكانوا يفعلون ذلك معتقدين أن هذه القصور على المرتفعات ستدفع عنهم الموت وتحميهم من مؤثرات الطبيعة، ومع ذلك فهم عتاة غلاظ جبارون⁵.

فالقرآن الكريم لا ينكر عليهم البناء لمجرد البناء، ولكنه ينكر عليهم ترك شكر الله الذي علمهم هذه الصناعة.

¹ سورة النمل آية 23.

² سورة نمل آية 34.

³ سورة الشعراء الآية 128 129

⁴ سيد قطب: في ظلال القرآن، ط، 11 دار الشروق، مجلد 6 ص 2610.

⁵ نفسه، 2605.

وفي الآخر يحدثنا القرآن عن نهاية مسار كل تحول عن النهج الرباني لأي شعب من الشعوب، وهذا المسار تربطه الآية الكريمة بما عبرت عنه بالبناء والمصانع مقترنا بالبطش والغرور والجحود لأنعم الله. ولو أن أهل عاد التزموا بالقيم الانسانية الفاضلة والأخلاق الايمانية لما حل بهم الهلاك.

ثم يتكرر الأمر مع قوم صالح في نفس السورة: " أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَرُزُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَتَّحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ " ¹ وقد كانوا يعيشون بالحجر بين الشام والحجار ولقد مر الرسول صلى الله عليه وسلم بديارهم عند نهاية غزوة تبوك.

وكانوا يعيشون في متاع كبير لدرجة أنهم نحتوا بيوتهم في الجبال، ومع ذلك فقد كانوا في غفلة من شكر الله على ما آتاهم من نعم، أوحى التفكير فيمن وهبهم هذه النعم ولا يتدبرون منشأه ومآته ².

فالتطغيان مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفساد، فالتطغيان يفسد الطاغية كما يفسد العلاقات والارتباطات الاجتماعية والسياسية وغيرها فتتحرف الحياة عن خطها السوي الذي إرتضاه الله للناس، فيتحول الإنسان عن خط التعمير والبناء والاصلاح في الأرض، وعن نهج البناء والاستخلاف، فتتطم الموازين والقيم الحضارية، وتتعدم التصورات المنتجة لتحل موضعها التصورات البشعة ³ فيسعى الإنسان إلى الفساد بكل جهده وهدفه وغايته أن لا يستقيم أمر أحد ولا يصلح حال أحد.

ولكن لما يؤول حال الأمة إلى هذه الحال من كثرة الفساد وقلة الاصلاح ترى ماذا يكون الحل؟ إنه لا شك تطهير الأرض من هذه الأمة الفاسدة واستخلافها بأمة جديدة تسعى للاصلاح.

¹ سورة الشعراء، آية 149.

² سيد قطب: مرجع سابق، مج6، ص 2611.

³ سيد قطب: مرجع سابق، مج6، ص 3904.

إن ترك الشكر وبطر النعمة هو سبب هلاك القرى، وقد آتاهم الله من النعم الشيء الكثير والأمر مضطرد ومتكرر فكل من كفر النعمة وترك الشكر حل به العقاب.

3. بناء المساجد

ومن مظاهر اهتمام القرآن الكريم بالعمارة دعوته في عديد من الآيات إلى بناء المساجد وعمارتها والثناء على من فعل ذلك ونسبه المساجد إلى الله عز وجل وتسميتها بيت الله وفي هذا من التشريف لها مالا يغيب على صاحب عقل وإن كان الله قد أتى على بناءها وعمارها فإنه ذم من سعى في خرابها ودمارها.

ومن اهتمام القرآن بالمساجد تكرار ذكرها عدة مرات في القرآن فقد ورد ذكر لفظ "المسجد" اثنان وعشرين مرة وورد ذكر بين الله الحرام وهو أول مسجد يوضع للناس سبعة عشر مرة كما ورد ذكر المسجد باسم بيت الله مرة واحدة.

قال تعالى في تعظيم شأن من يعمر المساجد: " إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ¹"

وقال في ذم من منع من عمارة المساجد " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ²"

والله عز وجل لم يطلب من المسلم أي فعل بنائي باستثناء عمارة المساجد فقد أذن أن ترفع المساجد باسمه، وفي هذا دليل قاطع على وجوب بناء المساجد وهو من باب الخبر الذي يفيد الوجوب قال تعالى: "فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ³"

¹ سورة التوبة، الآية 18

² سورة البقرة، الآية 144.

³ سورة النور، آية 38-63.

وكلمة ترفع فيه دلالة على تعظيم البناء فالرفع أبلغ في الدلالة من البناء ولهذا لما ذكر الله عز وجل أمر بناء بيته الحرام استعمل لفظ "الرفع" بدل البناء للتعظيم من شأنه وتفضيله على سائر المساجد " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ¹ " والمسجد بخلاف كل المرافق الأخرى في المدينة الإسلامية لا يجوز لأحد أن يمتلكه لا ببيع ولا شراء أو بناء فهو ملك لله، ويلحق بهذا استعماله في أوجه الحياة اليومية المختلفة فهو موقوف على الصلاة وعبادة الله عز وجل.

4. عملية البناء:

وتحدث القرآن الكريم في مواضع عديدة عن عملية البناء محددًا أهم المقاييس التي تقوم عليها، وبطبيعة الحال فإن طبيعة البناء تختلف باختلاف المنشأة التي نريد إقامتها قد تختلف بذلك كيفية البناء فإذا كان المقصود بناء بيت تحدث الآيات عن الرفع وإذا كان الأمر إنشاء قصر في الصخر استعملت الآيات مصطلح "النحت"، وتستعمل الآيات مصطلح الردم إذا تعلق الأمر باتخاذ السدود قال تعالى: "قَالُوا يَا ذَا الْقُرْآنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا"².

وعند بناء الكعبة من طرف اسماعيل وإبراهيم: "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم"³.

فالآية صريحة في أن البناء عموماً لا بد له من أساس يقوم عليه وهذا من أهم قواعد البناء، فكل بناء لا يتخذ له أساساً فهو مهدد بالزوال وتشير التفسير أن نبي الله إبراهيم حين بنى القواعد من البيت ووصل إلى جزء لا يصله اتخذ مصطبة يوم عليها

¹ سورة البقرة، آية 127.

² سورة الكهف، الآية 94-95.

³ سورة البقرة، الآية 127.

- وهي المسماة مقام إبراهيم - فكان إسماعيل يناوله الحجر وإبراهيم يتولى عملية البناء "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى".¹
وقال تعالى: "وأذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتتحتون من الجبال بيوتا فأذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين".²

فإنه يَمَن عليهم أن هياً لهم السهول ليتخذوا عليها القصور ولفظ "تتخذوا" توحى بالبناء والتشييد ولم يقل مثلاً "تتحتوا" لأن المصطلح لا يتلاءم وإقامة القصور، ولما تحدث عن اتخاذ المساكن داخل الجبال استعمل مصطلح "النحت" لأن الجبال قائمة لا تحتاج للبناء ويقوم ساكنها بنحتها لما يتماشى مع هيئة المسكن الذي يريد أن يتخذه.
والآيات القرآنية تحدد لنا بدقة متناهية تقنيات البناء والمواد المستعملة من البيت وأول هذه التقنيات وأهمها هي إقامة الأسس، أو ما يسميه القرآن بالقواعد وإقامة القواعد والأسس أمر بالغ الأهمية في عملية البناء، وأي تهاون فيه قد يؤدي إلى سقوطه "قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ" (26).³

والرفع يوحى لنا بالمادة المستعملة وهي لا شك من الحجارة أو الطوب أو كل مادة بناء لا يستطيع الإنسان حملها ورفعها.⁴
ومن تقنيات البناء إقامة الأعمدة والدعامات "الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها"،⁵ فمن دلائل عظمة الله أنه خالف ما عليه عادة الناس من إقامة الأعمدة تحمل الأسقف فأقام السماء من غير أعمدة ودعامات فوجه الإعجاز أنه رفع السماء من غير

¹سورة البقرة، الآية 125.

²سورة الأعراف، الآية 74.

³سورة النحل، الآية 26.

⁴إسماعيل التومي: العمارة والعمران في ظلال القرآن، بيت المعماريين العرب، طبعة الكترونية،

www.arch.arab.org.

⁵سورة الرعد، الآية 02.

ما ألفه الناس، وفي هذا تنبيه للإنسان إلى ضرورة اتخاذ الأعمدة والدعامات حتى لا يخر السقف عليه.

فإذا أقام الباني القواعد والأعمدة فإنه يبقى له أن يقيم السقف ليقيه من حر الصيف وبرد الشتاء ويظهر هذا في قوله تعالى: "وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ" (33).¹

وفي قوله تعالى: "قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ" (26)² فضعف الأساسات مؤذن بسقوط السقف.

فإن بنى الإنسان سقفه وأقام بناءه احتاج إلى سلام ليرتقي بها فوق سطحه ولاشك أن السلام هي ما يصطلح عليه القرآن "المعارج".

ومن تقنيات البناء التي تيسر الاستفادة من البيت أو المسكن هي اتخاذ الأبواب فهو معد للولوج والخروج وللستره ولإدخال الهواء والضوء قال تعالى: "وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكُونُونَ" (34).³

فإن تم للإنسان اتخاذ البيت الملائم فإنه يحتاج دائما لإقامة الحدائق وغرس أشجار الفواكه فيزيد مسكنه بهجة وينتفع بشجر حدائقه، وصورة الحدائق الغناء ذات الظلال الوافرة والمياه المنسابة كثيرة في القرآن نذكر منها ما يخدم هذا البحث، وهي ما وردت في قوله تعالى: "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ"⁴. ففي الآيات إشارة إلى عامل بيئي وهو ضرورة إدماج المساحات الخضراء في المحيط لتزيين البيوت.

¹سورة الزخرف، الآية. 35

²سورة النحل، الآية. 26.

³سورة الزخرف، الآية. 34.

⁴سورة سبأ، الآية. 15.

5. مواد البناء :

يذكر القرآن الكريم عدة مواد استعملها الإنسان في البناء قرنهما بكيفية استخدامها لتحقيق الهدف منها ونذكر من هذه المواد.

1/ الحديد: ورد ذكر الحديد كمادة بنائية في قوله تعالى: "وأنزّلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره".¹ كما ورد ذكر الحديد في قصة ذي القرنين لما بني السد قال تعالى: "آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا".²

2/ الزجاج: ونعثر على ذكره في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس "قيل لها أدخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير".³

3/ الطين: وتشير نصوص القرآن الكريم إلى أن المادة الإنشائية عرفها الإنسان منذ غابر العصور واستعملها في بناء مساكنه.

قال تعالى: "وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين".⁴

ولا تكف الآيات بالإشارة إلى الطين كمادة إنشائية بل تبين لنا طريقة صنعه عن طريق الخلط والتسخين.

¹ سورة الحديد، الآية 25.

² سورة الكهف، الآية 96.

³ سورة النمل، الآية 44.

⁴ سورة القصص، الآية 38.

6. أثر تحويل القبلة في العمارة الإسلامية:

ظل رسول الله (ص) يصلي إلى بيت المقدس، وهي قبلة اليهود حوالي سبعة عشر شهرا، وكان رسول الله إذا صلى إليها جعل بينه وبينها الكعبة.¹ وحين هاجر إلى المدينة ظل يتوجه إلى بيت المقدس أيضا ويظهر أن رسول الله كان راغبا عن هذه القبلة، وكان يريد التوجه إلى الكعبة ويريد أن يتميز عن اليهود لكرهته تقليدهم. ويضاف إلى هذا الأمر أن الكعبة بناها إبراهيم الخليل وولده إسماعيل، وإليه يرجع نسب نبينا الكريم، فكانت لذلك أحب البقاع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم- ومن هنا ظهرت هذه الذاتية الإسلامية، متمثلة في إرادة الرسول التوجه إلى الكعبة.

وجاء النص القرآني استجابة لرغبة رسول الله (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.)².

وكان لهذا النص القرآني بالغ الأثر في مجال العمارة الإسلامية سواء الدينية أو المدنية، وكان أول الأماكن تأثرا المسجد النبوي في المدينة المنورة، فقد نتج عن هذا النص تغيير جدار القبلة لينتقل إلى الجهة الشرقية بعدما كان متجها إلى جهة الغرب، كما تغير مكان الظلة التي أنشأها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتغيرت كذلك مداخل المسجد النبوي، فقد قام رسول الله بسد الباب الذي كان موجودا في الجهة الجنوبية من المسجد، ونقله إلى الجهة الشمالية التي صارت مؤخرة المسجد بعد أن كانت مقدمته، فجهة القبلة يفترض فيها أن لا تشتمل على أبواب لأن رسول الله كان لسبب في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور (قد نهى الناس من المرور بين يدي المصلي).

¹- ابن الأثير: مصدر سابق، ص 80.

²- سورة البقرة، آية 144.

وحين غير رسول الله ﷺ القبلت كان عليه أن يغطي الجزء الذي يصلي فيه الناس لحمايتهم من حر الشمس ومياه الأمطار، فصار للمسجد النبوي ظلتين بعد أن كانت له ظلة واحدة، وأصبح وسطه غير مغطي ولاشك أن فكرة الصحن ظهرت منذ هذه اللحظات، وأصبح تقليدا شائعا في كل المساجد الإسلامية. ومن مظاهر تأثير هذا النص في عمارة المسجد هو الاتساع الذي يعرفه جدار القبلة، والذي يهدف أساسا إلى توفير مساحة كبيرة يقف فيها أكبر عدد ممكن من المصلين لحرمة الصف الأول.

وعند بناء المدارس فإن المهندس يأخذ في اعتباره جدار القبلة بحيث لا يتعارض مع تخطيطها العام، فيكون أحد جدرانها المنتظمة يقوم مقام القبلة،¹ كما تحتوي المدرسة في الغالب على مصلى للطلبة.

ولم يؤثر تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة في العمائر الدينية فقط، بل انتقل تأثيره ليشمل المباني المدنية كالمساكن ونحوها، فلا يزال الناس في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يحترمون اتجاه القبلة، ففي منطقة آسيا الوسطى يجعلون محاربا في الغرف الرئيسية كغرف الجلوس، واعتاد الناس ترك النوم وأرجلهم باتجاه القبلة، ولا يبنون المراحيض متجهة إلى الكعبة المشرفة.²

ونتساءل هنا لماذا وجه الله المسلمين إلى بيت المقدس قبل التوجه إلى الكعبة؟ ويظهر مما ذكره المفسرون أن الله عز وجل أراد أن يتميز المسلمون عن غيرهم، وأن يتركوا تقليد ما كانت عليه الأمم البائدة، ولكن قبل ذلك أراد لهم أن يتخلصوا من كل ارتباط جاهلي، ولو كان هذا الارتباط بالكعبة، وخاصة أن الكعبة كانت لها مكانة عظيمة في نفوس أهل الجاهلية، فلما صرفهم عنها، وعلم أن ولاءهم وإخلاصهم له دون غيرها صرفهم إلى التوجه إليها.

ونتساءل مجددا: لماذا الكعبة؟

إن الإنسان بطبعه يميل ميلا فطريا إلى اتخاذ جملة من الأشكال الظاهرة للتعبير عن مشاعره الباطنية، وهي لا تجد الراحة النفسية حتى تتخذ شكلا ظاهرا تدركه

¹ - غازي رجب محمد: مرجع سابق، ص 133.

² - يحي وزيري: مرجع سابق 200، ص 41.

الحواس، ليعبر عن ما بداخل الإنسان، وهذا الشكل حين تراه النفس تطمئن إليه، وتجد قابلية لجنوحها إلى الأسرار والمجاهيل، وجنوحها إلى الأشكال المختلفة، فلا شك إذا أن المسلم حين ينظر إلى الكعبة يجد من هذه الراحة التي نتحدث عنها الشيء الكثير، فتستقر هواجسه، وانطلاقاً من هذا المبدأ النفسي أقام الإسلام شعائره فلا تتم الصلاة إلا بالتوجه إلى الكعبة، ولم يكن اختيار القبلة شيئاً من باب الصدفة أو التعصب، فهي البيت الذي أقام أساسه إبراهيم الخليل، وهو مكان تقدسه العرب، والمكان الذي ولد وتربى فيه رسول الله ﷺ عليه وسلم.

ومع ذلك فيوجد سبب آخر يجعل من الكعبة قبلة للناس، وهو سبب لا يقل أهمية عن سابقه.

فلقد قصد الإسلام إلى تمييز المكان الذي يتجه إليه المسلمون، كي يتميزون في تصورهم ومنهجهم، وهو أمر مرتبط بالامتياز وتفوق الإسلام عن غيره من الديانات مما يؤكد ضرورة تمييز المسلم وشعوره بالامتياز والتفرد.¹

ولا يمكن للمسلم أن يحقق هذا التمييز والتفرد وهو يقلد تارة اليهود وتارة النصارى، وقد نهى رسول الله ﷺ عليه وسلم في مواضع كثيرة المسلم أن يتشبه باليهود أو النصارى.

¹ - سيد قطب، مرجع سابق، ص 129.

ثانياً: العمارة في السنة

لا يمكننا من خلال هذا البحث، الإمام بجميع النصوص النبوية التي عالجت مجالات العمران، فقد وردت أحاديث كثيرة، تحدث فيها النبي عن مجالات مختلفة متعلقة بفقهاء العمران، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ولا يمكن التطرق لهذه الأحاديث بصفة منفردة لأن الأمر سوف يطول، فنخرج بذلك عن المقصود.

ويمكن أن نقسم السنة النبوية في مجال البناء إلى ثلاثة أقسام هامة.

• السنة الفعلية: ومن ذلك بناء الرسول ﷺ للمسجد النبوي والمساهمة في بنائه، ومنها أيضاً بناء غرف أزواجه.

• السنة القولية: وهي ما صدر عن رسول الله ﷺ من أقوال تعالج موضوع البناء.

• السنة التقريرية: وهي ما صدر على زمن رسول الله ﷺ دون أن ينكر على الصحابة فعله، ومن ذلك أنه لم ينكر عليهم اتخاذ البيوت والمنازل. ونحاول في هذا الجزء من البحث أن نتعرض لبعض نصوص السنة التي عالجت الكثير من أمور فقهاء العمران، والتعرف على سياسة رسول الله ﷺ في مجالات البناء، وعن الأبعاد الأساسية للعمارة الإسلامية من خلال السنة النبوية. وسنتعرض لدراسة هذه الأحاديث من خلال جملة من المواضيع، أي من خلال مجموعة من العناوين نحاول أن نضمناها أكبر عدد من الأحاديث التي تصب في نفس الاتجاه.

وجملة هذه العناوين هي:

تأثير حديث الضرر في مجال فقه البنين.

الطريق في السنة النبوية.

حقوق الجوار.

زخرفة المساجد.

البناء قدر الحاجة.

1. تأثير حديث الضرر على البيئة العمرانية:

نظرا لأهمية هذا الحديث في مجال العمران، فإننا سنحاول إفراده بعنوان خاص به، وهذا الحديث يعتبر قاعدة هامة في فهم وتفسير الكثير من أقسام العمران. فقد كان لهذا النص النبوي دورا هاما في صياغة فقه العمران الإسلامي من حيث السيطرة على تصرفات الفرق المتجاورة، ثم حل النزاعات العالقة بينهم.

ورجع إليه الفقهاء في فتاويهم المتعلقة بأحكام البناء وغيرها، فأفتوا بوجوب إزالة الضرر أيا كان نوعه ومصدره، كما رجع إليه القضاة عند إصدار أحكامهم عند الفصل بين المتخاصمين في قضايا العمران خاصة فيما تعلق برفع الضرر الواقع على أحد الخصمين.

وهذه محاولة في بيان معنى الحديث، من خلال إعطاء شرح العلماء لمادة الحديث، مع تحديد وضبط لما يدخل تحت كلمتي ضرر وضرار، ثم سنعطي عن كل حالة أمثلة ونماذج من فتاوي الفقهاء وأحكام القضاة التي اعتمدت هذا الحديث.

ونص الحديث كما رواه "أبوسعيد الخذري": "قال رسول الله (ص) " لا ضرر ولا ضرار".¹

قال ابن رجب الحنبلي: "الضرر أن يدخل على غيره ضررا بما ينتفع هو به، أما الضرار فهو أن يدخل على جاره ضررا لا منفعة له به. وقيل الضرر أن يضر بمن لا يضره، والضرار أن يضر بمن قد أضر به على وجه غير جائز".²

قال الشوكاني*: "والضرر أن تضر غيرك وتتفع أنت، وما فيه ضرر على غيره لبناء مرحاض في ملكه عند جدار غيره، فيؤثر على حائط الجار، أما الإضرار فما قصد به إضرار غيره بداية كفتح نافذة لا حاجة له فيها، تطل على بيت جاره".³

¹ - ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، ج1، ص 212.

² - نفسه، ص 212.

* - الشوكاني: محمد بن علي الشوكاني، ت 250هـ.

³ - الشوكاني: نيل الأوطار شرح مستقر الأخبار، مكتبات الكليات الأزهرية، مج 6، 5، ص 200.

قال ابن حبيب* "الضرر والضرار كلمتان بمعنى واحد، ووردتا تأكيدا في المنع. وقد يأخذهما تصريف الإعراب، فالضرر هو الاسم، والضرار الفعل، فقوله: لا ضرر أي لا يدخل على أحد ضرر وإن لم يتعمده، وقوله لا ضرر أي لا يضر أحد بأحد.¹ وقال محمد بن عبد السلام القرطبي: الضرر هو مالك فيه منفعة، وعلى جارك فيه مضرة، والضرار ما ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه مضرة.² قال الباجي: "يحتمل أن يريد بقوله لا ضرر أي لا ضرر على أحد، بمعنى أنه لا يعزمه الصبر عليه، ولا يجوز له إضرار بغيره، وقال غيره، الضرار أن تضر نفسك لتضر بذلك غيرك.³ والمراد بالحاق الضرر أمرين:

الأمر الأول: أن لا يكون للإنسان في فعله منفعة وفيه لجاره مضرة ويتفق الفقهاء على تحريم هذا النوع من الإضرار. وقد ورد في القرآن النهي عن الإضرار قال تعالى: ﴿من بعد وصية يوصي بها أودين غير مضار﴾.⁴

الأمر الثاني: أن يكون للإنسان في فعله منفعة وعلى جاره مضرة وهذا الأمر فيه تفصيل. فإن كان الإنسان يتصرف في ملكه بما اعتاد الصدور منه من أفعال، فإن العلماء قد اختلفوا، هل يمنع من فعله أم لا؟
الرأي الأول: ويرى أصحاب هذا الرأي أنه لا يمنع صاحب الحق من التصرف في ملكه بأي وجه معتاد شاء، وبالتالي فإنه لا ضمان عليه فيما لحق بجاره من ضرر، وهذا الرأي للشافعي وأحمد وأبو حنيفة.⁵

* ابن حبيب: عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون، ت238هـ.

¹ ابن الرامي: مصدر سابق، ص919..

² - نفسه، ص 200، 199.

³ - محمد بن فرحون المالكي: تبصرة الحكام في أصول الأفضية، ط1، ج4، مكتبة الكليات الأزهرية، راجعه وقدم له طه عبد الرزاق سعد، 198، ص 348.

⁴ سورة النساء. الآية. 12.

⁵ ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق، ص221

الرأي الثاني: وأصحابه يمنعون صاحب الحق، من الإضرار بجاره، ويلزمونه بضمان ما أتلّف بفعله، وهذا الرأي ينسب لاحمد في أحد أقواله ومالك، ومن نماذج هذه الحالة:

النموذج الأول: أن يفتح الرجل نافذة في بناءه العالي، وهي مشرفة على بناء جاره، ولا يسترها، قال الروياني*: "يمنعه الحاكم ذلك وهو يعتمد على حديث لرسول الله نصح: "...ولا يستطيل عليه بالبناء فيحجب عنه الريح إلا بإذنه".²

النموذج الثاني: أن يحفر الرجل بئرا قرب بئر جاره فيذهب بماءها، فإن الحاكم يأمره بردمها في مذهب مالك وهم يعتمدون أيضا على حديث نبوي نصح: قال رسول الله: "لا تضاروا في الحفر، وذلك أن يحفر الرجل إلى جنب الرجل ليذهب بماءه".³

أما إذا كان الإنسان يتصرف في ملكه بما لم يعتد فعله، فإنه يكون بذلك ظالما متعديا، ويجب عليه أن يضمن ما أتلّف بجاره وصورة هذا أن يشعل الرجل نارا في أرضه في يوم صائف تهب فيه الريح، فيؤدي ذلك إلى احتراق محصول جاره أوبيته.

وأيا كان التفسير للكلمتين: فإن الحديث النبوي يدل دلالة واضحة لا تدع للشك مجالا، بأن الشريعة قد نفت كل نوع من أنواع الضرر، فلا ينبغي للمسلم الذي يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلحق ضررا بجاره، ويؤكد هذا المعنى الأحاديث النبوية الواردة في حقوق الجوار، ومنها قوله (ص): "والله لا يؤمن والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله قال من لا يأمن جاره بوائقه".⁴

أنواع الضرر.

يمكننا أن نقسم الضرر الحادث داخل البيئة العمرانية إلى أقسام مختلفة، انطلاقا من مصدره، أو من الفئات المتضررة أو من خلال قصد ونية الجهة التي صدر عنها هذا الضرر، هل قصدت الضرر أم لم تقصده؟

¹ ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق، ص 221

* - الروياني: أبوالمحسن عبد الواحد بن اسما عيل الشافعي، ت 501هـ.

² ابن رجب الحنبلي: المصدر السابق، ص 218.

³ نفسه، ج 1، ص 218.

⁴ ابن حجر: مصدر سابق، ج 10، ص 445.

وتلخيصاً لهذه الأنواع نقسمها إلى قسمين كبيرين وكل قسم يندرج تحته أنواع متباينة.

القسم الأول: وهو الضرر الواقع على النفس الإنسانية، بما يلحق ضرراً مباشراً على الإنسان. وهذا القسم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ- الضرر السمعي.

ب- الضرر البصري.

ج- الضرر الشمي.

القسم الثاني: وهو الضرر الواقع على البناء: إما بطريقة مباشرة أو بطريقة غير

مباشرة.

وقسم ابن الرامي الضرر إلى قسمين: ضرر قديم ومحدث.¹

وذكر ابن فرحون نقلاً عن ابن حبيب: "ووجه الضرر كثيرة وإنما تتبين عند

نزول الحكم فيها، ومن ذلك دخان الحمامات وغبار الأندز وبتن الدباغين".²

أ. الضرر البصري:

وهو الضرر الذي يكون نتيجة لإطلاع الجار أو غيره على محارم جاره، كأن

يفتح نافذة ينظر من خلالها إلى بيت جاره أو سطحه أو فناءه، وهذا النوع من الضرر

اتفق الفقهاء على دفعه، وأوجبوا اتخاذ الأسباب لمنع وقوعه، ذلك أن أعراض الناس

مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، لا يجوز لأحد أن يتعدى عليها، بأي اعتداء كان،

لهذا نجد أن الشريعة الإسلامية منعت الإطلاع على الناس والتجسس عليهم، وتتبع

عوارثهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا﴾³، كما أوجبت الشريعة

الاستئذان عند الدخول، حتى لا تقع أعيننا على ما يكره أصحاب البيت أن نطلع عليه،

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلَّمُوا

¹ ابن الرمي: مصدر سابق، ص 201.

² ابن فرحون: مصدر سابق، ص 352.

³ سورة الحجرات، الآية 12.

عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) ﴿١﴾، وقال رسول الله (ص): " لو أن رجلا اضطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك جناح".²
وإن كان والفقهاء يتفقون على اعتبار هذا النوع من الضرر، إلا أنهم قد اختلفوا في مسألة منع المالك من التصرف في ملكه، كما اختلفوا في إلزامه بإزالة الضرر الطارئ.

فقال الحنيفة: يلزم من كان سطح داره أعلى من سطح جاره، أن يستره، ببناء مصور.

وقال الشافعية: لا يلزم بشيء من ذلك، ولكن يلزمه القاضي أو المحتسب أن لا ينظر إلى حريم جاره.

وقال بعض المالكية: لا يجبر على البناء، ويجبر على عدم الصعود.³
وتماشيا مع أحكام الفقه فإن المعماري المسلم حاول تجنب ضرر الكشف الناتج عن الفتحات والنوافذ دون أن يمنع الجار من التهوية، ودخول الضوء فاتخذ الملاقف والشخشيخة، والمناور السماوية، كما وجدت المراوض في أماكن محددة بعيدة عن حوائط الجيران.⁴

ب- الضرر السمعي:

والضرر السمعي هو الضرر الواقع على سمع الجار، نتيجة لمجموعة من الأصوات يحدثها الجار، فتؤثر بذلك تأثيرا سلبيا على راحته، وتبعد النعاس عن جفنيه، وتسلبه السكينة والراحة، فلا يعرف الراحة على مر أيام الأسبوع، ومثال هذا الضرر اتخاذ المساكن محلات للحدادة أو إسطبلات ونحوه من الحرف التي من شأن أصحابها إحداث الأصوات، وقد يتعدى الضرر السمعي أذن الجار ليلحق الأذى بعقاره كتشقق جدرانه نتيجة الدق المتواصل أو تكسر زجاج بيته.

¹ سورة النور: الآية 27

² الشوكاني: مصدر سابق ج7، ص 26

³ جميل أكبر: مرجع سابق، ص 215.

⁴ خالد غرب: مرجع سابق، ص 49.

وفقهاء الشريعة مختلفون في اعتبار هذا النوع من الضرر، فالمالكية يقرون بضرر المطحنة، وبأضرارها بحوائط الجار، ولكنهم لم يعتبروا الصوت الذي تحدثه من باب الضرر.

وفي المذهب المالكي، إذا ثبت ضرر الاطلاع، فقليل يؤمر صاحب الضرر بسد بابه أونوافذه، وقال ابن الماجشون: "لايلزمه سدها، وللمتضرر أن يجعل دونها مايمنع به ضرر الإطلاع".¹ وروي أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص، بأن "خارجة" بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد "خارجة" أن يطلع على عورات المسلمين، فإذا وصلك كتابي فاهدمها.²

وذكر ابن رشد أن المشهور منع الأصوات مثل الحداد والكماد والنداق، ذلك لأن منعه عن رزقه فيه ضرر أكبر من الذي يقع على السامع، وحكم الإمام مالك لصالح صاحب عمل يضرب طول الليل والنهار الحديد فيؤذي جاره فلا ينام، فقال: لا يمنع من ذلك، إنما هو رجل يعمل في بيته، وليس هذا يريد به الضرر. أما فقهاء طليطلة فقد منعوا الكمادين إذا اشتكى منهم الجيران لشدة الصوت، لكن المشهور عدم اعتبار الصوت.³

ويعلل الفقهاء هذا الرأي، بأن الصوت لا يخرق الأسماع، ولا يضر بالأجسام، فإن أضر الصوت بالجدران منع ذلك.

وأثر اعتبار الضرر السمعي على التخطيط العام للمدينة الإسلامية، فعادة ما تكون الوحدات السكنية بعيدة عن المراكز التجارية، وأبواب الدكاكين والحمامات لا تقابل أبواب البيوت، فيكون الداخل والخارج في منأى عن أعين الطفيليين، أما سطوح المباني فهي غالباً ما تكون على مستوى واحد، بحيث توفر لكل صاحب بيت الكثير من الخصوصية.

¹ ابن فرحون: المصدر السابق، ص 349.

² جلال الدين السيوطي: مصدر سابق، ص 185

³ ابن رشد: مصدر سابق، ص

ج- ضرر الشم:

وهو الضرر الناتج عن الروائح الكريهة، التي تصدر عن بعض أصحاب الحرف كالدباغين والحدادين ونحوهم، أو ما يصدر من مداخن الأفران والخبازين والقلائين. والأصل في منع ضرر الرائحة قول الرسول ﷺ: "من أكل من هذه الشجرة، فلا يقرب مساجدنا، يؤذينا، بريح الثوم".¹

قال ابن حبيب في الواضحة، سألت مطرفا وابن الماجشون عن الذي يتخذ في منزله مدبغة لدبغ الجلود، فاشتكاها الجيران بسبب الرائحة، هل يمنع من ذلك؟ فقالا: نعم، يمنع من هذا، وهو كضرر الحمام والفرن.²

ويفرق ابن الرامي بين توعين من الدخان، منها ما يجب منعه وهو دخان الحمامات والأفران، وما لا يجب منعه وهو دخان التتور والمطابخ وما شابهه، مما لا غنى للناس عنه لطبخ طعامهم، فعن سحنون أنه سأل ابن القاسم عن عرضه له أراد أن يتخذ فيها حماما أو فرنا فمنعه الجيران، فأخبره ابن القاسم أن للجيران منعه إن كان ذلك يلحق بهم ضررا، يمنع من أراد أن يتخذ في داره كيرا أو أفرانا لسبك الفضة والنحاس، فإن للجيران منعه.

وبهذا الرأي قال ابن القاسم*، ومنعوا من يتخذ الأفران والكير، فيضر بذلك جيرانه.³

وسبب التفريق بين دخان الحمامات والأفران ودخان المطابخ، مرده إلى عدم اعتبار الضرر إلا إذا كان هذا الضرر فاحشا، أي أن الفقهاء فرقوا بين ما سبب منه ضررا فاحشا، فمنعوه، وما سبب ضررا غير فاحشا، تركوا منعه، والضرر الفاحش هو كل ما منع الحوائج الأصلية، أي المنفعة الأصلية المقصودة من البناء كالسكن أو أضر بالبناء، كأن يجلب له ضعفا، فيؤذي إلى انهدامه.

فلو أن رجلا بنى بناءا مرتفعا قرب بيت جاره، وسد عليه مهب الريح فإنه يلزم برفع الضرر، وكذلك إن منع الجار جاره الضوء كلية، اعتبر ذلك من باب الضرر

¹ ابن حجر: مصدر سابق، مج9، ص575.

² ابن الرمي: مصدر سابق، مج1، ص211.

* ابن القاسم: أبو الحسن علي بن يحيى الصنهاجي، ت585.

³ ابن الرمي: نفسه، مج1، ص205.

النموذج الثالث:

وهي نازلة سئل فيها القاضي أبو القاسم خلف بن أبي فراس، عن رجل يملك دارا على يسارها حانوتا، ويقابل هذه الدار دار في الجانب الآخر، فأراد صاحب هذه الدار أن يفتح ثلاثة حوانيت على يمين داره، فادعى عليه صاحب الدار المقابلة، لأن في فتح الدكاكين مضرة له، ذلك أنّ الحوانيت يعتاد الناس الجلوس فيها، فيستطلعون على مدخل داره فتعظم المضرة، فأجاب القاضي بمنع ذلك، مع وجود خلاف في المسألة، ولكن المنع هو ما عليه المذهب والمشهور من الآراء، لأن الحوانيت كشفها أعظم وأكثر، فشان من يرتادها الجلوس.¹

النموذج الرابع:

وسئل الإمام سحنون عن المسجد تكون فيه المئذنة، فإذا صعد المؤذن للآذان اضطلع على سطوح الدور التي تقع تحت المئذنة، فأراد أهل هذه الدور منع المؤذن من الصعود إلى المنار، فقال أن أهل هذه الدور لهم منع المؤذن من الصعود لأن في صعوده ضرر لهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الضرر.

وقال ابن الرامي: إذا لم يتبين للمؤذن الأشخاص فلا يمنع إذا كانت الدور بعيدة عن المسجد، أما إذا استطاع المؤذن أن يتبين الرجل من المرأة والكبير من الصغير، فإنه يمنع من الصعود.²

وعرضت نفس المسألة على ابن رشد فأجاب بأن الصعود للصومعة متكرر، وروي عن أشهب عن مالك: المنع من الصعود إليها، فإن كان المؤذن يطلع على بعض الجهات دون غيرها، منع من الوصول إلى الجهات التي يطلع منها على منازل الناس.

وسئل فقهاء قرطبة عن المؤذن ابن أبي الربيع في أذانه بالأسحار وابتهاله بالدعاء، فخاصمه المحتسب إلى القاضي أبي علي ابن ذكوان، وذكر المحتسب بأن في فعله إحقاق الأذى بالجيران، فمنعه القاضي عن ذلك، وقال ابن سحنون يؤمر المؤذن بقطع الضرر ويكتفي بالآذان.³

¹ ابن الرامي: مج 1، ص 274

² نفسه، مج 1، ص 216.

³ الوئشريسي: المصدر السابق، مج 8، ص 24.

النموذج الخامس:

وجه أحد الجيران رسالة إلى فقهاء قرطبة، يقول فيها أنّ أحد جيرانه شرع في فتح حانوتا مقابل داره، فإن فتح هذا الجار الباب اطلع منه على داره، ولم يخف شيئا مما داخل بيته، وادعى أنّ في فتح الحانوت ضررا ظاهرا، فكلف فقهاء قرطبة أحد أهل الاختصاص ليثبت ما ادعاه الجار من ضرر، فلما عاين الموقع، أثبت وجود الضرر على الجار، فمنع الفقهاء الجار من فتح الباب.¹

و سئل ابن عرفة عن جارين متقابلين بينهما زقاق نافذ، فأراد أحدهما فتح باب وحنوتين في داره، بحيث يرى الجالس في الحانوتين الداخل والخارج من دار جاره، فأجاب بأن صاحب الحانوتين يُؤمر بتكيب بابيه قدر المستطاع، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلا ترك ولم يؤمر بغلقهما،² وتعليل ذلك أن السكة النافذة ليست ملكا لساكنيها من جهة ومن جهة أخرى فإنه تكثر فيها الحركة والذهاب والإياب خلاف السكة غير النافذة وبالتالي فإن الضرر يقل.

وعن سحنون في المدونة أنّ فتح الحانوت أشد ضررا من فتح الباب، لكثرة ملازمة الجلوس إليه، لهذا فهو يغلق بأي حال، وذهب إلى هذا القول "الونشريسي" وأمر بمنع فتح الحوانيت مقابلة لأبواب الجيران لشدة الضرر الواقع عليهم من اطلاع الجالسين إلى بيت الجار.² وهونفس الرأي الذي يذهب إليه الفرستائي، فيقول: "فمن أراد أن يزيد في داره بيوتا لم يمنعه أحد، فإن أراد أن يتخذها فندقا للمسافرين أو حوانيت أورحى أو حماما أو معصرة، فإنهم يمنعونه من ذلك ويمنعونه من الجلوس أمام داره أو أن يتخذ في فنائها ما يحتاج إليه كالحجارة والطين..".³ وهذا الرأي أعم في منع كل أنواع الضرر الذي قد يلحق بالجيران جراء تصرفات الجار في ملكه.

¹ الونشريسي: المصدر السابق، ص 12.

² نفسه، ص 19، ج 9.

³ الفرستائي: مصدر سابق، ص 148.

التحايل على الضرر:

وأمام منع الفقهاء أوجه كثيرة من الضرر، فإننا غالبا ما نجد أنفسنا أمام ضرر جديد متمثل في قطع أرزاق الناس ومعاشاتهم بدعوى نفي الضرر، ولهذا فإن الفقهاء وأهل الصناعة وأصحاب الحوائج استطاعوا دفع الضرر أوالتحايل عليه لنفي قيام الدعوى ضدهم، وفي كثير من النوازل حكم القضاة على صاحب الضرر ثم تنازعوا عن الحكم لما انتفى الضرر، ويظهر من خلال هذا الفعل المرونة التي تتمتع بها الأحكام المتعلقة بالعمران، ويثبت أن أحكام العمران إنما قصد بها دفع الضرر عن الناس لا غير، لأن رعاية مصالح الناس مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية. ومن المسائل التي وقع فيها التحايل على الضرر، ما روي عن ابن رشد أنه قال: إن أمكن قطع ضرر الدخان مع بقاء الفرن قطع الضرر، وبهذا الأمر قضى سليمان بن أسود، فجعل أنبوبا في أعلى الفرن يخرج الدخان من خلاله فلا يدخل دور الجيران فيضرهم.¹

وأقرب من هذا المثال ما أجاب به القاضي ابن عبد الرفيع حين سئل عن أحدث في داره إسطبلا بقرب داره فاشتكاها جاره، فحكم بوجوب إزالة الضرر. فاشتكى صاحب الدار الضرر، وزعم أن هذه الدواب هي وسيلة رزقه، فإن أخرجها انقطع رزقه، فسأل أهل المعرفة إن كان يستطيع التحايل على الضرر الذي لحق بداره، فأشار عليه عرفاء البنيان أن يحفر أساسا طوله قدر قامة الإنسان، خلف حائط جاره ثم يقوم ببناء حائط من تحت الأرض عرضه خمسة أشبار إلى غاية السقف. ثم أبلغوا القاضي بما أشاروا به على صاحب الضرر، فأمرهم القاضي أن يشهدوا على صاحب الدابة بذلك، حتى إذا طال الزمن لم ينزع الحائط ويدعى قدم الضرر.²

ابن فرحون: مصدر سابق، ص 348

² الونشريسي: المصدر السابق، مج 8، ص 8.

وإذا أراد الجار أن يتخذ في داره رحي، فعليه أن يتباعد عن حائطه جار حوالي ثمانية أشبار من حدود دوران البهيمة، باتجاه حائط الجار، ثم يقوم ببناء حائط، فإن الضرر سينقطع عن الجار.¹

وعرضت نازلة على ابن الرامي، وهي في شكل سؤال عن رجل كان له مكان خرب، وكان في هذا المكان قبل هذا الوقت رحي قديمة، وأراد ورثة هذا الرجل أن يتخذوا مكانه فرنا، لكن الجار المجاور لهم، منعهم وادعى أن هذا الفرن سيضر بجدرانه وطلب منهم إقامة حائط بين الفرن وجدران بيته. ليمنع ذلك الحائط من الإضرار بحوائطه، فهل للمدعي الحق في طلبه؟

فأجابهم ابن الرامي: إن كان خراب هذا الفرن له زمان طائل، وقد عفا ودرس، وترك على التعطيل حتى طال الزمان، ثم أحدث الجار دار تلاصق الفرن، ثم أراد وورثته إحياء الفرن، وهو يضر بجدران الدار، فله أن يمنعهم إلا أن بينوا له حائطا كما ذكر.²

والأمثلة سواء عند ابن الرامي أو الوئشريسي أوفي كتب النوازل الأخرى عن التحايل على الضرر ودفعه كثيرة، وكلها تثبت الاعتداد بدفع الضرر عند الحاجة. فداخل التجمعات الحضرية يمنع الإضرار بالفرق المتجاورة وليس لأحد أن يحدث في ملكه ما يلحق الضرر بغيره، فإن فعل ذلك فإن الجيران لهم أن يمنعوه من فعله، فإن اتفق الجيران على قبول الضرر ولم يعترض أحد منهم، جاز لصاحب العقار أن يحدث في عقاره ما ينتفع به. فإن اعترضوا عليه ينظر إن كان في استطاعته دفع الضرر، ويسأل أهل الخبرة والصناعة، ويعمل بما يشيرون عليه لدفع الضرر، فإن اندفع الضرر أقروه على فعله، ولم يعد فعله من باب الضرر، فإن حدث وعاد الضرر بعد التحايل عليه، عاد الجيران ومنعوه من الإضرار بهم، وليس له أن يدعي بأن الضرر قديم.

¹ ابن الرامي: مصدر سابق، مج1، 218

² نفسه، مج1، ص211.

فالعبرة إذاً ليست بمنع الفعل في حد ذاته، ولكن العبرة والقصد بإحداث الضرر، فليس للجيران منع الجار لأنه اتخذ في بيته إسطبلاً، إلا إذا تأذوا بفعله وأثبتوا ذلك عند القاضي.

2. أحكام الطريق:

تعتبر الطريق بمثابة الشرايين داخل المدينة الإسلامية بصفة خاصة والمدينة بصفة عامة، فمن خلالها تتدفق الحركة إلى مختلف المرافق الحيوية داخل المدينة، وهي محل إرتفاق العامة والخاصة.

فالطريق هي المقياس الحقيقي لمعرفة درجة التحضر داخل المجتمعات، فالمدن العامرة كما يعبر عنها الجغرافيون والمؤرخون هي التي تعج شوارعها بالحركة وتمتلئ بالسلع المختلفة، ولا تكاد تخلوا ساعة من نهار. ولا يمكن لهذا المرفق الحيوي أن يقوم بما أنيط به من مهام إلا إذا تم تحديد ما ينبغي أن تكون عليه من أوصاف، وما يجب أن يكون لها من حقوق.

ولما علم رسول الله أهمية الطريق، داخل الفضاءات السكنية والاجتماعية، فإنه جعل لها حقوقاً ينبغي للمسلم أن يراعيها، فوردت أحاديث متعددة في شأن الطريق، وكل مجموعة من الأحاديث تعالج جانباً من الجوانب المتعلقة بالطريق، ويمكننا أن نجتهد وأن نقسم هذه الأحاديث إلى مجموعة من الأقسام.

نظافة الطرقات:

إن الطريق يسلكها العامة والخاصة، الكبير والصغير، المرأة والرجل، وقد يسلكها الراجل والراكب، وكثيراً من الأحيان تكون الطريق موضعاً للبيع والشراء، وشأن الناس أن يتركوا ما لا حاجة لهم فيه كالصناديق واللفائف والأخشاب، وشأن الدواب أن تتبرز في هذه الفضاءات... فلوترك الأمر على عاتقه لصارت الطرقات أشبه بالمزابل، فيتأذى الناس بهذه الأوساخ في ذهابهم وإيابهم، وحرصاً على نظافة الطريق وجه الرسول الكريم المسلم إلى جملة من الأفعال البسيطة في ذاتها العظيمة في آثارها.

وتأكيداً على نظى لفة الطرقات فإن رسول الله ﷺ عليه وسلم لم يدع المسلم إلى ترك رمي الأوساخ، بل وجهه إلى فعل هو أكثر تحضراً، وأكثر وعياً

بمشكلة النظافة وهذا الأمر هو إِمَاطة الأذى، فقد يمتنع الناس عن رمي فضلاتهم في الطريق ولكن قد لا يرفعون الأوساخ من الطريق، ولكن الاستجابة لنداء رسول الله ﷺ عليه وسلم هو إِمَاطة الأذى عن الطريق، تقتضي الإمتناع عن رمي الفضلات في الأزقة والطرقات، وهو لا شك توجيه نبوي حكيم.

ومن الأحاديث التي نسوقها في هذا الباب على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:
عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ عليه وسلم: " إياكم والجلوس على الطرقات فقالوا ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها قال فإذا أبيتم إلى المجالس فأعطوا الطريق حقها. قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر".¹

وهذا الحديث هو أهم حديث نعتمده في هذا الباب، ففيه بيان لكل ما ينبغي أن تكون عليه طريق المسلمين. فالرسول ﷺ عليه وسلم نهاهم عن الجلوس في الطرقات، فلما علم أنها مرتفق لهم لا يمكن ترك الجلوس فيها، أرشدهم إلى ما يجب أن يتصف به من جلس إلى طريق المسلمين، وكل الحقوق التي ذكرها رسول الله ﷺ عليه وسلم تخدم أمرا واحدا وهو: النهي عن الإضرار بأهل الطريق إما من المرفقين أو السكان، ولا شك أن من ارتفق في الطريق بهذه الشروط التي حددها رسول الله ﷺ عليه وسلم فلا شيء عليه، فإن خالفها واعترض الناس وتتبع عوراتهم أو عطل مصالحهم، ادعى عليه المتضررون وألزموه الرجوع إلى هدي السنة في الارتفاق، ويقوم على عاتق المحتسب أو رجل الشرطة أن يأخذ على يديه، لأن هذا النوع من الأضرار إذا تحاكم فيه الناس لدى القاضي فإن ذلك لن يدفع الضرر، فيجب إذاً أن يكون الفصل فيه سريعا بمنع الجلوس أو الوقوف ونحوه مما يؤذي المارة أو يؤذي الجيران.

ويقاس على الجلوس في الطرقات اتخاذ المصاطب في أبواب الدور والأفنية، فإنه جائز لا حرج فيه.² فإن لحق الضرر بإنشاء المصاطب أو الدكات، وأضر بالمارة أو الجيران فإن القاضي أو المحتسب يمنع من إقامة مثل هذه المرافق.

¹ - ابن حجر العسقلاني: مصدر سابق، مج 1، ص 112.

² - نفسه، ص 113. مج 1.

وانطلاقاً من هذا الحديث اعتبر الفقهاء وغيرهم ممن ارتبط عملهم بالطرقات، أن الطريق تعتبر ملكية عامة لجميع المسلمين لا يحق لأحد أن يحتكر استغلالها دون غيره.

فقال أصبغ* وهو من فقهاء المالكية: " أن الأفنية والطرقات كالأحباس للمسلمين، لا يجوز لأحد أن يحدث فيها حدثاً إلا للضرورة.¹

وقال ابن وهب: للحاكم أن يهدم كل بناء يزيد أصحابه في طريق المسلمين، وينبغي للإمام أن لا يترك أحداً يزيد من طريق المسلمين.²

ومن أجل نظافة الطريق قام عمل المحتسب على منع كل مرتفق يقع منه ما يخل بهذه الحقوق سواء قصد إلى ذلك أولم يقصد.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: " اتقوا اللعائين الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم".³

وعن معاذ ابن جبل قال: " اتقوا الملاعين الثلاثة البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل".⁴

والقارعة هي الطريق الواسع يقرعه الناس بأرجله، فيمنع المسلم من أن يصدر عن هذه الأفعال لأنها تؤذي المسلمين الذين يرتفقون من هذه المواضع.

ومن أحاديث رسول الله التي تصب في هذا الباب وتحت على نظافة الطرقات والأزقة ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " وتميط الأذى عن الطريق صدقة".⁵ وقد أشرنا سابقاً إلى أن الحديث يحتوي في طياته أمراً هاماً، وهو ما يسميه الأصوليون القياس بالأولى. وهذا الأمر متضمن للنهي عن إلقاء الأذى في الطريق. ولنا أن نتصور إن امتنع الناس عن رمي فضلاتهم في الطريق، وقام كل

* أصبغ: أبو عبد الله أصبغ بن سعيد بن نافع، الفقيه المالكي المصري، ت225هـ) (أنظر شجرة النور الزكية: ص66، ج1).

¹ - الفاسي: مصدر سابق، ص 156.

² نفسه ص 152.

³ ابن حجر: مصدر سابق، مج 1، ص118.

⁴ الصنعاني: "سبل السلام"، ص 156

⁵ ابن حجر العسقلاني: نفسه، ص118، ج5،

واحد منهم عن إزالة الأذى من باب داره أوحانوته، ووضعه في محله. فلا شك أن الشوارع ستظل نظيفة، ولا شك أيضا أننا سنقلل من أعباء الدولة المتعلقة بنفقات النظافة.

ولنلاحظ ما عليه شوارعنا وأحياءنا من تراكم الأوساخ والفضلات، وما ينتج عن ذلك من أمراض متعددة وانتشار الحشرات التي تنغص على الناس عيشهم وتكلفهم مصاريف باهضة في شراء مبيدات الحشرات. ولننظر إلى هديه صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى اجتناب طرح الفضلات في الشوارع والأزقة.

سعة الطريق:

ولما كان ارتفاع العامة بالطرقات والشوارع لا غنى لهم عنه، فإن هذا الارتفاع لا يكون تاما إلا إذا كانت الطريق على قدر واسع، بحيث تسهل حركة الناس والحيوانات. ولم يرد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر سعة الطريق إلا القليل من الأحاديث، ومن هذه الأحاديث ما رواه البخاري في مرويته عن أبي هريرة رضي الله عنهم أنه قال: " قضى رسول الله إذا تشاجروا في الطريق الميلاء بسبعة أذرع".¹

وروى عن عبادة بن الصامت: أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى في الرحبة تكون في الطريق ثم يريد أهلها البنيان فيها، فقضى أن يترك الطريق سبعة أذرع، وكانت تلك الطريق تسمى الميلاء".²

والطريق الميلاء هي أعظم الطريق، وهي التي يكثر المرور بها، وقيل هي الطريق الواسعة أو العامرة، وقال الطحاوي في الحديث: " إن الأرض التي عنها الحديث هي الأرض التي يريد أصحابها ابتداءها".³

واختلف المحدثون في تفسير هذا الحديث، ثم تبعهم الفقهاء، فاختلفوا في تحديد ما هي الطريق المقصودة وسنورد بعض آرائهم.

¹ - الشوكاني محمد بن علي: مصدر سابق، مج 6، ص 5، ص 559.

² - الشوكاني: نفسه، مج 5، ص 6 ص 359

³ - ابن حجر: نفسه، ص 119 مج 5 .

قال بعض أهل الحديث أن المراد بالطريق الميتاء، هي الطريق في البلد يفتحه المسلمون، وليس لهم فيه طريق مسلوكة. ويرى آخرون أن المراد هي الطريق التي اختلف في وضعه محيوالأرض الموات، أو من كانت الأرض شركة بينهم، بحيث لا يلحقهم ضرر عند رفع الطريق سبعة أذرع، فإن اختلفوا في تحديد سعة الطريق واتفقوا في حاجتهم إليه كمرورهم وارتفاق دوابهم، فإن من واجب الحاكم أن يقضي بينهم بجعل الطريق سبعة أذرع لأكثر.¹

والحديث مع عموم لفظه يبقى خاصا في بعض الطرقات لا جميعها، وهي كما ذكر الفقهاء والمحدثون طرق الموات أوالأرض المشتركة، ويظهر من سعتها أنها ليست شوارع المدن العامرة، فإن هذه الطرق تحدد ابتداء قبل اختطاط الخطط، وبناء الدور والمرافق الحيوية، والراجح أنها طرق البوادي التي يسلكها أهلها على أرجلهم ودوابهم، ويؤكد هذا الرأي ما أورده الشوكاني في شرح الحديث، فقد ذكر أن هذا المقدار إنما هو في الطريق التي هي مجرى الجمال وسائر المواشي، لا الطريق المشروعة بين الأملاك، ويدل على ذلك التعبير بلفظ الميتاء".²

ونكرنا سابقا أن عمر ابن الخطاب قد عهد إلى أهل البصرة والكوفة أن يجعلوا سعته الشوارع أربعين ذراعا وما دونها ثلاثون ذراعا والصغيرة عشرون ذراعا، وأن يجعل في المدينة أزقة، عرض الزقاق سبعة أذرع.³

وهي لا ريب تحقق الوظيفة المناطة بها، من ارتفاق الناس بدوابهم، ووضع أصحاب الدكاكين لسلعهم وبناء الداكات والمصطبات أمامها.

ويمكن من خلال هذا التوجيه لعمر بن الخطاب أن نحدد أنواع الشوارع داخل

المدينة، وهي أربعة أنواع:

شوارع رئيسية وعرضها أربعون ذراعا.

شوارع ثانوية وعرضها ثلاثون ذراعا.

شوارع صغيرة وأدروب وهي عشرون ذراعا.

¹ - أبو جعفر الطبري: "تهذيب الآثار" مسند عبد الله بن عباس، ج2، 786.

² - الشوكاني: مصدر سابق، مج65- ص 360.

³ - ابن جرير الطبري: مصدر سابق، مج2، ص 334.

ثم الأزقة وهي سبعة أذرع.

3. زخرفة المساجد:

بنى رسول الله ﷺ مسجده على غاية من البساطة، خاليا من كل شكل من أشكال التزييق والتنميق، معتمدا على ما توفره له البيئة من مواد ومع أن المسجد يكتسي أهمية بالغة في الحياة الإسلامية، وورود التأكيد على هذه الأهمية في الكثير من نصوص القرآن الكريم إلا أننا نجد أن رسول الله حين بناه لم يهتم إلا بالجانب الوظيفي للمسجد وهو حماية المصلين من حر الشمس وبرد الشتاء، وإضافة لهذا الفعل النبوي وردت في كتب السنة المختلفة مجموعة من الأحاديث تقرر هذا المعنى، وقد أثرت هذه النصوص في عمارة المساجد على مر العصور.

ومن الأحاديث التي نعتمدها في هذا الجزء من البحث ما رواه الصنعاني أن رسول الله ﷺ قال: " لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد"¹ وفي رواية أخرى لهذا الحديث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: " ما أمرت بتشبيد المساجد"² قال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى.³ والتشبيد: كل ما أحكم من البناء، فقد شيّد، وهورفع البناء وتطويلها ما المراد بالزخرفة فهي بمعنى النقش والتمويه.⁴

قال ابن بطال تعليقا على الأحاديث: فالسنة في بناء المساجد القصد وترك الغلوفي تحسينها، وأول من قام بزخرفة المساجد الوليد بن عبد الملك الأموي.⁵ وقال ابن حجر العسقلاني: "والمعنى ما أمرت بالتشبيد ليجعل ذريعة إلى الزخرفة، وفي الحديث نوع من التوبيخ والتأنيب."⁶

¹ - الصنعاني: مصدر سابق، ص 326

² - نفسه، ص 227

³ - أبوداود: مصدر سابق باب الصلاة باب بناء المساجد رقم 378

⁴ - ابن منظور: مصدر سابق، ج 3 ص 244، ج 2 ص 294، ج 3 ص 132

⁵ - الصنعاني: مصدر سابق، ص 328

⁶ - ابن حجر: مصدر سابق، ص 540.

وليس اختلاف العلماء في شرح الحديث، وإنما الاختلاف واقعا في أمر البناء والتشييد والزخرفة. فقد انقسم العلماء إلى قسمين بين محرم ومبيح للزخرفة. اتفق الفقهاء أن بناء المساجد وتشبيدها،¹ بتوسعتها، والاهتمام بأمرها أمر بالغ الأهمية، فإن المساجد على مر العصور قد تضيق بأصحابها، فلا تتسع لهم فيخرجون إلى الشوارع والطرقات لأداء صلواتهم، وقد تتعرض هذه المساجد لشتى أنواع التخريب من حرائق وزلازل وغيرها، فيضطر أصحابها لإعادة بنائها بما يتماشى مع ظروفهم وإمكانياتهم المادية، ولا يمكن أن نحتج على هذا الأمر بالقول: أن رسول الله لم يوسع مسجده، ولم يأمر بتوسيعه فذلك راجع إلى أن الحاجة لم تدع إلى توسعة المسجد، لأنه كان يسع المسلمين في ذلك الوقت.

فلما كانت خلافة عمر اضطر إلى توسعة المسجد دون زخرفته، فلما بويع عثمان بالخلافة وسعه وزخرفه، وكان عثمان رضي الله عنه أول من شرع في زخرفته، ويظهر أنه لاق اعتراضا من قبل الكثير من الصحابة لأنهم رأوا أن عثمان قد خرج عن المنهج الذي وضعه رسول الله وهو الاكتفاء بالحد الأدنى من البناء. وقد روي عن عثمان رضي الله عنه قال لما أكثر الناس في الاعتراض عليه: "إنكم أكثرتم وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من بنى مسجدا بنى الله له مثله في الجنة".²

ولنا أن نقف عند من رأى جواز الزخرفة محتجا بفعل عثمان في المسجد النبوي. والسؤال الذي نطرحه، هل يمكن لنا أن نسمي ما قام به عثمان زخرفة؟ فالثابت أن عثمان بن عفان رضي الله عنه بنى داره بالحجارة المنقوشة والقصة وجعل عمده من الحجارة المنقوشة وسقفه بالساج، والقصة هي الجص، أما الساج فهو نوع من الخشب، وباستثناء ما ذكره المؤرخون، وأهل الحديث من أمر الحجارة المنقوشة، التي لا نعرف عن وصفها ونوع الزخرفة التي كانت عليها الشيء الكثير، فالراجح أنها لم تكن مجرد حجارة منحوتة، فإن هذه الزخرفة لا تعد وأن تكون أمرا عاديا لا مبالغة

¹ - البوطي محمد سعيد رمضان: فقه السيرة النبوية. دار الفكر سوريا ودار الفكر الجزائر، ط11، 1981 ص

² - ابن حجر: المصدر السابق، مج1، ص 544.

فيه، ولكن الصحابة أنكروه، وإعتبروه أمراً مستهجناً، لأنه خالف المؤلف عندهم، وخالف ما كان ما كان عليه الأمر في عهد الرسول ﷺ وخلافة أبي بكر وعمر.

وما يمكن نعتده هو أن المبالغة في زخرفة المساجد، أمر مخالف للسنة فقد ترك عمر رضي الله عنه زخرفة المسجد النبوي مع كثرة الفتوح في أيامه وسعة المال عنده وقد أثر عن قوله: "أكن الناس من المطر وإياك وقد أمر ببناء مسجد أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس"¹

وقد ثبتت الكراهة عن الكثير من الفقهاء فذكر الزركشي أنه يكره نقش المساجد واتخاذ الشرفات له ونقل جملة من أقوال الصحابة كلها تدعو إلى ترك زخرفة المساجد وأن ذلك ليس من الإسلام في شيء، فنقل عن الإمام على قوله: "إن القوم إذا رفعوا مساجدهم فسدت أعمالهم"².

والعلماء متفقون أن لا يجوز الإنفاق على زخرفة المساجد من المال العام، ولا من المال الموقوف على نفقة المسجد فإن كان حتى المال الخاص فقد وقع فيه الخلاف.³

والعلة في منع الزخرفة أو على الأقل كراهيتها، أن تؤدي إلى صرف قلوب المصلين عن خشوع في الصلاة، والتدبر، وشغلها بأمور الدنيا، في حين أن المسجد إنما يقصده المسلم منصرفاً عن الدنيا مقبلاً على الآخرة.

ويضاف إلى هذه العلة علة أخرى لا تقل شأنًا عن الأولى وهي صرف أموال المسلمين في بناء المساجد مع المبالغة في ذلك، والحرص على زخرفتها زخرفة غاية في المبالغة، والأولى أن تبنى المساجد بقدر الحاجة وبقدر ما يؤدي الغاية منها، وتوجه أموال المتبرعين وأموال الدولة في مجالات أخرى تخدم المسلمين كالصحة والتعليم والإسكان، وهي من القطاعات الحيوية التي لا تستقيم حياة الناس إلا بها.

¹ - ابن حجر: نفسه، مج 1، ص 539.

² - الزركشي: مصدر سابق، ص 237.

³ - نفسه، ص 236.

والملاحظ أن المسلمين عند بناء المساجد قد خرجوا عن حد القصد إلى الإسراف والتبذير. ولا يمكن أن نقيس ما يفعله الناس اليوم في مساجدهم، من زخرفة على ما صدر عن عثمان من زخرفته، فلا شك أن الفرق شاسع، زيادة على ذلك فإن المصلي لم يعد يجد الخشوع والطمأنينة الذي يفترض أن يجدها في المسجد. فغالبا ما يبهر المرء عند دخوله لهذه المساجد، حيث تكثر الزخارف المختلفة. وتذهب أنوار الثريات بالأنظار، فتتصرف عن التأمل والخشوع إلى هذه الأنوار المتلائة وكأنها مجرات معلقة في الفضاء.

ولم تعد المساجد الأماكن التي يشعر فيها الفقراء بالراحة، فيلجئون إليها عند الصلوات لينسوا متاعب الدنيا التي أثقلت كواهلهم، وفي هذا الباب يقول البوطي: "ومن أسوأ نتائج هذا الأمر أن الفقراء لم يعودوا يستطيعون الهرب من مظاهر الإغراء الدنيوي إلى أي جهة، فقد كان المسجد مما يعزي الفقير بفقره، فأصبحوا يجدون في المساجد ما يذكرهم بفقركم وحرمانهم".¹

4. البناء قدر الحاجة:

ولعل هذا الأمر من أهم خصائص العمارة الإسلامية، التي نستمدتها من سنة رسول الله. فلم يكن من سنة النبي الكريم المبالغة في البناء ولا التشييد وإنما كان يكتفي بالقدر، أي ما يفي بالغرض الذي جعل له البناء وكان الغرض من البناء في السنة النبوية أمرين: الأمر الأول: أن يستر صاحبه عن أعين الناس وفضولهم، والأمر الثاني أن يقيه من تغير العوامل الطبيعية. ولا يفتر هذا الجانب إلى النصوص، فنجد نصوصا كثيرة تؤكد هذا الاتجاه.

فلم تكن بيوت النبي ﷺ على قدر هام من البناء والتشييد بل كانت أقل بيوت الصحابة شأنا، ولم يكن فيها من الأثاث القدر الكثير، ومع ذلك فقد كانت هذه الغرف على قدر كبير من النظافة، وورد عن رسول الله ﷺ الدعوة إلى تنظيف المساكن فقال: "غسل الإناء وطهارة الفناء، يورثان الغناء".² ومن النصوص

¹ - البوطي: مرجع سابق، ص 146.
² - السيوطي: الدرر المستنيرة في الأحاديث المشهورة، دار الاعتصام، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ص 321

التي وردت في هذا الأمر، ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: " من بنى فوق ما يكفيه، كلف يوم القيامة أن يحمله على عاتقه"⁽¹⁾.

قال: أبو حامد الغزالي ولا يجوز لقليل المال الإسراف في تزيين حيطانه والبنيان، أما فعل ذلك من الأغنياء فليس بحرام، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة⁽²⁾.

وكانت بيوت رسول الله في غاية من الضيق بحيث لا يستطيع النائم أن يمد رجله إلا ولمس من كان بجواره، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: " كنت أنام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلي في القبلة، فكان إذا سجد غمزني فقبضت رجلي فإذا قام بسطتهما، قالت والبيوت يومئذ ليس فيها مصباح"⁽³⁾.

وحديث عائشة دليل واضح على ضيق مسكن رسول الله ﷺ عليه وسلم وهو المؤكد أن غرف أزواجه كانت على نفس القدر، وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الحسن البصري روى أنه دخل إحدى غرف أزواج النبي وهو غلام، فكان يلمس سقف البيت.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة مشرفة فقال: ما هذه؟ قال له أصحابه هذه لفلان رجل من الأنصار، قال: فسكت وحملها في نفسه، حتى إذا جاء صاحبها رسول الله ﷺ يسلم عليه في الناس، أعرض عنه، صنع ذلك مراراً، حتى عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه فقال: " والله إنني لأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: خرج فرأى قبته، قال: فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سواها بالأرض، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فلم يرها، فقال: ما فعلت القبة، قالوا: شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه، فأخبرناه، فهدمها فقال: أما أن كل بناء وبال على صاحبه إلا مالا.

والقبة المشرفة هي كل بناء عال.

¹ - السيوطي: مصدر سابق، ص 370.

² - الغزالي: " إحياء علوم الدين " مج 3، ص 60.

³ - ابن حجر: مصدر سابق مج 1، ص 588.

قال: ابن حجر: إن المقصود هوبناء مالا تمس الحاجة إليه، مما لا بد منه للتوطن، وما سبق البرد والحر.¹

ووردت نصوص كثيرة في ذم التطاول في البنيان، فقد روى أبوهريرة عن رسول الله قوله: "إذا رفع الرجل بناء فوق سبعة أذرع نودي: يا فاسق إلى أين؟" وروى أيضا أن رسول الله قال: "يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا التراب".²

وهذه الأحاديث وإن كانت تدعوا إلى ترك التعلية في البناء إلا أن الأحوال والقرائن تخصصها، ولعل المراد بالبناء هو البناء الذي أراد له أصحابه السمعة والتفاخر، والرياء، وإظهار الثراء وهو الذي يفهم من سياق الحديث بدليل قوله صلى الله عليه وسلم "... وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان". والمراد أنهم يتفاخرون، كل يعلى بناءه فوق بناء صاحبه، مباهاة لا غير، فإن كان صاحب البناء لم يقصد الرياء والمباهاة وقصد التوسعة على نفسه وأولاده، فلا شيء في ذلك، ومع ذلك فلا ينبغي عليه تعظيم النفقة في البناء والزخرفة، ولعل هذا النهي كان في بداية الإسلام، وهي لا شك فترة كان فيها نصف المجتمع فقيرا، وهم المهاجرون على الأقل الذين تركوا ديارهم وأموالهم في مكة، ولقد علمنا أن أحيانا كثيرة ارتبطت بهذه الحالة جملة من الاحكام، منها نهى الأنصار عن كراء أراضيهم للمهاجرين، وتوجيههم إلى دفعها لهم لخدمتها مجانا، من باب المواساة فاذا زالت هذه العلة زال الحكم معها، ويقول محمد الغزالي في هذا السياق أن المدينة المنورة في هذه الفترة كانت تعرف مرحلة من لا استقرار، ومنطق الاستقرار غير منطق القلق، فلقد كانت المدينة تعرف حياة نفير عام، بين الاستعداد لرد الأعداء، وبين التأهب للخروج للجهاد، فلم يكن الناس ليتفرغوا لبناء الدور الفخمة والمنازل العظيمة: "قالأصل إياحة الطيبات في المأكل والمسكن، ولوأخذنا الأمر على عمومه ما بنيت مدينة ولا قامت حضارة".³

¹ - ابن حجر: مصدر سابق مج 11، ص 93.

² - نفسه مج 11، ص 92

³ محمد الغزالي: "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"، دار الصديقية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 110

والخلاصة أن هذه الأحاديث التي تدم البناء، لا بد أن تفهم في إطار السياق الزمني التي وردت فيه، مقرونة بالمعطيات المتوافرة، فإن نحن أخذناها مجردة فلا شك أننا سوف نحرم الكثير من الطيبات التي أحلها الله لنا في مجال السكن والبناء.

5. حقوق الجوار:

ومن الأحاديث النبوية التي أثرت في الحياة الاجتماعية داخل المدينة الإسلامية نجد الأحاديث التي تدعوا إلى احترام الجار وتثبت له جملة من الحقوق، وانتقل تأثير هذه الأحاديث إلى مجال العمران، وإن كانت هناك مجموعة من الأحاديث تتحدث بطريقة مباشرة على مجال العمران.

وانطلاقاً من هذا التفريق، سنقسم الأحاديث النبوية في مجال العمران إلى

قسمين:

1- قسم خاص ومباشر في التطرق لحديث العمارة:

وهذه الأحاديث أثرت بطريقة مباشرة في العمارة داخل المدينة، وتنطلق هذه الأحاديث من مجال ضيق وهو الوحدات السكنية لتشمل كل فضاءات المدينة المختلفة. ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو هريرة عن رسول الله: "لا يمنع جاراً جاره أن يغرز خشبة في داره، ثم يقول أبو هريرة: "مالي أراكم عنها معرضين، والله لأمرين بها أكتافكم"¹.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله: إذا سأل أحدكم أخاه أن يلزق بجداره خشبات فليدعه"² وعن ابن عباس أيضاً قال: قال رسول الله: من سأله جاره أن يضع خشبة في جداره فلا يمنعه"³.

فالأحاديث تدل على أنه ليس للجار أن يمنع جاره من الإرتفاق بغرز خشبة في

جداره، ولكن جمهور الفقهاء اختلفوا في: هل الأمر للوجوب أو للندب؟

فقال أحمد وابن حبيب والشافعي في القديم، إن امتنع الجار، ورفض أن يغرر

جاره خشباته في حائطه أجبره الحاكم.

1 - ابن حجر: المصدر السابق، ج01، ص 110

2 - أبو جعفر الطبري: المصدر السابق ص 779

3 - نفسه، ص 781

وقال الحنفية والشافعي في الجديد، أنه يشترط إذن المالك فان امتنع، لم يجبره الحاكم ولا غيره، لأنهم حملوا الأمر على الندب، والمنع عن التنزيه.¹

ويظهر أن الحديث الذي يبيح للجار غرز خشبته في جدار جاره، ليس على ظاهره، فهو مضمّر بشرط، وهو أن يأذن له صاحب الحائط، فيفهم الحديث على النحو التالي: " من بنى فليدعم على حائط جاره، إذا أذن له" وتعليل ذلك أنه يوجد أد له كثيرة تمنع المسلم من الانتفاع بمال جاره دون إئنه ورضاه منها قوله صلى الله عليه وسلم (إن دماؤكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا).²

فقد روي عن أخوين من بني المغيرة حلف أحدهما أن لا يغرز جاره خشبا في جداره، فلقيا الصحابي الجليل مجمع بن يزيد ومعه رجالا من الأنصار، فقالوا: نشهد أن رسول الله قال: " لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره" فقال: يا أخي إني قد علمت أنه مقضي لك على، وقد حلفت فاجعل أسطوانا دون جداري، اجعل عليه خشبك"³

والاشترار في الجدار كما تدل عليه الأحاديث، مظهر من مظاهر التآلف بين الفرق المتجاورة، وهو يشعر بحاجة المسلم إلى غيره، وأبسط مظاهر هذه الحاجة أن يرتفق على جداره وإن استطاع الجاران قبول فكره الاشتراك في الحوائط، فإنهم سيقبلون بفكرة الاشتراك في مواضع أخرى، وبالفعل سنجد الفكرة مجسدة في باقي المرافق الحيوية الأخرى للمدينة في الإسلام، فيشترك ساكنو الدرب في دربهم غير النافذ، ثم يشركون مع غيرهم في الزقاق، ثم يشتركون في الشارع، ثم في المسجد والسوق.

والاشترار فيه من مظاهر التكافل الشيء الكثير، فصاحب الحائط إذا رضي بارتفاق جاره بالخشب، فإنه سيضع عنه مشقة وكلفة إنشاء حائط أو أسطوان جديد لغرز خشبه، وبالتالي فإنه سيوفر عليه شيئا من المال وقدراً من الجهد الذي قد يستثمره في مجالات أخرى.

² أبو جعفر الطبري: المصدر السابق، ص 790.

³ الشوكاني: مصدر سابق، مج 65، ص 735.

ومع ذلك إن الارتفاق بغرز الخشب أو نحوه، يجب أن لا يكون فيه مضرة بالجار بما كان يوهن جداره أو يتسرب إليه الماء، فيكون بذلك الإذن في الارتفاق مشروطا بعدم الإضرار، بدليل الحديث السابق " لا ضرر ولا ضرار"، ولأن دفع المفسدة أولى من جلب المصلحة.

أما القسم الثاني من أقسام الحديث الذي تناولت حقوق الجوار، فهي أحاديث عامتين حق الجار على جاره، ومع أنها أحاديث ذات طابع عام، إلا أنها تضمنت الكثير من التوجيهات في مجال العمارة، وأثرت على الكثير من تصرفات الأفراد داخل المجال العمراني وقيدتها بقيود وضوابط تهدف أساسا إلى حماية الجار. ولا تهدف هذه الأحاديث إلى حماية صنف أوفئة من الناس بل القصد منها حماية كل فرد داخل التجمع الحضري.

ونتساءل من هو الجار؟ الذي جاءت في حقه هذه الأحاديث؟

إن الأحاديث النبوية جاءت عامة فتشمل كل من يسكن بجوارك لا عبرة بلونه أودينه أو عرقه أو مستواه الاجتماعي... وبالتالي فإن كل فرد داخل المجتمع هو جار، يثبت له من الحقوق، ما يطلب منه رعايته لجاره.

وهذه الحقوق لا تثبت للجار، فقط تثبت للعقار أيضا، فالجار يصير جارا حينما يستقر بالعقار الذي يجاورك، فإذا رحل إلى بلد ما لم يعد جارا وانتقلت هذه الصفة للمستقل الجديد للعقار، فتنقل إليه الحقوق الذي كانت ثابتة لغيره. ومن هذه الحقوق الذي تثبت للجار هي أن يأمن مكر جاره، بما يوفره له من ثقة وأمان.

فلا يعيش الجار في فزع دائما، خائفا مترقبا أن يقع في مكر جاره، ذلك أن المساكن إنما جعلت لتوفير الأمن والدعة والاستقرار، وهذه الصفات لا يوفرها العقار في حد ذاته وإنما يوفرها الجار الذي يشغل العقار المجاور.

فقد روي عن رسول الله قوله «صلى الله عليه وسلم» "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قيل: ومن يا رسول الله؟ قال الذي لا يأمن جاره بوائقه"⁽¹⁾ وروي عن

¹ - ابن حجر: مصدر سابق، مج، 10، ص 443 .

أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره(1).

وحدد رسول الله بعض حقوق الجار فقال: " إن استقرضك أقرضته.... ولا تطيل عليه بالبناء، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه...."²

وكل فرد داخل المجتمع هو جار، يثبت له من الحقوق ما يثبت لغيره. ويؤكد هذا الرأي ما روي عن رسول الله في تحديد حدود الجوار. فقال رسول الله: من سمع النداء فهو جار. وعن عائشة أن حد الجوار أربعون دار من كل جانب، ومن صلى معك الصبح فهو جار(3).

فالأحاديث تحدد مقياسين لتحديد الجار، المقياس الأول هو تجاوز الوحدات السكنية، وحين نعد أربعين داراً، ثم نشرع في عد الدار الواحدة والأربعين، الوحدة فإنها تتجاوز مع الوحدة الأربعين، وبالتالي فإننا سننتقل من تجاوز الوحدات، إلى تجاوز الأحياء، فيتجاوز الحيين؛ في اشراكها في تجاوز الوحدة الأربعين والوحدة الواحدة والأربعين، وبالتالي فنحن أمام سلسلة مترابطة تربطها علاقة الجوار وما يتضمنه هذا المعنى من حقوق وواجبات.

أما المقياس الثاني فهو الإشتراك في أداء صلاة الصبح، وهو لا شك معنى أرقى وأهم من التجاور في الوحدات السكنية فتثبت الحقوق لكل من صلى معك صلاة الصبح، ولا شك أن هؤلاء المشتركين في المسجد قد يكونون من مختلف أحياء المدينة وانطلاقاً من هذه الأحاديث فإن الحكام والقضاة والمحتسبين يلزمون المعتدين من الجيران على دفع الأذى عن جيرانهم، ويلزمونهم بدفع كل ضرر عنهم، كما يلزمونهم بضمان ما أئلف من مال الجار، جراء بعض تصرفاتهم، ومن الأضرار التي تدفع على الجار انطلاقاً من هذه الأحاديث.

- ضرر الأشجار

¹ - ابن حجر: مصدر سابق، ج 10، ص 445

² - نفسه، ج 10، ص 446.

³ نفسه، ج 10، ص 447.

ثالثاً: العمارة وأصول الفقه

1. العرف:

والعرف في مجال فقه العمران يمكننا أن نقسمه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول:

وهو العرف الذي يرجع إليه الفقهاء، ويعتمدون عليه في استنباط الأحكام الشرعية في المسائل النازلة التي ليس فيها نص من قرآن أو سنة، فإذا استنبط الفقهاء الحكم الشرعي، اعتمده القضاة في الفصل بين المتنازعين. وشأن هذا العرف أن يختلف باختلاف الأمصار والأحوال كهيئات اللباس، والمسكن وكيفية بناءه، وما عليه الناس من إسراف أو اقتصاد في البناء، وهذا النوع من العرف قال فيه الشاطبي يجوز القضاء به، وهو قاعدة محتاج إليها في القضاء.¹

وقد وضع الفقهاء عليه عدة قواعد فقهية تساعد في استنباط الأحكام، كما يمكن أن تساعد القاضي في قضاءه بين المتخاصمين، ومن هذه القواعد: "العادة محكمة" والمعروف عرفاً كالمشروط شرطاً" و"التعيين بالعرف كالتعيين بالشرط" و"الممتنع عادة كالممتنع حقيقة".²

النوع الثاني:

وهو العرف الذي تقره الشريعة، إذا كان متعارفاً عليه بين الجيران لتحديد الأملاك فوضع اليد والتصرف بالبناء والهدم والغرس والقلع دليل على الملك، ومن الأمثلة التوضيحية لهذا النوع، أن الظاهر ببيرس قام بمطالبة أصحاب الأملاك والعقارات داخل مدينة القاهرة بالوثائق التي تثبت ملكيتهم لما تحت أيديهم، وهدد كل من يقدم الحجة بانتزاع ما في حوزته، فأنكر عليه علماء القاهرة، وعلى رأسهم الإمام النووي (ت676هـ) وأخبره أن فعله غاية في الجهل، وأن كل مسلم مالك لما تحت يده

¹ - الشاطبي: مصدر سابق، ص 223، 224.

² - راجع كتاب الأشباه والنظائر، 89-95.

وتصرفه، ولا يحتاج إلى بيئة،¹ فُعدل الظاهر بيبرس عن أمره، وأقر ملكية الناس لما تحت أيديهم دون بيئة.

النوع الثالث:

ولعل هذا النوع، هو أكثر الأنواع ارتباطا بفقهاء العمران، وأكثره تأثيرا فيها، فالناس داخل المجتمع الواحد يتصرفون بطريقة بنائية متشابهة، إذ يستخدمون نفس الطرز البنائية ونفس مواد الإنشاء ونفس المخططات، فينشئون بذلك أعرافا بنائية، ويستخدم البعض الحجارة في مبانيهم، بينما يعدل بعضهم الآخر إلى استخدام الطوب، غيرهم الآخر، ويستخدم بعض السكان الطابق الأرضي في بعض المناطق كمخازن وإسطبلات للحيوانات، بينما يستعملها غيرهم كوكالات ومتاجر.²

ويكثر أهل القاهرة من استخدام الحجارة، ويعتمد أهل اليمن عرفا بنائيا واحدا لا يكاد يختلف، أما أهل الصحراء في الجزائر فقد شاع عندهم نمط بنائي يعرف بالقصور.

وهذه الأعراف البنائية أيضا تختلف من منطقة إلى أخرى، وإن كانت تجمعها الكثير من الخصائص سواء الوظيفية أو الاجتماعية أو الدينية.

ونتيجة لاختلاف الأعراف البنائية، تعددت الطرز المعمارية المختلفة، وهي وإن كانت تخضع لنفس المبادئ، ولها نفس الخصائص تقريبا، إلا أنها متنوعة بسبب اختلاف البيئة، واختلاف مواد البناء، فنعثر على طرز معمارية متنوعة للمساجد، ونجد المساجد ذات الدعامات، والمساجد ذات القبة المركزية، و في كل بقعة من العالم الإسلامي نجد أنماطا مختلفة للمساجد، ويقاس على المسجد المنشآت المعمارية المختلفة.

تطبيقات العرف في مجال البناء:

تتجلى أهمية العرف كمصدر من مصادر التشريع في المجال العمراني في إثبات الحقوق لأصحابها عن الفرق المتجاورة، وتساهم بقدر هام في حل النزاعات العالقة بين هذه الفرق، وذلك عند انعدام النصوص التي تحدد الحقوق والحريات.

¹ - خالدعزب: مرجع سابق، ص 81.

² - نفسه، ص 18.

وتعطينا كتب النوازل فكرة واضحة عن أهمية العرف كمرجعية وقاعدة محكمة في ما يعرف بنوازل البنيان.

فذكر الونشريسي نقلا عن القاضي أبو عمر ابن منظور: "إن العرف قاعدة محكمة في نوازل البنيان". وذكر في إجابة له عن سؤال "حكم من بنى فرن على فرن" ما نصه: "وينبغي للمشاور في مسألة ما أن يحضر عند ذلك أمورا، يبني عليها فتواه، ويجعلها أصلا يرجع إليه منها مراعاة العوائد في أحوال الناس وأقوالهم وأزمانهم لتجري الأحكام عليها من النصوص المنقولة عن الأئمة ولأجل هذه ولمراعاة ما جرى على ألسنة العلماء في كثير من المواضع المنقولة فيها اختلافاتهم أن يقولوا هذا اختلاف في حال لا اختلاف في مقال، وقد نقل بعض الناس الإجماع على مراعاة ذلك وإن الفتاوى تختلف عند اختلاف العوائد..."¹

ويقول ابن الرامي: "أن العرف والعادة عندنا، أنه إذا كانت دار معقودة الحيطان بعضها إلى بعض، فتكون تلك الدار بنيت قبل ما جاورها من دور"²
ويقول صاحب القوانين الفقهية: "فعد التنازع في الجدار، يحكم لمن يشهد العرف بأنه له، وهو لمن كانت القمط له والعقود."³

والأمثلة على الرجوع إلى العرف في أحكام البنيان كثيرة وسنكتفي بذكر بعض الأمثلة والنماذج على سبيل المثال لا الحصر.
النموذج الأول:

يذكر لنا الونشريسي عن ابن عتاب فتوى للفقهاء في عصره، وهي أن رجلا فتح بابا له في الزقاق النافذ وهو ضيق، فادعى جاره أنه يضربه، وأن الداخل والخارج من هذا الباب ينظر إلى حريمه. فقال الفقهاء ننظر إلى العادة الجارية عندهم، فإن كانت العادة عندهم أن للجار فتح ما يشاء من الأبواب في الزقاق، فلا يمنع الرجل من فتح باب في الزقاق، وقال غيرهم من الفقهاء يمنع من فتح الباب نقلا عن التونسي، وتغليباً

¹ الونشريسي: مصدر سابق، مج8، ص 466.

² ابن الرامي: مصدر سابق، ص 134.

³ ابن الجزري: القوانين الفقهية، ص 85

للمضرة، وبهذا القول قال ابن عتاب، واحتج بأن ذلك موافق لعرف وعادة وقته، لا جل ما ينشأ عن ذلك من مفسد.¹

النموذج الثاني:

سئل الشيخ أبو عبد الله المزري عن ملكيه ماء المطر الذي هوفي مواجل الدار المؤجرة، هل هو ملك لصاحب الدار أو المؤجر، فأجاب بأنه ينظر إلى العادة الجارية بين الناس، فيحكم بها وذكر أن المسألة محل خلاف بين فقهاء القيروان وفقهاء مهديه فكان هؤلاء يفتون بأن ماء المواجل للمؤجر، والعلة في ذلك أنه قد أجر الدار بكل منافعتها، واعتمد المزري في بداية الأمر بهذه الفتوى فكان يفتي بها، ثم عدل عنها وأفتى بالنظر إلى العرف قائلا: "ثم عدت بعد سبع سنوات إلى التعويل على العادة"² فهذه الواقعة اعتمد فيها المازري على تحكيم العرف، ولا شك أيضا أن سبب الخلاف بين الفقهاء القدماء مرده إلى اختلاف عوائد الناس، وأعرافهم، لافتقار المسألة إلى سند شرعي قوي ترجع إليه.

النموذج الثالث:

وفي نازلة أخرى، فتح رجل بابا وحانوتين محاذاة لباب جاره، فكان إذا دخل أحد إلى داره أخرج منها نظرا إليه من كان جالسا في الحانوت، فادعى عليه الجار بالضرر، فأفتى الفقهاء بغلق هذه الأبواب رفعا للضرر عن الجار، فعلق ابن الرامي بقوله: "والذي عليه العمل عندنا، وتقدم رأي شيوخنا منع ذلك وحماية بابه"³. وتعليق ابن الرامي فيه دليل على مشروعية الأخذ بالعرف في باب القضاء بين المتخاصمين، إذا أعوزهم الدليل من القرآن والسنة.

2. الأخذ بالمصلحة في مجال العمران:

¹ - الونشريسي: مصدر سابق، مج8، ص 465.

² - ابن الرامي: مصدر سابق، مج2، ص 429.

³ - نفسه، ج2، ص 275.

تعريف المصلحة:

المراد بالمصلحة مراعاة مقصود الشارع ومقصود الشارع هو المحافظة على الدين والمال والعقل والنفس وهذه الأصول هي معيار المصلحة وما فوتها كان مفسدة.¹ ويعرف الطاهر بن عاشور المصلحة بأنها وصف للفعل، يحصل به الصلاح أي النفع منه دائما أو غالبا للجمهور أو الآحاد.²

وتعتبر المصلحة والمصلحة المرسلة من أهم المصادر التي اعتمد عليها الإمام مالك في استنباط الأحكام وسار عليها أعلام مذهبه وتلامذته، ولا يقتصر الاعتماد على المصلحة في استخراج الأحكام في ميادين التشريع المختلفة، بل يتعداه ليشمل جانبا لا يقل أهمية، وهو التشريع لأحكام البنين، ولقد أفاض المالكية في استعمال المصالح المرسلة، ولهم الكثير من النوازل التي اعتمدوا فيها على المصلحة،³ وأثر الاستناد إلى المصلحة على حركية العمران.

كما أثر عمل الفقهاء بالمصلحة المرسلة على توجيه القضاء في النوازل وخاصة تلك التي لها علاقة بالبناء.

فتراعي مصلحة الفرد في البناء واتخاذ ما يصلحه ويصلح أسرته من مرافق دون أن تتدخل السلطات أو الأفراد في منعه، ما لم يلحق الضرر بهم، فمن حق الشخص أن يبني ما شاء من الغرف، بما يفي بحاجاته في البناء، بحيث يوسع على عياله وله أن يتخذ ما شاء من الحوانيت في داره، كما له أن يبني ما يحتاج إليه من أدوار.

كما راعت الشريعة المصلحة الخاصة - مصلحة الفرد في البناء - من خلال إعطائه حرية التصرف في ملكه بما لا يؤذي غيره، فإنها كذلك راعت مصلحته بتوفير ما يحتاج إليه من مرافق عامة، ووحدات حيوية، كإنشاء الطرقات ومد الجسور، وبناء المدارس والمستشفيات وإن كانت هذه المرافق تسمى عامة فإنها لا تعدوا أن تخدم مصلحة الفرد بما يضمن له القدر الكافي من الرفاهية والاستقرار.

ويقسم الفقهاء المصلحة إلى أقسام مختلفة لاعتبارات شتى وأهم هذه التقسيمات:

¹ - علال الفاسي: الشريعة الإسلامية ومكارمها، ط4، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب 1991، ص 142.

² - الطاهر بن عاشور: "مقاصد الشريعة"، ص 65.

³ - نفسه، ص 65.

المصلحة العامة:

وهي ما فيه مصلحة الأمة، ولا التفات فيها إلى الأفراد من حيث أنهم جزء من هذه الأمة، ومن أمثال هذه المصالح توسيع الطرقات،¹ وتسويتها وإنارتها بالليل، وبناء ما يحتاج إليه الناس في عموم مصالحهم كالمساجد والقناطر وأسوار المدن...

المصلحة الخاصة:

وهي ما فيه نفع لخواص الناس من خلال صدور أفعالهم على وجه يوافق هذه المصالح،² فإن تصرفوا على هذا الشكل صلح بذلك حال المجتمع، فالتفاوت والقيام بمصالح الأفراد فيه صلاح العموم، والشريعة راعية لمصالح الأفراد من خلال النصوص ومن خلال الإذن لهم بحرية التصرف في ممتلكاتهم الخاصة بما فيه نفع لهم.

تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة:

إذا تعارضت المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، فإن الفقهاء متفقون على تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، يقرر الشاطبي: أن المصالح العامة تقدم على المصالح الخاصة، كلما كان هناك تعارضاً، مستدلاً على ذلك بمسائل، منها تضمين الصناع، مع أن الأصل فيهم الأمانة، ومنها توسيع مسجد الرسول ﷺ عليه وسلم في عهد عمر مع معارضة بعض الصحابة لإلحاق الضرر بهم جراء هدم بيوتهم.³

وتقوم الشريعة الإسلامية بمراعاة مصالح الناس - المعمارية منها خاصة - حيثما كانت، وهذا لا يتحقق إلا بمراعاة جلب المصلحة ودرء المفسدة، وقد أجاد الفقهاء والأصوليون في استعمال هذا النوع من المصالح، ومثلوا له من مختلف فروع الشريعة، مما يدفع عنه الغموض، ونحن نختار من أمثلة الفقهاء والأصوليين ما يخدم دراستنا ويدعم رأينا في هذا المجال.

فالإمام الشاطبي يرى: أن جلب المصلحة إذا كان مؤذوناً فيه فهو على قسمين:

¹ - الطاهر بن عاشور: مرجع سابق، ص 65.

² - نفسه، ص 66.

³ - حمادي العبيدي: الشاطبي ومقاصد الشريعة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1، ص 147.

القسم الأول: أن لا ينتج عنه ضرار للغير،¹ وعليه فإن للمالك أن يتصرف في ملكه بما يخدم مصلحته، فله أن يفتح كوة أبوابا حيث شاء من بيته، وله أن يحول داره إلى حانوت حدادة ونحوه فيما فيه إضرار بالناس عادة.

القسم الثاني: وهو ما نتج عنه إضرار بالغير سواء قصد إلى ذلك أولم يقصد.²
ومثال الأول:

كالذي يفتح الكوة ليطلع على دار جاره³ ونحوه من الأمثلة وهي كثيرة في أبواب الفقه ولا اختلاف بين الفقهاء أن القصد إلى الإضرار بالجيران ممنوع. ويدفع أذاه قضاء، ويلزمه القاضي بضمان ما أتلفه إن تسبب فعله في إتلاف مال جاره.⁴

ويرى بعض العلماء أنه إن لم يمكن دفعه بأي وجه من الأوجه، وأن هذا الشخص وإن كان قاصدا للضرر، ولم يكن له بد من ذلك العمل الذي فيه مضرة، فلا يمنع من التصرف في ملكه، وهو ممنوع من قصد الضرر، ومثال ذلك من فتح بابا وحانوتا مقابل دار جاره، بحيث يضر به فأفتى ابن الحاج بأن الباني يوصى بالتكيب عن باب جاره، وإن لم يجد إلى ذلك سبيلا ترك ولا يحكم عليه بغلق ما فتح من تحقق الضرر.⁵

وما ينتج عنه إضرار بالغير فينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام:
ما كان أداءه إلى المفسدة نادرا فهومأذون في فعله، لأن المصلحة إن كانت راجحة فلا عبرة بالضرر اليسير،⁶ لأنه لا توجد مصلحة محضة، فلو افترضنا أن رجلا فتح بابا في زقاق مسلوك ونافذ مقابل دار جاره، فاعترض عليه جاره وادعى

¹ - أبو اسحاق الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق محمد فاضلي، المكتبة العربية، بيروت، ط1، ج2، ص 257.

² - نفسه، ص 258.

³ - ابن الرامي: مصدر سابق، ص 257، ج2، راجع أيضا: ص: 252، 253، 254، 255، 256، الوشرسي: ج9، ص 448، 449، 450، 451.

⁴ - راجع ابن الرامي: ص 217، 218، 219، 225.

⁵ - الشاطبي: مصدر سابق، ج2، ص 280.

⁶ - الوشرسي: مصدر سابق، مجلد9، ص 25.

الضرر فأفتى الفقهاء بنفاد فعل الرجل،¹ وتعليل الفتوى أن الضرر اللاحق بالجار في الباب يسير لعمران الدرب السلوك، وهو بخلاف الدرب غير النافذ. ما كان أداءه للمفسدة ظنيا، وهذا الباب مما يلحق بسد الذرائع والأرجح منعه، وقد أفتى الفقهاء بمنع التصرفات التي قد يتوقع منها الضرر. ما كان أداءه للمفسدة غالبا والأصل فيه المنع.²

تطبيقات المصلحة في مجال العمران:

ساهم هذا المصدر في إثراء المنظومة العمرانية الإسلامية، فسيطرت على حركية العمران من خلال مراعاة الناس لمصالحهم أثناء البناء ومراعاة الجماعات المتجاوزة لمصالحهم ومصالح بعضهم البعض، ومراعاة السلطة لمصلحة الأفراد، فاتخذت الطرق، والحدائق العامة، والفنادق....

واعتمد الفقهاء وخاصة المالكية منهم على هذا العنصر الاستدلالي، واستعان به القضاة والولاة في أفضيتهم المختلفة، ومن أهم القضايا التي اعتمد فيها الفقهاء على هذه القاعدة، ما يعرف بنزع الملكية، وأحتج الحكام بأرائهم في نزع الملكيات من أصحابها من أجل المصلحة العامة.

ومن الأمثلة المشهورة في كتب الفقه في مجال البناء.

القضاء بتضمين الصناع:

وكان الصناع على تشعب اختصاصاتهم في بداية الإسلام لا يضمنون ما في أيديهم، فلما فسدت ندم الناس، أمر الإمام علي بن أبي طالب بتضمين الصناع وقال: "لا يصلح الناس إلا ذلك" فجميع الناس لهم حاجات إلى الصناع وهؤلاء يغيبون على ما تحت أيديهم، مما قد يؤدي إلى ضياعها فصار يغلب عليهم التفريط.³ ولولم يأمر بتضمينهم لأدى ذلك لأمرين:

¹ - الشاطبي: مصدر سابق، ج2، ص 263.

² - نفسه، ص 268.

³ - الشاطبي: "الاعتصام"، ص 257.

- 1- ترك الإستصناع بالملكية وهذا مما يشق على الناس.
 2- ترك تضمين الصناع، فيفرطوا في ما تحت أيديهم بدعوى الهلاك فتضيع أموال الناس.

وينتج عن هذا أن البناء لا يضمن ما تحت يده من بناء مع تفریطه بدعوى التلّف، ويقاس عليه الحداد والنجار وأرباب الصناعات المختلفة.
 فمراعاة لمصلحة الناس، يضمن الصناع البناء وكل ما يتعلق به، بضمان كل ما أتلف تحت أيديهم. وهذا المبدأ يجعلهم أكثر حرصا ورعاية لما أسند إليهم من صناعات، فيقل التفریط والتهاون عندهم، و بذلك يأمن الناس على أموالهم.

نزع الملكية من أجل توسيع المساجد:

وقياسا على ما سبق فإن للسلطة أو الحاكم، نزع الملكية من جيران المسجد إذا ضاق بأهله واحتاجوا لتوسعته. فقد ضاق مسجد سبته عن أهله من المصلين، فصلوا في الشوارع والطرق، واحتاج الناس إلى الزيادة في المسجد، وكان حوله حوانيت لأناس شتى، فطلب منهم القاضي أبو عبد الله بن عيسى بيع ما تحت أيديهم من حوانيت من أجل زيادتها في المسجد، فامتنع البعض منهم وادعى البعض أن هذه الحوانيت، أوقاف تحت أيديهم، فبعث القاضي إلى ابن رشد يسأله: عن جواز إجبارهم على البيع بالقيمة؟

فرد أبو الوليد ابن رشد بأنه، إن ضاق المسجد على أهله واحتاجوا أن يزيدوا فيه، ولم يكن حوله ما يزداد فيه إلى هذه الحوانيت التي رفض أصحابها البيع، فالواجب في ذلك أن تؤخذ عليهم بالقيمة، ويحكم عليهم بذلك ولو أبوا،¹ واستدل على ذلك بمراعاة مصلحة الناس وما يؤول إليه حالهم من ضرر، إن هم صلوا في الشوارع والطرق، خاصة في أوقات الشتاء، والضرر الذي يلحق بهم دون شك هو أشد من الضرر الذي يلحق بالأفراد عند البيع عليهم.



¹ - ابن رشد: "مسائل أبي الوليد ابن رشد"، تحقيق محمد الحبيب، دار الإفاق الجديدة، مجلد 1، ص 215.

وبه حكم عثمان رضي الله عنه، في من امتنع عن بيع داره لزيادتها في المسجد النبوي عند توسيعه.¹

نزع الملكية من أجل توسيع الطريق:

وروي عن سحنون في نهرٍ يوجد على حافته طريق يستعمله الناس ففاض النهر وتسبب في إهلاك الطريق واستحال على الناس استعمالها وكان بجانب الطريق أرض لرجل، وليس لهم سبيل يسلكونه إلا أن يفتطعوا من أرض الرجل، فيجوز للإمام أن يأخذ لهم طريقاً من أرض هذا الرجل، ولو امتنع عن ذلك أكرهه وأعطاه قيمتها، ثم ذكر أن هذا الحكم من باب القضاء على الخاصة لمصلحة العامة، وهو قول الإمام مالك وغيره من أهل العلم.²

ويعرض ابن الرامي للقضية بتفصيل وشرح أوسع مما تناوله ابن رشد، قال إن كانت هذه الطريق مما يستغني عنها الوجود وغيرها ومن غير مشقة سار الناس إليها ولم يجبر صاحب الأرض على أن يبيع من ملكه دون رضاه.

أما إن لم يكن للمسلمين طريق غيرها ففي المسألة رأيين:
الرأي الأول: وهولسحنون ومفاده أن القاضي يلزم صاحب الأرض البيع، ويعطيه قيمتها.

أما الرأي الثاني: فهو لابن حبيب ومفاده أن المالك لا يجبر، ولا يؤخذ من أرضه شيئاً دون رضاه، وبهذا قال ابن الماجشون وهو قول أصبغ. ونقل ابن الرامي عن الفقيه ابن أبي عبد الرافع، أن صاحب الأرض يُدعى ويُوجه إلى فعل الخير ولا يُجبر على ذلك.³

ونحن نرجح القول الأول، عملاً بالمصلحة لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، إذ لا يتحقق الصلاح إلا بذلك، إذا كيف يصنع الناس لو امتنع صاحب الأرض ولم يجبره الحاكم؟ فلا شك أنه سيلحقهم الضرر وتتعلل مصالحهم، وتقل عندهم المؤن والماء إن كان ذلك لا يدرك إلا بصلاح الطريق.

¹ - ابن رشد: مصدر سابق، ص 216.

² - نفسه، ص 216.

³ - ابن الرامي: مصدر سابق، ج2، ص 578.

نزع ملكية العقار المجاور لأسوار المدينة:

ومن الأمثلة التطبيقية لنزع الملكية من أجل المصلحة العامة ما ذكره
الونشريسي في المعيار أن بعض العلماء: سئل هل للحاكم أن يأخذ ممن كان له قرب
سور البلد جنان، وخشي أن يأتيه العدومن ذلك المكان؟ فأجاب بأن للحاكم أن ينتزع
ملكية الجنان من هذا الرجل ويعطيه قيمتها، كما هو ثابت في أصول الشريعة، وأصول
المذهب المالكي، وله في المذهب شواهد كثيرة.

هذا إن كان دخول العدومتوقعا، وإن كان العدونازلا بأهل المدينة، فإن له أن
يهدمها عليه دون عوض،¹ وهذا مراعاة لمصلحة العموم ودفعا للضرر عنهم بحلول
العدوبلدهم وهلاك أنفسهم، وهي مصلحة راجحة عن مصلحة الفرد.

وذكر الونشريسي أن زجاجا حل ببلد فصار يعمل الزجاج بنوى التمر وهوقوت
أهل البلد، فارتفع ثمن النوى نتيجة لذلك، مع كثرتة ورخصه وحاجة الناس إليه، فأفتى
الفقهاء بأنه يمنع الزجاج من صناعة الزجاج، لأن حاجة الناس إلى النوى أعم من
حاجتهم إلى الزجاج،² ولا يخفى في هذه الحادثة تقديم المصلحة العامة على المصلحة
الخاصة.

وسئل بعض المفتين عن مسجد في مدينة وهوبقرب القلعة، بحيث يستطيع
الأعداء التسلق إلى القلعة من خلال حوائط المسجد، فهل لهم أن يهدموا جزءا من
المسجد مما يلي القلعة دفعا لضرر المحاربين على أنفسهم، فأجاب: يهدم هذا الجانب،
فإذا أمنوا أعادوه،³ ومع أن للمسجد حرمة فإن الفقهاء أفتوا بجواز هدمه حفاظا على
أرواح الناس عملا بالمصلحة.

ومن الأمثلة المتأخرة التي تدل على اعتبار هذا المبدأ اخذ بها الحكام في نزع
الملكية من أجل المصالح، ما ذكر من أن حاكم الجزائر العثماني، أمر بهدم المباني
والمساكن المحيطة بسور مدينة الجزائر، مخافة أن يستعملها الأعداء.

1- الونشريسي: مرجع سابق، مجلد9، ص22.

2- نفسه، مجلد 8، ص 440.

3- نفسه، مجلد 8، ص 445.

ونص الوثيقة: «...ولقد علمنا بوجود بعض الحداثق والبساتين بجوار قلعة الجزائر، وقد أرسل حكم إلى أمين أمراء الجزائر لإزالة تلك الحداثق والبساتين والأبنية على مرمي المدافع، حيث أن حفظ وحراسة والمحافظة على تلك الديار الجليلة الاعتبار وتأمين أمن وأمان الأهالي والرجال... هو غاية مقصودنا، فعليكم بموجب أمرنا القيام بتطهير وتنظيف أطراف القلعة من المباني وعلى بعد مرمى المدافع كي لا تصبح تلك بمثابة متاريس للأعداء إذا قدر لهم- والعياذ بالله- الاستيلاء على المدينة»¹.

ومن الأمثلة المتأخرة أيضا والمستقاة من الأرشيف العثماني بالجزائر، أن الحاكم العثماني أخذ دكانا من صاحبه وهدمه من أجل توسيع الطريق الذي يدخل منه عامة الناس إلى القيسارية، وتم ذلك مقابل عوض معلوم يدفعه له، ونص الوثيقة: " كان المعظم... السيد علي باشا... أخذ الدكان التي هي للشاب محمد بن أحمد بوشعته... الكائنة قبلة باب القيسارية، لتوسيع الطريق لكافة المسلمين ويأخذ بدلها السيد المذكور... ، ورضي بذلك ومكنها منه، وغيرت لأجل التوسعة المذكورة..."².

والأمثلة الدالة على العمل بهذه القاعدة كثيرة، وعامة لجميع بلاد الإسلام ولجميع

العصور المختلفة.

فالإمام أو من يقوم مقامه أن يأخذ ما تحت أيدي الناس من أموال من أجل الصالح العام، ولا يجوز له أن يأخذها منهم دون عوض، فإن رضوا بذلك كان الأفضل واستحقوا الحمد والشكر لتقديمهم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وقد علمنا أن الإيثار من الأخلاق الحميدة التي يجلبها الإسلام، فإن أبو التخلي على ما في أيديهم، ولم يكن للحاكم بد من أخذها من أيديهم، ليجريها لمصالح العامة، أخذها منهم جبرا بعوض، ولا يزعم أحد أن هذا مناف لأحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها ومخالف لمقتضى الحديث النبوي الشريف: " كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه"، فهذا حديث عام، تخصصه القرائن والنصوص النبوية، ومن هذه النصوص أن رسول الله (ص) أخذ من صفوان بن أمية سلاحا كان لديه دون موافقته ورضاه.

1- أحمد بن حموش: "فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري"، دار البحوث للدراسات

الإسلامية، وإحياء التراث، ط2، 2002، ص 108.

2- نفسه، ص 199.

وهذا الذي نقوله هو الذي جرى الأمر عليه في التشريعات الحديثة، فنجد الدولة قد تستولي على الأملاك الخاصة أحيانا بدعوى إقامة المصالح العامة كبناء الطرقات والمدارس والمستشفيات...مقابل عوض تدفعه لهم.

ونذكر هنا أن كثيرا من الباحثين في هذا المجال ينكرون على الدولة انتزاع الملكية من أصحابها بحجة إقامة المصالح العامة.¹ فيزعمون أنه لا يجوز للدولة أن تستولي على ما تحت أيدي الناس، بدعوى إقامة المصالح العامة، ويبقى الكلام صحيحا متى أمكن للدولة أن تستغني على ما في أيدي الناس من عقارات. ولكن ما هو الحل إن لم يكن للدولة خيارات أخرى غير الاعتداء على الملكيات الفردية؟ وكيف لها أن تشق أو توسع الطرقات؟ وأن لها أن تقيم المرافق الحيوية؟

ولنتصور لحظة أن جيران المسجد رفضوا التخلي عن ممتلكاتهم لفائدة المسجد، فكيف لنا أن نوسع مساجدنا وقد ضاقت بأهلها؟ ولنتصور أن الصحابة من جيران المسجد النبوي قد امتنعوا عن التخلي على دورهم، وليس لأحد أن يجبرهم على التنازل عليها، فهل كان بالإمكان أن يوسع المسجد النبوي؟

1- أنظر: جميل عبد القادر أكبر، مرجع سابق، ص 232...235.

3. العمران ومقاصد الشريعة:

تعريف مقاصد الشريعة: هي الحكم المقصودة للشارع في جميع أحوال التشريع،¹ أو هي المصالح التي جاءت الشريعة من أجل حمايتها للناس. وتنقسم المقاصد إلى ثلاثة أقسام رئيسية وهي:

المقاصد الضرورية:

وهي التي لا بد منها من أجل قيام مصالح الناس الدنيوية والأخروية، فإذا فقدت لم تجر مصالح الناس على استقامة فليحققهم الفساد.² والمصالح الضرورية خمسة وهي: حفظ الدين. حفظ النفس. حفظ النسل. حفظ العقل. حفظ المال.

المقاصد الحاجية:

وهي المقاصد التي يفتقر إليها الإنسان من حيث التوسعة على نفسه، ورفع الحرج والضيق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة الآخرة بفوت المطلوب، فإذا لم تراعى الحاجيات دخل على المكلفين الحرج والمشقة بحيث لا تبلغ مبلغ الفساد الناتج عن فقد الضروريات.³

التحسينيات:

والمراد بها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب الأحوال المذنبات التي يأنفها أصحاب العقول الراجحة، وتتفر منها النفوس السليمة، ويدخل ضمنها الأخذ بمكارم الأخلاق.⁴

تطبيقات مقاصد الشريعة في مجال العمارة:

من أجل الحفاظ على مقاصد الشريعة فإن الشريعة أحاطتها بسياج من الأحكام والتشريعات المختلفة، والتي من شأنها تحقيق الغاية التي من أجلها وضعت هذه المقاصد، ولما كانت أحكام العمارة لا تخرج عن أحكام الفقه، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمصالح الناس، فإنّ الشارح الحكيم عزّز هذا الجانب بجملة من الأحكام المختلفة،

1- الشاطبي أبو إسحاق: مصدر سابق، ص 8.

2- نفسه، مج 1، ص 7.

3- نفسه، مج 1، ص 7.

4- نفسه، مج 1، ص 08.

والتي تهدف هي أيضا إلى رعاية مصالح المكلفين في هذا الجانب الذي لا يقل أهمية عن باقي الجوانب، ولوثأملنا هذه الأحكام فإننا نستطيع إدراجها تحت المقاصد التي جاءت الشريعة لحمايتها للمكلفين.

وسنحاول في هذا الموضوع من البحث أن نرتب بعض أحكام العمارة ضمن أقسام المقاصد المعروفة، مع إعطاء أمثلة توضيحية متى أمكننا ذلك.

حفظ الدين:

ومن أجل حفظ الدين شرع الله بناء المساجد (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها كلام الله)،¹ وقال رسول الله (ص): " من بنى مسجدا بنى الله له مسجدا في الجنة"² ولوترك الناس بناء المساجد لتأذوا من الصلاة في الفلوات، ويضاف إلى ذلك أن المسجد قد يشغل عدة وظائف أخرى، فقد يكون بمثابة المدارس، يتعلم فيه الصبية والناس أمور دينهم، فلولم يجدوا مساجدا مشيدة لعدلوا عن طلب العلم الشرعي، ولقد كان المسجد النبوي مؤسسة جامعة، تؤدى فيه الصلوات، ويعقد فيه رسول الله مجالس العلم، ويجلس فيه للقضاء بين المتخاصمين، ويناقش فيه الأمور السياسية والحربية... وتعتبر المساجد من مظاهر الإسلام، بل هو من أعظم شعائر الإسلام، يرفع من فوقه الأذان، ويلحق ببناء المساجد بناء المدارس والزوايا، يأوي إليها الناس لطلب مختلف العلوم.

ولا نقصد بأن إقامة المساجد وبناء المدارس والزوايا... هو من قبيل الضروريات التي حددها الشاطبي وغيره من الأصوليين، ولكننا نقصد أنها مما يلحق الضروري بحيث لا تستقيم حياة الناس إلا به.

ومن أجل حفظ الدين الإسلامي، تم اختيار مواقع المدن وبناء المرافق العامة، واختيار موضع المسجد الذي يحتل وسط المدينة، كانعكاس لمكانة المسجد وابرار دوره داخل المجتمع.

1- سورة النور: الآية: 46.

2- ابن حجر: مصدر سابق، مج 1، ص 544.

وعند بناء المساكن والمرافق الحيوية روعيت فيها القيم والمبادئ الإسلامية، على مستوى البناء والوظيفة والنسب والمقاييس.¹

ولوابتعدنا قليلا على المقاصد الشرعية المحددة، لقلنا أنّ بناء المساجد وإقامة المدارس، والجامعات... لا تقلّ أهميّة عن حفظ الدّين، إذ لا يستقيم دين الأمة إلاّ إذا حافظ الناس على صلواتهم، ولا يحافظون على صلواتهم إلاّ إذا شيّدت المساجد التي تقيهم حرّ الصّيف وبرد الشّتاء، ولا يحصل ذلك إلاّ إذا تعلّم الناس أمور دينهم، ولا يحصل لهم ذلك أيضا إلاّ إذا وجد من يعلمهم أمور دينهم، ولا يتصوّر هذا الأمر إلاّ بوجود المساجد والمدارس والزّوايا.

حفظ النفس:

ولحفظ الأنفس أمر الشّارع بالأعداد لمواجهة الأعداء، وإعداد ما يدفعون به من إعتداءهم، ويدخل في هذا السّياق بناء الأمصار (مدن الجند)، فقد أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عتبة بن غزوان باتّخاذ مصرا يحول به بين جند فارس وجند المسلمين فقال له: "سّر إلى ناحية البصرة واشغل من هناك من أهل الأهواز وفارس وميسان عن إمداد إخوانهم على إخوانك"،² فنتج عن ذلك مدينة البصرة والكوفة ثمّ الفسطاط والقيروان، وغيرها من المدن الإسلامية. واختيار المدن يراعى فيه أن لا يكون كثير انتشار الأوبئة والأمراض، مما قد يؤدي إلى هلاك الأنفس.

وفي القصور الصحراوية بالجزائر، يراعى أن يكون امتداد القصر من ناحية القبلة (جنوبي - شرقي)، لأنها تتوفر على الشمس والهواء النقي، وما يمثل ذلك من حفظ الأبدان والأنفس من الأمراض والعلل.

وزيادة في الإحتياط للأنفس والأبدان روعيت في المساكن صياغة فضائها وهيكلتها و مواد إنشائها، المسألة الصحية والمناخية، بشكل يدفع عنها عوارض الطقس وتقلباته.³ ويدخل تحت هذا المقصد تصوير المدن لحمايتها من هجوم الأعداء، وحفاظا

¹ محمد التريكي وخالد بوزيد: المعمار والممارسة الاجتماعية، المعهد التكنولوجي للفنون والهندسة المعمارية، تونس، 1989. ص 111.

² البلا نري: مصدر سابق، ص 336.

³ محمد التريكي وخالد بوزيد: المرجع السابق، ص 113.

على أرواح الناس وأموالهم، وقد ثبت أن رسول الله (ص) حفر الخندق ليحول بينه وبين كفار قريش في غزوة الخندق.¹ ولحفظ الأنفس يشرع بناء القلاع والرباطات وأبراج المراقبة وبناء المستشفيات للعلاج، وفي السنة أن رسول الله (ص) ضرب خيمة داخل المسجد النبوي لتطبيب المرضى في الغزوة السابقة الذكر.²

وحفظ النفس غريزي في الإنسان، وقيام العمران البشري ومختلف الظواهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تقوم عليها ظاهرة الدولة، إنما قامت على مبدأ حفظ النفس، فالإنسان حين يبني المدينة، ويحيطها بسياج من الأسوار، ويقوم بها المرافق الضرورية، إنما يفعل ذلك بقصد حفظ نفسه من الهلاك أو التلف الذي قد تتعرض له.

حفظ العقل:

ولحفظ العقل شرعت أيضا بناء المساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب، ومنع اتحاد الخمارات والحانات وبيوت اللهو والعبث، وأمر الحاكم بإتلاف هذه الدور. وروي أن عمر بن الخطاب أحرق بيت رويشد النقي وكان حانوتا "دكانا للخمر".³

حفظ المال:

ولحفظ المال شرع الله بناء الأسواق وأمر بتنظيمها ومنع البناء داخل أسواق الناس، أو فرض الخراج عليهم، كما منع من تضيق الطرقات بالبناء فيها أو الجلوس بما يفوت مصالح الناس، ومنع تجاور بعض الحرفيين كالخزّار والحدّاد حفاظا على أموال الخزّار من الهلاك.⁴

كما شرعت الشريعة بناء الفنادق والخانات يأوي فيها التجار، وتحفظ فيها أمتعتهم وسلعهم من اللصوص وقطاع الطرق، وقد ورد ذكر الفنادق والخانات في قوله تعالى: (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم).⁵

1- صفى الدين المباركفوري: الرحيق المختوم، دار إحياء التراث، القاهرة، ص 291.

2- ابن حجر: مصدر سابق، ج7، ص392.

3- السيوطي: مصدر سابق، ص 185.

4- نفسه، ص 185.

5- سورة النور: الآية 29.

ومن أجل حفظ المال قام المحتسب بمراقبة البنّاعين والصناع والحرفيين وبعين لذلك العرفاء من التّقاة ممن لهم بصارة بهذه الحرف والصناعات للحفاظ على أموال الناس وصناعاتهم من التلف والهلاك،¹ ويلحق بحفظ المال النهي عن الإسراف والتبذير في البناء، والإقتصار على مواد البناء اللازمة والضرورية، والإكتفاء بالبناء الذي يفي بالحاجة*.

حفظ العرض:

ولحفظ العرض شرّعت الشريعة بناء المساكن، ومنعت أصحاب المساكن العالية من النظر إلى جيرانهم، ومنع المحتسب التّكشّف على أسطح المسلمين، ومنع الجار من فتح الكوة أو النّافذة على حريم جاره، حفاظاً وصوناً لأعراض الناس من عيون وألسنة السّوء، ومنع من اتّخاذ بيوت الدّعارة والفساد، وكتب عمر إلى عمرو بن العاص: "إنه بلغني أن خارجة بن قدامة، بني غرفة. ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدمها، إن شاء الله والسلام"².

وذكر أيضاً أن رجلاً بني داراً قرب المسجد وقصرها للفساد، فراجعها الناس فأبى، فأفتى الفقهاء بهدمها.³

الحاجيات:

ولحفظ الحاجيات أجازت الشريعة اتّخاذ الحمامات والدخول إليها والخانات والتّنايا، ونظّمت أمور الشوارع والطرق... وكل ما يتعلّق بأمر البناء بحيث لا يبلغ في الأهمية ما ذكرناه سابقاً فهو يلحق بالحاجيات.

التحسينيات:

وذكرنا أن التّحسيني هي ما يعود إلى العادات الحسنة والأخلاق الفاضلة والمظهر الكريم.⁴ فكلّ أمر في العمارة الإسلامية يدخل في هذا الجانب فهو من باب

¹ خالد عزب: مرجع سابق، ص 85، 86.

* أنظر مبحث البناء قدر الحاجة، ص 192 من هذا البحث.

2- السيوطي: مصدر سابق، ص 117.

3- نفسه، ص 117.

4- محمد الطاهر بن عاشور: مرجع سابق، ص 83.

التحسيني ومن ذلك المبالغة ببناء المساجد وأخذ المنارات والقباب والمبالغة في الزخرفة ولتأخذ الميضات في المساجد والصّحون والمقصورات والمحاريب.... إلخ. تمثل مقاصد الشريعة في مجال العمران ضابطاً هاماً فيما يحكم حركة الفعل المعماري داخل المدينة الإسلامية. ويسيطر على حركة الإنسان داخل مجتمعه وبيئته، ويعين الحدود الحمراء التي لا ينبغي الساكن أو الجار أو الباني أو المؤجر أن يتجاوزها حتى لا يضرّ بغيره.

فمقاصد الشريعة، هي المجال الذي يمكن للفرق المتجاورة أن تعتمد عليه لتسيير شؤونها الخاصة في مجال البناء وكل ما تعلق به، فكل فعل معماري فوق مصلحة أو جلب مفسدة أو أخل بمقصد من مقاصد الشريعة فهو ممقوت ولو كان في أصله ومنطقه مباح لصاحبه.

رابعاً: المؤسسات المؤثرة في مجال العمران

أولاً: نظام الحسبة

يعد نظام الحسبة من الوظائف التي إنفردت بها المدينة الإسلامية، وكان لنظام الحسبة دور كبير في تكوين عناصر المدينة والحفاظ عليها من خلال المراقبة المستديمة والمتواصلة للنشاطات المختلفة داخل المدينة.

وذكر الفيروز آبادي: أن الحسبة هي الأجر، والاسم من الاحتساب، وهو حسن الحسبة، حسن التدبير، وتحسب توسد، واستخبر عليه أنكر، ومنه المحتسب.¹ ويعرفها ابن خلدون بأنها: "وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمر المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلاً له، فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك. ويبحث عن المنكرات ويعزرو ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل: المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحماليين وأهل السفن من الأكتار في الحمل والحكم على كل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة."² ويعرفها الماوردي: "على أنها أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله."³

والحسبة من أهم خصائص المجتمع الإسلامي وهي تستمد شرعيتها من قوله تعالى: "لأخيري كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقه أو معروف أو إصلاح بين الناس،"⁴ ومن الآيات الدالة على مشروعية الحسبة قول الله عز وجل: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"⁴ وقوله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله."⁵

¹ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ج1، ص57، 56.

² ابن خلدون: المقدمة، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة، ص220.

³ الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص207.

⁴ سورة آل عمران، الآية106.

⁵ سورة النساء، الآية114.

وأول من قام بوظيفة الحسبة هو النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراقب الأسواق، ويأمر الناس بالالتزام بتعاليم الإسلام في البيع والشراء، ويحثهم إلتزام الاخلاق الحسنة في الشوارع والطرق، ثم ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه على سوق المدينة، وبعد فتح مكة ولى على الحسبة سعيد بن العاص.¹ وكان في هذه الفترة المتقدمة من الإسلام، يسمى القائم على الحسبة "عامل السوق".

وحين تولى الخلافة عمر بن الخطاب سار على نهج النبي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان يحرص على العدل بين الناس، وأول من أحتسب عليهم عمر بن الخطاب هم الولاة والأمراء، وكان رضي الله عنه يجوب السوق والطرق، فيؤدب بدرته كل مخالف لأمر الشريعة. وكان عمر يستعمل على السوق الواحدة أكثر من محتسب، فأستعمل عبد الله بن عتبة بن مسعود، والسائب بن يزيد، والعلاء بن الحضرمي، على سوق المدينة.²

وفي العصر العباسي كان المنصور العباسي يتولى وظيفة الحسبة بنفسه، فكان يراقب الموازين ضمانا للعدل، كما كان يعني بالشروط الصحية داخل المدينة والأسواق، ويسهر على نظافة الطرقات.

وفي الخلافة العباسية ظهر لأول مرة مصطلح "المحتسب" ليحل محل عامل السوق. وكان ذلك في خلافة المنصور العباسي. ويتضح إهتمام الدولة العباسية بنظام الحسبة، من خلال إشتهار أسماء العديد من المحتسبين، الذين تزخر بهم كتب التاريخ وكتب الحسبة. ومن تعدد المؤلفات التي تناولت موضوع الحسبة نذكر منها: أحكام السوق ليحي بن عمر الأندلسي سنة 289هـ، وكتاب الإحتساب للأطروشي سنة 302هـ، وكتاب الأحكام السلطانية للماوردي سنة 450هـ، والأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء سنة 485.³

ولم يكن مصطلح الإحتساب معروفا في بلاد المغرب، وغلب عندهم استعمال مصطلح عامل السوق، ثم استعملوا في أوقات متأخرة مصطلح "ولاية الحسبة" أو "خطة

¹ عبد الستار عثمان: مرجع سابق، ص 57.

² عمر عبید حسنة: مرجع سابق، ص 16.

³ الرئاسة العامة للأمر بالمعروف، المملكة العربية السعودية: تاريخ الحسبة، طبعة الكترونية، ص 4.

الحسبة". وورد استعمال مصطلح الحسبة أول مرة عند ابن بشكوال، وهو من القرن السادس الهجري ثم استعمله ابن فرحون، وهو من القرن الثامن الهجري.¹ واستمرت وظيفة المحتسب قائمة في البلاد الإسلامية إلى مطلع القرن التاسع عشر (19)، ففي الجزائر مثلاً ظلت وظيفة المحتسب قائمة إلى الفترة التي حكم فيها الأتراك العثمانيون، فكان في هذه الفترة المحتسب يراقب الموازين والأسعار، فمن ثبت عليه البيع بموازين ومقادير مزيفة، ومن تجاوز أسعارا المواد الذي حددها الداي، فهو يعاقب بشدة بالغة، فإن عاد لغشه للناس، شددت عليه العقوبة.^{2 3} ثم آلت وظيفة المحتسب إلى رجال الشرطة أو السلطات البلدية، وتولى القضاة بعضاً من الوظائف التي كان يقوم بها المحتسب، وألغيت بعض هذه الوظائف كلية نتيجة تأثير المجتمعات العربية والإسلامية بالمجتمعات الغربية، وظهور بعض المبادئ الجديدة كالحرية المطلقة لتصرف الأفراد، وتشريع القوانين المختلفة لحماية هذه المبادئ الجديدة.⁴

والمحتسب قد يعينه الحاكم، وقد يكون متطوعاً. والحسبة لها في وقتنا الحاضر أشكال مختلفة، وتمارسها مؤسسة متعددة تقوم على مراقبة كل مالة علاقة بمصالح الناس: كالشرطة والضرائب وشرطة العمران ورقابة الاستهلاك والمصالح الصحية.. وغير ذلك.

والمحتسب يجب أن تتوفر فيه زيادة على الشروط العامة (الإسلام، البلوغ، العقل، العدالة، التقوى..) المتثورة في كتب الحسبة، شروطاً إضافية لا يتم عمله إلا بها، فيشترط فيه أن يكون عارفاً بشؤون مدينته، عارفاً بدقائق الأمور وخصائص مجتمعه، عالماً بالعادات والتقاليد التي تحكم كل تجمع سكاني، مطلعاً على الحرف والصنائع، عارفاً بخصائص كل حرفة ومهنة. ومن هنا فقط يستطيع أن يحتسب على فئات المجتمع المختلفة. فإن لم يكن ملماً ببعض ما يحتسب عليه إستان في ذلك بأهل الإختصاص.

¹ أحمد بن عبد الله القرطبي: آداب الحسبة و المحتسب، تحقيق فاطمة الإدريسي، دار ابن حزم، ص 81.

² نجاة أحمد عروة: "أسواق الجزائر"، مجلة التراث، ع 66، ماي 4200، ص 110.

³ رب سرجنت: المدينة الإسلامية، منشورات اليونيسكو، ص 35.

ويقوم عمل المحتسب على إظهار القيم الإسلامية وتطبيقها في الحياة اليومية، خاصة ما تعلق بالأسواق والمعاملات التجارية. والإعتراف بالمحتسب في المدينة الإسلامية، يخول له النظر في الدعاوي التي تتطلب الحلول العاجلة. فكان المحتسب يتدخل بمبادرته الشخصية للإصلاح بين الناس وفض النزاعات القائمة. ويكلف المحتسب بالحفاظ على مصالح الناس والحفاظ على حقوقهم، ويقوم بزجر وتعزير من ينتهك حرمة الناس، ومن أعمال المحتسب أن ينصف من يستتصره من الناس ضد أي أحد قام بظلمه ويحول المحتسب دون إرهاب الحيوانات، وتحميلها مالا تطيقه من أحمال. ويأمر الناس بهدم الدور الآيلة إلى السقوط، والتي يمكن أن تكون مصدر خطر على المارة، كما يسهر على نظافة الأسواق والطرقات والحمامات.¹ والأمثلة عن تدخل المحتسب داخل المدينة الإسلامية كثيرة لا يمكن حصرها، وهي مبسطة في كتب الفقه والحسبة.

فالحسبة في المدينة الإسلامية نظام رقابي تصحيحي- لتصرفات العامة والخاصة- من خلالها يمكن الأشراف على المرافق العامة والخاصة، وترتيب العقوبات المختلفة على المخالفين للنظام العام داخل المدينة. فهي نظام شامل لكل أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

1. أهمية الحسبة.

لعبت الحسبة دورا هاما في نشأة وتطور الفكر المعماري الإسلامي. فقد استطاع السلطة داخل المدينة الإسلامية، من خلال وظيفة المحتسب أن تحافظ على المخطط العام للمدينة الإسلامية، والحفاظ على النشاطات الإجتماعية والتجارية... سواء داخل الأسواق أو الشوارع والطرقات: فمنع الناس من التعدي على الشوارع والطرقات بالبناء ومنعوا من البناء في الأماكن ذات النفع العام كالأسواق والفتية وحريم النهر والبئر... وحرص الحكام المسلمين من خلال تنظيم أحكام الحسبة على إظهار المدينة الإسلامية، مظهر الانقاء، متماشيا مع جوهر الإسلام الداعي إلى النظافة، والالتزام بالآداب العامة، والأخلاق الفاضلة.

¹ مدثر عبد الرحيم: المدينة الإسلامية، منشورات اليونسكو، ص 05.

كما حرص الحكام على وجوب الإلتزام بالمبادئ التخطيطية، والقواعد العامة للفكر المعماري في الإسلام مما يجعل المدينة الإسلامية متميزة عن سائر المدن الأخرى.

فتظهر المدينة الإسلامية مكونة من عدة دوائر ترتبط فيما بينها ارتباطاً عضوياً، وتختلف إختلافاً جوهرياً.

فالأحياء السكنية تبتعد عن الأسواق دون أن تتفصل عنها، فهي عادة ما تكون خالية من الأسواق والدكاكين، خاصة تلك الأسواق الصاخبة، التي تتبعث منها الأصوات المزعجة، وتفوح منها الروائح الكريه الموشى، ومصانع النحاس والفخار وغيرها. فهذه الأماكن شأنها أن تزعج أصحاب المساكن.

كما تختلف دائرة الممارسة التجارية عن الدائرة السكنية من حيث القوانين التي تحكم كل دائرة. فالأسواق أقل حرمة من الأحياء السكنية وهي وقف على أصحابها بخلاف الأسواق التي يملكها عامة المسلمين، وهي وقف على إستعمالهم. ويرجع السهر على إلتزام هذه الخصوصيات إلى المحتسب.

2. الجانب التطبيقي للحسبة في مجال العمارة.

من خلال كتب الحسبة المختلفة يمكن أن نتعرف على أهم المحاور التي تدخل ضمن إختصاص المحتسب، والتي يستطيع من خلالها المحافظة على مصالح العامة، وسنحاول أن تقتصر على التدخلات التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بجانب العمارة الإسلامية.

وأعمال الحسبة كثيرة جداً. فهي لا تتأثر بتعاليم الدين فقط. بل لقد تتأثر بواقع الناس وما يطرأ على حياتهم من تغيرات، فهي غالباً ما تكون خاضعة إلى أعراف الناس، وما يصدر عنهم من أقوال وأفعال في تعاملاتهم اليومية. والناس قد تعارفوا على قوانين وأعراف تحكم أحوال بناءهم، كتعارفهم على إستخدام نوع من المواد الأولوية وكتعارفهم على كيفية دفع أجره العامل... فالأعراف المتجددة تؤثر باستمرار في وظيفة المحتسب فهو محكوم دائماً بما تعارف الناس عليه وألفوه من أقوال وأفعال زيادة على أحكام الشريعة الثانية.

والمحتسب على العموم يتولى الحسبة على ما يلي:

1. الحسبة على الشوارع والطرق:

إهتم التشريع الإسلامي منذ اللحظات الأولى بأمر الشوارع والطرق فحدد عرضها وما ينبغي أن تكون عليه من نظافة وإتساع وجعلها وقفا عاما لجميع المسلمين بحيث لا يستقل أحد من المسلمين بإستغلالها دون غيره من الناس، ولا يجوز للإمام أن يتصرف في أمر الطريق بوقف أو إقطاع، أو إذن بالبناء، بل يحرص على أن يحترم الجميع خصوصية الطريقة وما جعلت لاجله.

ووظيفة المحتسب تسير في هذا السياق، فهو يسهر على منع كل إعتداء على الطريق ببناء أو نحوه من شأنه أن يضيق الطريق على المارة، بحيث يفوت مصالحهم، فيمنع المحتسب أهل الحوانيت من الجلوس في الطرق أو إخراج الفواصل والأجنحة ووضع الدكات أو المصطبات أو توسيع الدكاكين على حساب الطريق. كما يمنع غرس الأشجار في الطريق وأمام الحوانيت.¹

ويمنع المحتسب من البناء في الطريق، ولو كانت واسعة، ويأمر بهدم كل ما أزيد فيها ولو كان ذلك بأمر من الحاكم، ولو كان المبني مسجدا أيضا، لأن الطريق إنما جعلت لإرتفاق العاملة لا للبناء. قال سعد بن معاذ: "يهدم كل ما إقتطع من سكك المسلمين. ولو جاز لأهل جانب السكة التوسع فيها، لجاز لأصحاب الجانب الآخر أن يأخذوا مثل. فتضيق سكك المسلمين، وإنما السكك من جهة الأحباس التي حبسها المسلمون لمنافعهم"² فالطريق مهشرك بين عامة الناس، فلا يجوز البناء فيها لأن ذلك يضيقها فيزدحم الناس وتصطدم البهائم. ويمنع المحتسب من ربط الدواب والحيوانات في الطريق إلا بقدر النزول والركوب، ويمنع من تحميلها مالا تطيق، أو يتساقط ما فوقها في الطرق.

¹ محمد بن أحمد القرشي: معالم القرية في أحكام الحسبة، صححه روبن ليون، مطبعة دار الفنون، كمبريج، 1937، ص79.

² عبد الرحمان الفاسي: خطة الحسبة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ص157.

ويمنع المحتسب الناس من رمي الأوساخ في الشوارع والطرق لأن هذا يؤدي الماروتكثر الأوساخ وتنتشر الروائح، وهولاشك يؤدي مستعملي الشوارع والدروب، ويقاس على رمي الأوساخ ماء الميزاب إن كان هذا الأخير محطما، فيقع على ثياب الناس فيلطحها، فيأمر المحتسب تبعا لذلك أصحاب الميازيب والقنوات بإصلاحها. ويأمر أهل الدرب بإزالة البرك من الشوارع لتسيير حركة المرور.¹ ويسهر المحتسب على إزالة الأجنحة والرواشن ويأمر أصحاب المباني المتداعية بإصلاحها أو هدمها ودفع ما قد يتوقع من ضررها على المارة، كما يمنع أصحاب الحمامات والمطاعم من رمي أوساخهم في الطريق.² ويأمر أصحاب البناء والبنائين بإزالة مخلفات البناء من الطرقات، وأن لا يتركوا شيئا منها في الطريق يعرقل حركة المرور، أو يتحول إلى أحوال يسد الطرقات عند نزول الأمطار. وعلى العموم فإن المحتسب يشرف على كل شئ يضيق شوارع المدينة أو يعرقل حركة المرور ويعاقب كل من يتعدى على حق الطريق.

ويدخل تحت إختصاص المحتسب، منع السكان من إتخاذ الساباطات فوق فناء الطريق للسكنى. ويمنع من ذلك إذا كانت منخفضة، بحيث تضر بالراكبين. فيأمر المحتسب صاحبه بإزالته أو رفعه قدرا لا يعرقل حركة المرور. أما إذا كان الساباط عاليا فوق فضاء الطريق فلا يلزم صاحبه بإزالته ويلحق بحكم الساباط الميزاب، إذا كان يصب في الشارع، فيلحق الأذى بمستعملي الطريق، فيقع على ثيابهم فينجسها. ففي هذه الحالة يتدخل المحتسب لصالح العامة فيلزم أصحاب الميازيب بإصلاحها.³

2. الحسبة على الأسواق.

والأسواق مثل الطرقات ملك مشاع بين عموم الناس لا يجوز لأحد أن يستأثر بمكان دون غيره من الناس، وأجعل عمر بن الخطاب الأحقية في السوق لمن سبق. ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض الضرائب على أهل السوق، وبقي

¹ محمد بن أحمد القرشي: نفسه، ص 79.

² الماوردي: مرجع سابق، ص 223

³ العقباني أبو عبد الله: تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير التناكر، تحقيق علي الشنوفي، عن مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي بدمشق، ص 277.

الأمر قائما إلى فترات متاخرة من تاريخ الإسلام، قبل أن تشرع السلطات البلدية في فرض الضرائب على أهل الأسواق وكانت عبارة عن رحبة كبيرة لا يختص أحد بمكان دون غيره، فهي مشاعة بينهم ومقصورة على بيعهم وشراءهم.

وأوكل أمر مراقبة السوق منذ بداية ظهور الإسلام إلى أشخاص عرفوا باسم "المحتسب" أو "عامل السوق"، وظيفته الحفاظ على النظام العام داخل السوق.

ومن هذا المنطق إنحصر عمل المحتسب في مراقبة أسواق المسلمين وإلزام التجار باحترام التوزيع المكاني للأسواق، فيبقي العطارين والصاغة وأهل البز. في مراكز المدينة، ويدفع بالقصابين وغيرهم كالفخارين والنجارين والحدادين. ممن في صنائعهم إداية وإزعاج للناس.¹

كما يسهر المحتسب على نظافة الأسواق، فيأمر التجار بالمحافظة على نظافتها، وتنظيفها من الأوساخ عند الحاجة، ويمنعهم من رمي الأوساخ وبقايا مبيعاتهم في رحبات الأسواق أو أمام المتاجر والدكاكين.

أما أصحاب الحرف المختلفة فإنه يمنعهم من كثير من الأعمال والتصرفات التي قد تضر بالعامّة أوتضيق الطريق عليهم، ويأمر الخبازين برفع سقائف الأفران وإتخاذ المداخل وإصلاحها وتهوية محلاتهم، كما يلزمهم بالنظافة ويراقب قدورهم ووسائل عملهم ويجبرهم على تنظيفها بسورة مستديمة.

أما القصابين فيمنعهم من الذبح على أبواب الدكاكين أوفي وسط الطريق، أورضية السوق حتى لا يلوثوا طريق المسلمين، وينجسوا ثيابهم، كما ينههم عن إخراج اللحم من الدكاكين وعرضه على قارعة الطريق فيلاصق ثياب الناس ويلتصق به الذباب وغيره من الحشرات.²

وكثيرا ما قد يتضرر بعض أصحاب الحرف بإختلاطهم بغيرهم وخاصة إذا لم تتلاءم حرفهم، فيتأذى الخباز بمجاورة الحداد ويتأذى بائعوا البز والقطن بالسماكين

¹ خالد عزب: نفسه، ص 100

² القرشي محمد بن أحمد: مصدر سابق، ص 99.

والقصابين وأصحاب الروائح المُنْتِنَة وغيرها من الحرف الذي يضر بعضها ببعض،
فتكمن وظيفة المحتسب في منع تجاوز هؤلاء.¹

ويمنع عموم الناس والتجار خاصة من البناء داخل السوق فإنه إن أذن لأحد
منهم تجراً غيره عاى البناء فتضييق السوق بأهلها، وربما تركوها إلى غيرها. وروي أن
عمر بن خطاب مر بحداد وقد بنى كيرا في السوق فقال "لقد إستهضمتم سوق المسلمين"
ثم هدمه.² كما هدم عمر بن خطاب أساسا لأبي سفيان كان قد إستزاده في طريق
المسلمين.³ ويمنع من بناء الدكاكين بين أيدي الحوانيت في الأسواق ولا خلاف بين
الفهاء أنه على المحتسب هدم هذه الدكاكولم تضر بالمارة أوتضييق الطريق. ويقاس
على البناء في الأسواق الجلوس أو الاجتماع لغير الحاجة مما قد يعرقل حركة
المتسوقين.

3. الحسبة على المباني:

ويدخل ضمن إختصاص المحتسب أيضا مراقبة المباني ومراقبة أعمال البنائين،
كما يراقب مواد البناء المختلفة ومدى إلتزام صانعيها معايير صناعيتها. ويحول بينهم
وبين الغش في هذه المواد. ثم يراقب البنائين عند إستعمالها ذلك أنها من أخطر الأمور
التي ترتبط بها حياة الناس وأرواحهم وأموالهم جراء سقوطها.

وفي هذا السياق يأمر المحتسب الحكام والولاة وعامة الناس بإصلاح ما تهدم
من سور مدينتهم، وإذا تهدمت المساجد ألزم الناس بإعادة بنائها. وأنفق عليها من المال
العام فإن عجز بيت المال على النفقة لسبب

من الأسباب فإن المحتسب يلزم أهل الثراء من الناس بالنفقة على إصلاح
المساجد والجوامع، وإن أراد أحد من الناس هدم بناءه لإعادته لم يلزمه سؤال المحتسب
ما لم يكن في فعله ضرر للناس أو اضرار ببناء التجار أو غلق الطريق واستأذن الحاكم
في ذلك أيضا، ولكنه إن هدم شيئا من بناءه ألزمه المحتسب بناءه في أقصر الآجال.⁴

¹ خالد عزب: نفسه، ص 101.

² الفاسي: مصدر سابق، ص 156

³ الفراء: مصدر سابق، ص 151

⁴ الماوردي: مصدر سابق، ص 212

ويمنع المحتسب كل شخص يريد البناء في غير ملكه أو البناء في الأماكن العامة كالأسواق والشوارع والطرق وحريم النهر والعين... وروى عن مالك بن أنس أن عمر بن الخطاب قد منع أبا سفيان من البناء في طريق المسلمين.¹

أما من بني بناء وعلاه بحيث يحجب الشمس أو الهواء عن جيرانه، منعه المحتسب من التعلي، فإذا لم يضر بأحد من الجيران لم يمنعه. ولكنه يلزمه أن يستر سطحه، وأن يتمتع من الإشراف على حريم غيره. وكان بعض المحتسبين يلزم صاحب السطح بالبناء فهذا أصلح وأنفع للجيران إذ لا يستطيع أن يلزم أحدا من الناس أن ينظر إلى حريم جيرانه،² ويمنع المحتسب أهل الذمة من يهود ونصارى من تعليه أبنيتهم فوق أبنية المسلمين إذا لا يؤمنون في دينهم وخلقهم ولا يتعضون بما يتعظ به المسلمون.³

ويمنع أهل الدور المعدة للسكن من تغيير وظيفتها أو الزيادة فيها بما يلحق الضرر بالجيران كمنعهم من النوم والراحة... ونحو ذلك، كما يمنعون من كراءها لأهل الفسق والمجاهرة بالمعاصي فهؤلاء لا رادع لهم.

4. الحسبة على البنائين:

و يراقب المحتسب البنائين ويلزمهم إتقان عملهم ويجبرهم على استعمال الزوايا والموازين والخيوط فإن رأى من أحدهم زيغ أو ميل أو انحراف في البناء أو محاولة غش في بناءه ألزمه إصلاح ذلك حتي يعود البناء سليما لا خطر فيه على عامة الناس. ولا يتوقف رقابته على البنائين بل يتعداه ليصل إلى سماسرة العقار فيراقب بيعهم وشراءهم ويراقب ما يبيعونه من دور وعقارات، ويمنعون من بيع ما فيه اضرار بالمشتري، وأن لا يبيعوا إلا ما خرج من ملك صاحبه بعقد صحيح فلا يبيعون المرهون والموقوف.. ويلزم السماسرة والدالين أن يأخذوا أجرهم من البائع فقط.⁴

¹ الفاسي: مصدر سابق، ص 151

² الفراء: نفسه ص 304.

³ الفراء: نفسه ص 302

⁴ القرشي محمد بن أحمد: مصدر سابق، ص 99.

5. الحسبة على مواد البناء:

ويقع تحت مسؤولية المحتسب مراقبة جودة مواد البناء ومتابعة صناعتها حفاظاً على أموال المسلمين وأنفسهم. وصناعة مواد البناء من الفروض الكفائية، فيلزم الحاكم بتوفير الصناع والحرفيين مما يسد حاجة المجتمع الإسلامي. وشدد مؤلفوا كتب الحسبة -وأغلبهم محتسبين- على ضرورة مراقبة المحتسب لمواد البناء فيقول ابن عبدون: "أما البنيان فهي الأكفان، لمأوى الأنفس والمهج والأبدان، فمن الواجب أن ينظر المحتسب في كل ما يحتاج إليه من العدد ومن ذلك أن ينظر أولاً في الحيطان وتقريب الخشب الوافر الغليظ القوي للبنية وهي التي تحمل الأثقال، وتمسك البنيان... يجب أن تكون جهة ألواح البنيان في عرضها شبرين ونصف لا أقل من ذلك. ويحدد ذلك القاضي والمحتسب للصناع والبنائين. ولا يصنع حائط يحمل ثقلاً أقل من ذلك".¹

ويجب أن يكون للمحتسب قالبا لقياس الاجر وسعه القرميد، وغلط الخشب وهي قوالب مصنوعة من الخشب يرجع إليها المحتسب متى إحتاج إليها أو شك في أن المادة البنائية مغشوشة وإضافة إلى ذلك يلزم الحرفيين بممارسة صناعاتهم خارج أبواب المدينة لأنها أرحب وربما ضاقت بها المدينة إن صنعت داخلها، وتأذى الناس بالضجيج الذي ينتج عند صنعها.

وينهى الجباسون عن خلط التراب بالجبس عند الطبخ، وهو الذي يسمونه القطائف، فهو من باب الغش، ويأمرهم بغرلة الجبس بالغربال المتوسط، لأن ذلك أسلم للبناء.

ويأمر الفخاريين بتسبيل ترابهم وتطبيبه، وأن يقللوا من الرمل فيه، وكذلك يفعل المحتسب مع صانع القرميد والأجر، فيأمر بتغليظها وحسن عملها، بحيث لا تكون مسيلة ولا معوجة، ولا رقيقة السقف. أما صانعي اللبن فيأمرهم بتقليل الرمل واختيار التراب الجيد، وأن يراعوا مقاديرها، ويعلل موضع عملها، وأن يبيسها جيداً، والأفضل للبن أن يكون باللبن المسحوق بدل الرمل.²

¹ ابن عبدون: رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، مطبعة المعهد الفرنسي للأثار بالقاهرة. ص 34

² القرطبي: مصدر سابق، ص 20.

6. الحسبة على المؤذنين:

ويراقب المكلف بالحسبة المؤذنين فهم أكثر الناس اطلاعا على سطوح العامة، وعلى حریمهم فإن كان المؤذن لا خلق له ولا دين اطلع على عورات الناس وهم لا يشعرون به، ولا يحتاطون منه لحسن الظن به، فينظر إلى نساءهم ويكشف أسرارهم. فيحرص المحتسب على أن لا يؤذن في منارة المسلمين إلا من وثق بأخلاقه وامتنح عدالته، ويجب أن يكون المؤذن عارفا بأوقات الصلاة،¹ وزيادة في الاحتياط يأمر المحتسب المؤذن إذا صعد إلى المنارة أن يكف بصره عن النظر إلى حريم الناس ودورهم، ويأخذ عليه العهد بذلك، ويحرص المحتسب أن لا يصعد إلى المنارة إلا المؤذن ولا يكون ذلك إلا للأذان.²

ومن النواذر التي ذكرها عبد الرحمن الفاسي: أنه كان في الكوفة محتسب لم يترك مؤذنا يؤذن في منار إلا معصوب العينين من أجل ديار الناس وحریمهم.³

7. الحسبة على الحمامات:

والحمام مقصد العامة للتطهر وأخذ الزينة وهوللتداوي أحيانا، وقد تقصده النسوة أيضا فيلزمه لذلك توفير عدة شروط فيه كإتساع غرفة ونظافة أرضيته ونقاء ماءه وإرتفاع درجة حرارته... فإذا اختلفت هذه الشروط زالت منفعته وتأذى الناس لذلك. والمحتسب يسهر على أن يوفر صاحب الحمام هذه الشروط في حمامه، ويدخل الحمام ويأمر صاحبه بدوام نظافته وغسله وكنسه بالماء الطاهر، وينهاهم عن فعل ذلك بماء الغسل لما فيه من الضرر ويلزمهم أن يفعلوا ذلك أكثر من مرة في اليوم وأن يدلخوا البلاط بالأشياء الخشنة لإزالة ما علق بها من أوساخ ونجاسات فالحمام مظنة وجود الأوساخ وانتقال العدوى بين الناس.

ويحول المحتسب دون دخول المجنوم والأبرص إلى الحمام حفاظا على أبدان الناس أن تنتقل إليها الأمراض المعدية فتفتك بها.

¹ القرشي أحمد بن محمد: مصدر سابق، ص 176

² القرشي أحمد بن محمد: نفسه ص 177

³ الفاسي عبد الرحمان: نفسه ص 49

أما مستعملي الحمام من الناس فإنه يأمرهم بستر عوراتهم، ويلزم صاحب الحمام أن لا يترك أحدا يدخل الحمام دون سترة، فمن فعل ذلك من الناس أدبه. وذكر العقباني أن بعض القضاة كتب إليه في حمام، فيه منكرا كبيرا، فكتب إليه أحضر المتقبل للحمام، ومره ألا يدخل إلا مريضة أنفسا، ولا يدخل الرجل إلا بمئزر، فإن ركب النهي بعد هذا فأغلق الحمام وأدخل المتقبل السجن.¹ ويأمر صاحب الحمام بفتحه في الصباح الباكر لحاجة الناس إليه في هذا الوقت لأداء الصلوات.

هذا كله عمل المحتسب داخل الحمام فأما خارجه فإن منع الوقوف عند بابه أو مقابله إذا كانت فترات استحمام النساء وتمنع صاحب الحمام من رمي الأوساخ حمامه في الشوارع والطرقات أو يقرب سكن العامة لأن ذلك سبب الكثيرين المقاصد ويمنعه أيضا من أن يطرح الخشب فرنه في الطريق أوفي فناء الحمام مما يعرقل حركة المرور أو تسكنه الهوام التي قد تؤذي الناس

8. الحسبة على المساجد:

يشرف المحتسب على المساجد ويأمر بتنظيفها من الأوساخ والقاذورات، وكل ما يؤذي المصلين، ويأمر القائمين على نظافة المسجد بفعل ذلك كل يوم. ويأمر بغلاق أبوابها بعد كل صلاة، لصيانتها من عبث الأطفال والمجانين والحيوانات، ويمنع من النوم فيها والأكل، ويخرج منها من ينشد ظالته، أو يبيع فيها سلعته...¹ فعن أبي أمامة عن النبي أنه قال: "جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وخصوماتكم وأصواتكم وسل سيوفكم، وإقامة حدودكم، وجمروها في تسع واتخذوا على أبواب مساجدكم المطاهر".² ويمنع المحتسب من المبالغة في زخرفة المساجد أو إحداث الصور، مما يتنافى والحكمة التي جعلت من أجلها المساجد. أما تزيين المساجد بالشموع والقناديل فلا شيء

¹ العقباني أبو عبد الله: مصدر سابق، ص 265.

¹ حسان حلاق: دراسات في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. دار النهضة العربية، بيروت. ص 81

² الزركشي بدر الدين محمد بن بهادر: مصدر سابق، ص 221.

فيه، لان فيه إكرام لبيوت الله. ويقاس عليه وضع الستار من غير الحرير، فما زال المسلمون يكسون بيت الله الحرام وهي أشد حرمة من باقي المساجد.¹ وأما تعليق الستائر في المسجد بحيث تشغل المصلي عن الصلاة، وتشوش عليه، فذلك مما يكره في المساجد ويقوم عليه المحتسب، فيمنعه.

وننبه في هذا الموضوع أن المحتسب على المساجد يجب عليه أن يكون عالماً بالمسائل الخلافية الواقعة بين المذاهب. فقد أنكر العز بن عبد السلام إشعال القناديل الكثيرة لما رأى في ذلك من الإسراف والتبذير، ولما في ذلك من التشبه بالنصارى.. وكان الناس في القيروان يكثران من القناديل في الزيتونة وغيرها من المساجد، فلا شك أن لهم في ذلك فتوى بالجواز.

ويرى العقباني جواز ذلك لما فيها من المصلحة العظيمة للمساجد، كما هو الشأن بالنسبة للجامع الأعظم بتلمسان. لأن في إنارة زواياه وأقطاره المتابعة، كدفع ما قد يحصل من المفساد، كملافة الأحداث للفساق.²

ويمنع المحتسب غرس الأشجار داخل المسجد، وكذلك حفر الآبار لما فيه من تضيق على المصلين، وجلب النجاسات من أوساخ الطيور والحشرات. ومنع الغزالي غرس والزرع داخل المسجد. وذكر مثله بعض القضاة: أنه لا يجوز الغرس في المسجد ولا الحفر فيه، ولا أن يجمع فيه الحشيش.. لأن فعل هذه الأشياء مما يضيق أماكن الصلاة.³

9. الحسبة على الخبازين والفرانين:

يجب على صاحب الفرن أن يرفع سقف فرنه، وأن يوفر له المداخن الواسعة حتى لا يتأذى الناس بالدخان، ويأمرهم بتنظيف أوعية الماء، وتغطيتها، وغسل قدور العجن. ويمنعهم من عجن الخبز بأرجلهم، ومرافقهم لأن في ذلك مهانة للطعام ويمنعهم من وضع الخشب والوقيد أمام الأفران حتى لا يضيقون بذلك الطرقات.

¹العقباني أبو عبد الله: نفسه. ص39

²العقباني أبو عبد الله. نفسه. ص.39

³الزركشي: مصدر سابق، ص24

وذكر القرطبي: يمنع الفرنون عن حرق ما يحتطب من الأزقة والمواضع
القدرة التي لا تؤمن من نجاستها وإضرارها بالمطبوخ، وينهون عن كشف الخبز قبل
إدخاله إلى الفرن، لئلا يسقط عليه ما يفسده.¹

ثانياً: الفقه

أثر الفقه الإسلامي بمذاهبه المختلفة تأثيراً بالغاً في مجال العمران، فلقد توسع
الفقهاء في دراسة القواعد والمبادئ التي تحكم أحكام البناء وما يرتبط بها من أحكام
كأحكام الشفعة والقسمة والهبة والوقف.. ومثل هذه المسائل مبسطة في كتب الفقه
المختلفة.

ويرجع تأثير الفقه في مجال العمران إلى عوامل رئيسية وأهم هذه العوامل هي
اعتماد الشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع التي يحكم تصرفات الفئات المختلفة داخل
المدينة الإسلامية، فلقد ظلت أحكام الشريعة مسيطرة على حياة المجتمعات الإسلامية
لقرون من الزمن ولم يحدث أي تغيير إلى غاية سيطرة الأتراك العثمانيين على مختلف
البلاد الإسلامية وظل الأمر على حاله إلى سنة 1896م، حيث قامت لجنة من العلماء
بتدوين أحكام الشريعة في مدونة عرفت بمجلة الأحكام العدلية واعتمدت المجلة على
أحكام المذهب الحنفي الذي كان المذهب الرسمي للدولة.

وجاءت أحكام المجلة على شكل مواد قانونية متوثرة في ذلك بالقوانين الغربية.
وسهلت المجلة عملية القضاء ووفرت للقاضي مادة يرجع إليها عند حل النزاع، ولكنها
بالقابل يؤخذ عليها أنها قلصت من مجال الرجوع إلى أحكام الشريعة وفي كثير من
الأحيان لم تترك الخيار للقاضي بما فيه توسعه على المتقاضين بما يحقق المصلحة.²

والأمر الثاني الذي جعل إسهام أحكام الفقه بالغاً في مجال العمران
هو اعتماد مؤسسة القضاء في المدينة الإسلامية على آراء الفقهاء، هذا إن لم يكن
القضاة أنفسهم من الفقهاء فكثيراً ما كان الخلفاء والحكام والولاة يعينون القضاة من

¹ القرطبي (أحمد بن عبد الله): مصدر سابق، ص 75

² جميل عبد القادر أكبر: مرجع سابق، ص 113، 114.

فقهاء المذاهب فإن لم يكن القضاة فقهاء فكثيرا ما كانوا يرجعون إليهم لطلب الفتوى والمشورة والإستينارة بأرائهم في مسائل القضاء.

وهذه الإزدواجية ضمنت لنا تطبيق أحكام الفقه في مجال العمران، فحفص الأزدي قاضي بغداد ثم الكوفة كان تلميذا لأبي حنيفة (ت150) وابن عبد الحكم (ت214) كان قاضيا على مصر وهوتلميذ الشافعي وكان سحنون (ت234) تلميذا لعبد الرحمن بن القاسم، وهوتلميذ الإمام مالك، أما ابن رشد فكان فقيها وقاضيا لقرطبة (ت520)¹ وكتابه دليل على تأثير الفقه على أحكام العمران وكان عياض السبتي (ت544) قاضي سبته وغرناطة والونشريسي قاضيا على فاس وكل هؤلاء من الفقهاء.

وبشرط العلماء في القاضي أن يكون عالما بأحكام الفقه ويشترط البعض الآخر أن يكون فقيها لأن ذلك يسهل عليه القضاء بين الناس فيما وقع بينهم من نزاع حول العقارات والحقوق المرتبطة بها يقول الطاهر بن عاشور: "ومن الواجب أن يكون القاضي مستحضرا للأحكام الفقهية في المسائل الكثيرة النزول، ومقتدرا على الاطلاع على أحكام ونوادير النزول عند دعاء الحاجة إليها بكونه دارسا لكتب الفقه متطلعا بسبب الاستفادة منها".² وينقل لنا الطاهر بن عاشور جملة من أقوال العلماء تؤكد هذا المعنى.

فينقل عن ابن القاسم قوله "لا يستقضي من ليس بفقيه" وعن أصعب وأشهب ومطرف وابن الماجشون وهم من علماء المالكية قولهم: "لا يصلح كون القاضي صاحب حديث لا فقه معه ولا صاحب فقه لا حديث معه"³

وتشهد الكتب التي ألفت في مجال فقه العمران مثل الجدار لعيسى بن دينار (ت212) وكتاب القضاء ونفي الضرر عن الأفنية والطرق، والجدار لعيسى بن موسى التطيلي وكتاب الإعلان بأحكام البنين لأبن الرامي، وكتاب القسمة وأصول الأراضي للفرسطائي... على مدى اعتماد مسائل العمران وقضاياها على أحكام الفقه الإسلامي كأحكام الأحياء والتحجير والوقف والاقطاع والعمرى...

¹ جميل أكبر: مرجع سابق، ص 112.

² الطاهر بن عاشور: مرجع سابق، ص 196.

³ الطاهر بن عاشور: نفسه، ص 196.

1. تأثيرات بعض أحكام الفقه في مجال العمران

أ. مبدأ حيازة الضرر:

ووضع فقهاء الشريعة هذا المبدأ، انطلاقاً من الحديث الشريف المشهور "لا ضرر ولا ضرار"، وقبل أن يطبق هذا المبدأ في مجال العمران على أيدي القضاة والمحتسبين وغيرهم فإنه يعود الفضل إلى صياغته وتحديد معالمه إلى الفقهاء وخاصة فقهاء المالكية والحنابلة.

وحيازة الضرر يراد بها أن العقار السابق له الحق في الإضرار بالعقارات الأخرى المتلاحقة دون أن يضر هو بنفسه.¹

فالعقار الأول يحوز الكثير من المزايا والحقوق والتي يجب على أصحاب المباني الجديدة احترامها كما يلزمون بأخذها في الحسبان عند إرادة البناء أو التجديد وبهذا فإن العقار الأول يسيطر على باقي العقارات المتلاحقة، ويسيطر على ما يقع فيها من إنشاءات معمارية.²

فلو افترضنا أن رجلاً فتح كوة أو حانوتاً أو باباً على أرض موات ثم جاء غيره وأحي هذه الأرض الموات ثم ادعى أن صاحب الباب أو الكوة أو الحانوت يلحق به ضرراً ما وطالب القاضي بغلق الدكان، فإن طلبه سيقابل بالرفض وذلك لأن صاحب العقار الأول كان الأسبق في التواجد وبالتالي فإنه يجوز الضرر.³

ويقسم الفقهاء الحيازة إلى قسمين:

أ- حيازة مع جهل أصل الملك لمن هو أوجهل المالك وفي هذه الحالة يحوز مالك العقار الضرر إذا كان تحت يده لمدة تفوق العشرة أشهر وتصرف فيه تصرف المالك في ملكه دون اعتراض من أحد.

ب- حيازة مع العلم بأصل الملك فيحوز المالك العقار والضرر بعد مرور عشر سنين فأكثر إما بوضع اليد أو شهادة الشهود،⁴ فلو أحدث صاحب العقار ضرراً

¹ جميل عبد القادر أكبر: مرجع سابق، ص 221.

² خالد عزب: مرجع سابق، ص 25.

³ جميل عبد القادر أكبر: مرجع سابق، ص 221.

⁴ التسولي أبي الحسن علي بن عبد السلام: البهجة في شرح التحفة، مج 2، ص 358.

على غيره ولم يوجد به أي مانع من الاعتراض والمخاصمة فلا حق له في الاعتراض بعد مرور العشر سنوات وقال بهذا ابن القاسم وأشهب وابن نافع من علماء المالكية وهو الذي عليه القضاء وقال أصبغ من المالكية أن حقه في الاعتراض لا يسقط إلا بمرور عشرين سنة.

ويرى بعض الفقهاء أن الضرر إن كان متزايدا كضرر المدبغة والكنيف والحضر.. وغيرها مما لا ينحصر، وضرره يحدث ضررا بطول الزمان فلا حيازة فيه لا بالعشر سنوات ولا بغيرها، فللمتضرر رفع الدعوى متى شعر أن الضرر صار يقلقه أو يهدد عقاره.

وقال ابن حبيب أن الضرر لا يحاز أصلا،¹ لأن الشريعة نهت عن الإضرار ولو أسقطناه انقطع العمل بالحديث.

وحيازة الضرر في الفقه الإسلامي لا تثبت للمستغل وإنما تثبت للعقار فلوباع صاحب العقار الذي له حيازة الضرر عقاره فإن هذا الحق يثبت للمشتري الثاني.

ومن النوازل التي يمكن أن نستدل بها، ما ذكره جميل أكبر أن رجلا كانت له بئرا قرب حائط له وكان بجوار الحائط قناة للجار، فكانت القناة ترشح في بئر الجار فتلوثها فاشتكى صاحب البئر صاحب القناة إلى القاضي فأرسل القاضي أصحاب الصنعة، فأخبروه أن القناة سابقة للبئر وهي تؤذيه، فأمر القاضي صاحب البئر أن يصلح بئره ولم يلزم صاحب القناة إلا بتقيتها.²

فبعد ظهور الأحياء الجديدة فإن البناء يتوالى ويتم تتابع الوحدات السكنية، وينشأ عن البناء ظهور الأزقة والشوارع، وتختلف هذه الشوارع والأزقة باختلاف الفئات الساكنة فيها وباختلاف مستعملها ونتيجة لذلك تسيطر هذه الفئات على الطريق. والطريق يعكس لنا رغبات المستعملين كما يعكس قيمهم الدينية والأخلاقية والاجتماعية، فالطريق ينتج عن تراكمات القرارات المختلفة للسكان وهذه القرارات

¹ التسولي: نفسه ص 485.

² جميل عبد القادر أكبر: مرجع سابق، ص 221.

مبنية على المبدأ المذكور "حيازة الضرر"¹. فمن فتح حانوتا في الزقاق أو الشارع حاز الضرر قبل جاره المقابل.

وإذا كان الشارع كثير الحركة وكثير الاستعمال فإن هذا الطريق لا شك سيكون أكبر وهذا راجع بطبيعة الحال إلى مستعملي الطريق وكلما كان الطريق أوسع فإنه يحوز ضررا أكبر، فيمنع بذلك الناس من الأحداث في الطرقات بناء على حق الارتفاق تارة وبناء على حق المرور تارة أخرى.

ومن أجل ذلك منع الفقهاء إخراج الأجنحة التي تكون الطريق تحتها فتؤدي الناس في رؤوسهم أو يرفع بقدر لا يضر بالمارة² ويمنع ساكني الدروب من اتخاذ السابطات إن كانت تؤدي المارة فإن لم تؤدي فلا يمنعون من ذلك.³

ب. حق الجوار:

ومن المبادئ التي وضعها فقهاء الشريعة وأثرت في مجال العمران حق الجوار، وهذا الحق يستمد شرعيته من القرآن الكريم لأولا ومن السنة النبوية ثانيا ثم اجتهادات الفقهاء.

ونقصد به حق الجوار الجانبي والذي يكون منشئه تلاصق المباني وتجاورها فيكون لكلا الجارين حق الارتفاق بعقار جارة، شريطة أن لا يلحق به ضررا. فيرى الشافعية في الجدار المشترك أنه ليس لأحد الجارين وضع جذوعه على جدار غيره دون إذنه وموافقته وليس له أيضا أن يدق وتدا أو يفتح كوة مما يضايق به جاره عادة إلا بإذن شريكه.⁴

ولا يكتفي الجار باستئذان جاره عند إرادة التصرف في ملكه، بل الأمر يتعدى ذلك إلى وجوب إزالة الضرر عن الجار ويرى صاحبا أبي حنيفة أن الجار يمنع من التصرف في ملكه إذا ترتب عليه تلف جدار جاره، سواء كان هذا التصرف بالمباشرة أو بالتسبب.

¹ خالد عزب: مرجع سابق، ص 26.

² الوشريسي: مصدر سابق، ص 431.

³ نفسه، ص 439.

⁴ وهبة الزحيلي: مرجع سابق، ص 611.

أما الملكية فيرون أن تصرف المالك في عقاره مقيد بأن لا يضر بجاره ولو كان ذلك بالنية والقصد فإن لم يكن له مصلحة ظاهرة في التصرف، أولم يقصد سوى الإضرار منع من فعل ما يريد في ملكه، واستدلوا على ذلك بأن المسلم ممنوع من الإضرار بباقي المسلمين.

وإنطلاقاً من هذا الرأي الفقهي منع الملكية كل ضرر محدث كفتح الجار كوة ينظر منها إلى حريم جاره، أو يبني في داره فرناً أو حماماً أو كبير حداد، فمنعوا بهذا الحق كل ضرر يلحق بالجار.¹

وأثر حق الجوار في التراث المعماري الإسلامي، فقد اعتمده القضاة والمحتسبون في الفصل بين الناس في الخصومات فانعكس تطبيقه على الوحدات المعمارية داخل المدينة الإسلامية وأقر هذا المبدأ كواسطة تشريعية ثم قضائية بين الأفراد فيما بينهم أو بين الأفراد والمرافق العامة كالأسواق، فتخرج تبعاً لذلك بعض الأسواق عن التجمعات الحضرية كأسواق المواشي وغيرها من الأسواق مما فيها إضرار بالسكان.

ج. حق التعلي:

وهو حق يثبت لصاحب العلو على صاحب الأسفل فينتفع بالسقف وهذا لا يكون إلا إذا كانت الملكية مشتركة بين مستعملي العقار.

وقد وقع الخلاف بين الفقهاء في نوعية هذا الانتفاع كيف يكون؟ وما هي حدوده؟

فيرى الملكية أن السقف الذي بين الطابقين لصاحب الأسفل فيترتب عليه إصلاحه، وبناءه إن تهدم، ويملك صاحب العلو الجلوس عليه.

وذهب الشافعية إلى أن السقف المشترك مثل الحائط المشترك فهو سائر لصاحب الأسفل، وأرضه لصاحب العلو. والصاحب العلو الاستناد إليه. وليس لأحدهما فتح كوة أودق وتد. وإذا إنهدم السقف فليس لأحدهما إجبار الآخر على عمارته لأن إجبار أحدهما الآخر فيه الضرر. والقاعدة الفقهية تنص على أنه "لا يزال الضرر بمثله".²

¹ وهبة الزحيلي: مرجع سابق، ص 612.

² نفسه، ص 609.

وبناء على هذا الاختلاف الفقهي اختلف القضاء في إصلاح ما إنهدم من السقف.
فمن أخذ برأي المالكية ألزم صاحب السفل بالإصلاح، ومن أخذ برأي الشافعية
لم يلزم أحدا بالإصلاح.

وكما اختلف فقهاء الشريعة في تحديد الملكية اختلفوا في أحقيه التصرف في هذا
السقف المشترك.

فيرى أبوحنيفة أن المالك ممنوع من التصرف في حقه إذا تعلق به حق الغير إلا
إذا استأذن صاحب الحق وإن لم يكن في تصرف المالك في ملكه إضرار بغيره.¹
ويترتب على هذا الرأي الفقهي رأي جديد يؤثر بصفة مباشرة في أحكام القضاء من
جهة وفي الحركية العمرانية من جهة ثانية.

فلا يصح لصاحب السفل أن يحدث في بناءه أي تغيير كدق وتد أو فتح نافذة،
أورفع جدار إلا إذا رضي صاحب العلو، وإن لم يلحق به ضررا وليس لصاحب القسم
الأعلى أن يحدث في جزءه بناءا يضعف به الجزء الأسفل.

ويرى الصحابان أن للمالك أن يتصرف في ملكه بما شاء ذلك أن الأصل عندهم
في تصرفات الجار هي الإباحة ولا يمنع الجار من تصرفاته إلا إذا كان فيها ضررا
بالغير.

وينشأ عن هذا الرأي الفقهي أن لصاحب السفل أو العلو أن يصنع ما يشاء في
ملكه ما لا يضر بالبناء.

د.حق المرور:

وهو حق كل إنسان أن يصل إلى عقاره كداره وأرضه أو حانوته من خلال طريق
يمر بها سواء كان هذا الطريق عاما أو خاصا مملوكا له أو لغيره أو كان طريقا مشتركا،²
وتختلف أحكام حق المرور باختلاف نوع الطريق الذي يكون محل الاتفاق ونتج عن
هذا الحق تقسيم الطريق إلى قسمين هامين لكل منهما أحكاما خاصة تنظمه.

أ/ الطريق العام: فالطريق العام لكل إنسان أن يرتفق به سواء بالمرور فيه
أوبفتح نافذة أو بفتح طريق فرعية فيه، كما يجوز لصاحب الدار الشارعة فيه بناء

¹ وهبة الزحيلي: مرجع سابق، ص 609.

² نفسه، ص 607.

الشرفات، وفتح الحوانيت والمتاجر كما يملك أصحاب الدواب والسيارات المرورية. ولكل شخص أن ينشئ المراكز التجارية، قصد البيع والشراء ولا يتقيد مستعمل الطريق العام إلا بشرطين هما:

أ- السلامة وعدم الإضرار بالآخرين:

ب- الإذن من الحاكم: وهذا الشرط الخير ليس محل اتفاق بين الفقهاء، فيشترط أبوحنيفة إذن الإمام، أما الشافعية والحنابلة فلا يشترطون إذنه. وقال المالكية: من بنى في طريق المسلمين أوأضاف شيئاً ما في ملكه من الطريق، منع منه باتفاق.

ويرى بعض أئمة الشافعية أن الطريق النافذ أو ما يصطلح على تسميته بالشارع لا يملك أحد حق التصرف فيه بما يضر بالمارة حين مرورهم فيه، لأن حق المرور ثابت لعامة الناس فيمنع الناس من بناء الساباطات والرواشن للإضرار بالعامة.¹

ب/ الطريق الخاص:

وهو الطريق الذي يملكه شخص واحد، أو عائلة واحدة، أو يشترك فيه بعض الجيران، فهذا الطريق موقوف على تصرفهم فيمنع أي شخص أن يفتح فيه باباً أو نافذة .. إلا إذا أخذ الإذن منهم فإذا ازدحم الشارع العام، اكتسب عامة الناس حق الارتفاق فيه، وليس لصاحبه منعهم من ذلك، ولا إغلاقه في أوجههم احتراماً لحق العامة² ورعاية لمصالحهم التي قد تعطل إن هم لم يرتفقوا بهذا الطريق. وإذا كان الطريق الخاص مشتركاً بين مجموعة من الشركاء فليس لأحد منهم استعماله على غير الوجه المعتاد إلا إذا أذن له شركاؤه فلا يفتح فيه غرفة ولا كوة ولا نافذة ولا ميزاباً.. وحق المرور مثل حق ثبوت الضرر ثابت للعقار، وليس للأفراد فلو اشترى أحد الناس المسكن الواقع في الطريق الخاص ليس للشركاء منعه من الارتفاق بحجة أن هذا الحق كان للسكان الأول فتثبت له من الحقوق ما يثبت لهم.

¹ وهبة الزحيلي: نفسه، ص 608.

² نفسه، ص 608.

ثالثاً: القضاء

أثرت موسوعة القضاء الإسلامي، منذ العهد النبوي تأثيراً فعالاً على حركية العمران داخل المدينة الإسلامية، ويرجع هذا التأثير إلى أن الحركة العمرانية داخل المدن مستمرة ومتواصلة وبالتالي فإنه ينتج عن هذه الحركة الدائبة تشابك الحقوق بين مختلف أفراد المجتمع، وأهم مظاهر هذا التداخل التجاور في الوحدات السكنية وما ينتج عنه من حقوق بعضها ذي طابع قانوني وبعضها يكتسي طابعاً؟؟

كما تؤدي حركية العمران إلى اشتراك فئات المجتمع المختلفة في الأماكن العامة والطرق والأسواق، وهذا الاشتراك ينتج عنه مجموعة من الحقوق، وهي تختلف عن الأولى في كونها ذات طابع عام، أي أنه لا يختص بها شخص بعينه.

ونتيجة لتداخل هذه الحقوق، فإن المشتركين في هذه الحقوق تقع بينهم نزاعات مختلفة سواء في ملكيتها أوفي الانتفاع بها، فيدفع بعضهم بعضاً إلى المؤسسة القضائية لحل هذه النزاعات، فيقوم على القاضي الفصل بين المتنازعين بما وضعته الشريعة من قوانين، أو بما تعارفوا عليه من أعراف.

ولا تقتصر وظيفة القضاء على حل النزاعات الواقعة على الحقوق أو الأضرار، بل تتعداها لحماية الأماكن العامة كالشوارع والطرق وحريم النهر والعين والبحر... فيمنع الناس من البناء والزيادة في هذه الأماكن.

فإختصاص القاضي داخل القضاء الاجتماعي والسكني متشعبة ولكن الذي يهمنا في هذا المجال هي تلك القضايا المترابطة بالعقار أو ما يتصل به من أحكام كالضرر المادي والمعنوي، وما هي المصادر والتي يرجع إليها القاضي أثناء الحكم في مثل هذه المسائل.

1. تعريف القضاء:

يعرف ابن رشد القضاء، بأنه الأخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام. ويعرفه القرافي بأنه إنشاء إلزام أو طلاق.

أما ابن عرفة فيعرفه: بأنه صفة حكيمة توجب لموصوفها نقود حكما شرعي ولوبتعديل أوتجريح لا في عموم المسلمين.¹

ويعرف ابن خلدون القضاء بأنه: منصب الفصل بين الناس في الخصومات، حسما للتداعي وقطعا للتنازع، إلا أنه بالأحكام الشرعية المتقاة من الكتاب والسنة.² ومجمل التعاريف تتفق على أن القضاء هي الفصل بين المتنازعين فيما حل بينهم من نزاعات ولا شك أن مسائل العمران هي من أهم ما قد يقع فيه النزاع، لتداخل الحقوق فيه، فيقع على كاهل القاضي حل هذه النزاعات.

وتتص التعاريف أن القاضي إنما يفصل بين المتنازعين بالاعتماد على النصوص الشرعية كالقرآن أو السنة أو بما يتعارف عليه عند الأصوليين بالمصادر غير المتفق عليها وهي "المصلحة المرسلة، سد الذرائع.."

وآخر ما يتميز القضاء هو أن أحكامه إلزامية، وبالتالي فإن القاضي قد يحكم بهدم بعض المباني أو يحكم على أصحابها بترميمها، فتنشأ عن أحكام القاضي موسوعة قضائية تؤثر في مجال العمران، يحافظ على الشكل العام للمدينة؟؟ عامة على الشكل العام للسكان والمرافق العامة، ولما كانت هذه الأحكام صادرة من منظومة فكرية محددة فإنها لا شك تركت طابعها الخاص على حركية العمران.

وليس الغرض من هذا البحث التوسع في مباحث القضاء، فتكتفي بما يحقق الغرض.

2. نماذج قضاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) في العمران:

النموذج الأول:

جاء رجل من كندة ورجل من حضرموت إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: الحضرمي يا رسول الله: هذا غلبنى على أرض كانت لأبي، فقال الكندي: يا رسول الله: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها الحق. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للحضرمي: ألك بيّنة؟ قال: لا قال: فلك يمينه، قال يا رسول الله (صلى الله

¹ - الونشريسي: كتاب الولايات، تحقيق محمد الأمين بلغيث، ص 38.

² - ابن خلدون: مصدر سابق، ص 220.

عليه وسلم: إن الرجل فاجر، لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع على شيء، فقال: ليس لك منه إلا ذلك.¹

فبدل الحديث على أمرين هاذين في مجال القضاء في الملكية. وهو أن تطبق القاعدة المعروفة "البينة على المدعى" فكل من ادعى ملكية شيئاً ما، أو ادعى حقاً من الحقوق وجب عليه أن يقدم بين يدي القاضي الحجة والبيان: وإلا كان موقفه أمام القاضي ضعيفاً، ولا نكلف المدعى عليه البحث عن الأدلة والحجج ونكتفي بيمينه.

أما الأمر الثاني:

فإن ملكية العقار ثابتة لمن كان تحت يده، يتصرف فيه بالهدم والبناء أو الغرس والحصد، فمن غرس أرضاً طويلاً دون أن يحتج عليه غيره فهي له ولا يحتاج أن يثبت ملكيتها ويقاس عليه من سكن داراً أو استغل حائوتها، فلو ادعى أحد من الناس أنها له طلب منه الدليل والحجة، أما دليل المدعى عليه وحجته فهي وضع اليد والتصرف.

النموذج الثاني:

ودائماً في مجال القضاء بين الناس في مجال الارتفاق ما روي عن عبد الله بن الزبير عن ابنه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند رسول الله ﷺ عليه وسلم في ساقية كانوا يسقون بها النخيل. فقال الأنصاري:؟؟ فأبى عليه فقال رسول الله ﷺ عليه وسلم للزبير: إسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصاري، ثم قال: يا رسول الله إن كان ابن عمك فغضب رسول الله ﷺ عليه وسلم، ثم قال للزبير: اسق يا زبير، ثم أمسك الماء حتى يرجع".²

والحديث النبوي يدل على أن للجار العلوي أن ينتفع بالماء قدر حاجته، ثم يرسل الماء، فإن كانت؟؟ أو الماء له، فله منع جاره، فهو بذلك يتصرف في ملكه بما شاء ويدل الحديث أيضاً أن المسلم يجب عليه أن يكون لئيم الجانب في معاملته لجاره

¹ - الشوكاني: مصدر سابق، مج9، ص 216

² - مالك بن أنس: الموطأ، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط1، 1992.

ولو كان صاحب حق، فقد أمر الرسول ﷺ ابن الزبير بأن لا يمنع جاره السقي أول الأمر.

وروي قريب منه هذه القضية، أن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم: قضى في نهر صغير، أن صاحبه يمسك نحتي يصير الماء إلى الكعب ثم يرسل الأعلى على الأسفل، فيسقى الأعلى حتى يتم سقيها، بتم الماء، ثم يرسل إلى من دونه وهكذا حتى ينتهي كل منتفع أويبنى الماء.¹

وذكر القاضي عياض في شرح هذا الحديث، أنه لا يجوز لأحد من المنتفعين بالماء أن يختص به دون غيره، بسقي أو غيره، فلا يحق لأصحاب العلوان كانوا في الأعلى منع من هم في الأسفل لأن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم لم يخص الأعلى بجميع الماء دون من هو أسفل منه.²

وقال أبو إسحاق الشاطبي في نفس السياق: "فإذا تشاحوا الناس السقي، سقى الأعلى فالأعلى على ما جرت به السنة، وإن ملك الشخص الماء، فلا يستحق أحد فيها شيئاً".³

فهذا الحديث النبوي قاعدة في القضاء للفصل بين المتخامصمين في السقي، وقد جرة بها القضاء منذ عصر النبوة إلى فترات متأخرة من تاريخ الإسلام قبل أن تتبنى المجتمعات الغربية النظم القانونية الغربية، ويؤكد هذا الأمر ما ذكره الونشريسي في المعيار: "إذا ثبت بالشهادة ملك الماء على بينه، وجب الحكم بذلك، وإذا كان الماء غير ممتلك يسقى به الأعلى فالأعلى هذا ما يوجب الشرع، وإن كان الماء من الأودية التي لا ملك عليها لأحد حكمه أن يسقى به الأعلى لا حق فيه للأسفل حتى يسقى الأعلى".⁴

* الكعب: النهاية

¹- وهبة الزحيلي: مرجع سابق، ص 710.

²- الشاطبي: مصدر سابق، ص 386.

³- نفسه، ص 384.

⁴- الونشريسي: مصدر سابق، ص 38.

النموذج الثالث:

روى ابن ماجة عن النبي ﷺ: أن قوما اختصموا إليه في حائط بينهم، فبعث معهم حديفة بن اليمان -يقضي- بينهم، فقضى للذي يليه القمط فرجع إلى رسول الله فأخبره الخبر، فقال له: أصبت"

والقمط هو العقد، وهذا الحديث قاعدة مشهورة في القضاء في الحوائط والجدران، ولا يزال القضاة يحكمون بها لأوقات متأخرة، فقد ذكر ابن الرامي البناء أمثلة كثيرة في الأخذ بهذه القاعدة المستتبطة من الحديث النبوي.¹

وكان الإمام علي كرم الله وجهه يحكم بالحائط إلى من إليه قمطه -عقده- وإن كان في الحائط باب حكم لمن إليه غلق الباب.

وكان أئمة المذهب الحنفي يقضون بهذه القاعدة لصاحب القمط،² وذكر ابن الرامي أن قاضي تونس في زمنه حكم بالحائط لمن إليه قمطه.³

القضاء في خلافة أبي بكر وعمر:

حين تولى أبو بكر الخلافة عهد بالقضاء إلى عمر بن الخطاب، وقال له عمر: "أنا أكفك القضاء"،⁴ وظل عمر عامين لا يأتيه المتخاصمين لما عرف به من شدة وحزم. فلما تولى هو الخلافة أعطى دفعا جديدا لولاية القضاء، فجعله مستقلا عن الخليفة، وشدّد على الولّاة ونهاهم عن التعرض للقضاة، وعين عمر القضاة في الأمصار، فولى شريحا الكندي قضاء الكوفة، وعثمان بن قيس بن أبي العاص قضاء مصر، وأبا موسى قضاء البصرة، ورسالة عمر لأبي موسى في القضاء مشهورة.⁵ ومن القواعد التي اعتمدها عمر في القضاء، وهي لا تخرج عن سنة رسول الله (ص) فيما عرف من أفضية فذكر مازري عن أبيه، أنه كان له في حائط حدة ربيع؟؟ لعبد الرحمن بن عوف، فأراد عبد الرحمن أن يحوله إلى؟؟ من الحائط هي أقرب إلى

¹ - ابن الرامي: مصدر السابق، ص 130.

² - نفسه، ص 135.

³ - نفسه، ص 136.

⁴ - جرجي زيدان: تاريخ تمدن الإسلامي، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ط، ص 237.

⁵ - حسين الحاج حسن: مرجع سابق، ص 177.

أرضية، فمنعه صاحب الحائط، فأخاضه عبد الرحمن إلى عمر بن الخطاب في ذلك
فقضى عمر لعبد الرحمن بن عوف بتحويله.¹

ومن أقضية عمر رضي الله عنه في هذا المجال، ما رواه الضحك بن خليفة: أنه
ساق خليجا من العريض، فأراد أن يمر به في أرض محمد بن مسلمة، فأبى محمد،
فقال الضحاك: لم تمنعني وهولك منفعة، تشرب به أولا، وآخر لا يضرك، فأبى محمد
بن مسلمة، فكلم فيه عمر، فدعاه عمر فأمره أن يخلي سبيله، فقال محمد: لا، فقال
عمر: لم تمنع أخاك ما ينفعه" وهولك نافع فتسقى به، فامتنع محمد بن مسلمة، فقال له
عمر: والله ليمربه ولو على بطنك، فأمره عمر أن يمر به ففعل الضحاك.²

وكان القاضي في بداية الدولة الإسلامية يجلس في بيته للخصومات، ثم صار
جلس للفصل في المسجد، وفي فترات لاحقة اتخذ الخلفاء والولاة دار القضاء،³ يقصدها
أهل الخصومات وبهذا ظهر داخل المدينة الإسلامية مرفق عام جديد هو دار القضاء،
ولا شك أن هذا المرفق له ما يميزه عن سائر المرافق العامة الأخرى كالمسجد وقصر
الإمارة من حيث الإنشاء، ومن حيث اختيار موقع البناء، وهو غالبا ما يقام قرب دار
الإمارة، أو قرب المسجد، بحيث يبعد عن الأحياء السكنية، ويبعد عن ضوضاء أصحاب
الدكاكين والحرف، حتى لا يشوشوا على السير الحسن للقضاء.

وكتب عمرو بن العاص والى مصر إلى عمر بن الخطاب يطلب حكمه في رجل
أحدث غرفة ينظر منها إلى حريم جاره من خلال كوة فتحها في حائط الغرفة، فكتب
إليه عمر، وأمره أن يتخذ وراء الكوة سريرا، ثم يصعد عليه رجل، فإن رأى شيئا مما
في دار الجار، منع ذلك الرجل من اتخاذ الكوة، فإن لم يرى الرجل شيئا لم يمنع
صاحب الكوة.

ومهام القاضي على العموم هي استيفاء الحقوق، والنظر في الأوقاف، وإقامة
الحدود، والنظر في مصالح الناس، وكف الناس عن التعدي على الطرقات.⁴

¹ - مالك بن أنس: مصدر سابق، ص 651-652.

² - السيوطي جلال الدين: تنوير الحوالك، شرح على موطأ مالك، دار الندوة الجديدة، بيروت، د.ط، ج3، ص

219.

³ - حسن الحاج حسن، مرجع سابق، ص 177.

⁴ - حسين الحاج حسن: مرجع سابق، ص 182.

ويدخل ضمن اختصاصاته أيضا النظر في الوصايا والتحجير والقسمة
والمواريث، كما يختص بالنظر في المصالح العامة كمنع التعدي على الألفية واخراج
الناس ما ليس لهم فيه حق كالرواثن والسباطات والأبنية.

الفصل الثالث

المصادر البيئية والثقافية

أولاً: تأثير العوامل المناخية على العمارة

ثانياً: الأسس الاجتماعية

أولاً: تأثير العوامل المناخية على العمارة

وتتمثل العوامل المناخية في درجات الحرارة والرطوبة وفي حركة الشمس وفي كميات الأمطار المتساقطة وفي مواسمها في سرعة الرياح. وهذه العوامل ثابتة في كل إقليم، وهي تؤثر تأثيراً بالغاً في توجيه مبانيه ومجموعاته العمرانية. وهي تعتبر عامل إحياء، بحيث تساعد المعماري في ابتكار المعالجان المعمارية الأربعة، التي تساهم في توجيه حركة الهواء أو الحماية من أشعة الشمس أو استعمال المواد الأولية المناسبة، والتي تسطيع مقاومة هذه العوامل المناخية، وفي الغالب تكون المعالجات تلقائية، مصدرها البيئة المحلية، مثل اتخاذ الأقبية والمشربيات أو توجيه المداخل أو الطرق والممرات.¹

فالعوامل المناخية تمثل الأساس الأول الذي يضعه المعماري في اعتباره عند الشروع في التخطيط والبناء.

إنّ العمارة الإسلامية قد تمت في بيئات مختلفة، فاختلقت عمارتها باختلاف هذه البيئات، وأثر هذا التنوع البيئي تأثيراً بالغاً في مجال العمارة. والعمارة الإسلامية في مجملها قد تأثرت بالبيئة التي وجدت فيها من جانبيين. الجانب الأول: وهو اعتماد العمارة الإسلامية على المادة البنائية التي توفرها البيئة

المحلية، فيكثر اعتماد الحجر كمادة أولية في البناء في المنطقة الجبلية أو القريبة منها، بينما يكثر اعتماد الطين أو الآجر المشوي في المناطق التي تنعدم فيها الحجارة ويكثر وجود الطين.

الجانب الثاني: إنّ المعماري المسلم في مختلف البلاد الإسلامية نجده قد تفاعل مع عامل المناخ، واستطاع أن يكيف هذه العمارة مع عامل المناخ، كما استطاع أن يبتكر حلولاً إنشائية ومعمارية كان لها دورها في التخفيف من قساوة المناخ الحار والجاف الذي يسود في أغلب بقاع العالم الإسلامي.

¹ عبد الباقي إبراهيم تأصيل: مرجع سابق، ص 21

وسنحاول التعامل مع البيئة في العمارة الإسلامية من خلال هذين الجانبين،
محاولين إبراز أهمية البيئة وسيطرتها على الأنماط البنائية داخل المدينة الإسلامية.

1. المحور الأول: مواد البناء

فالعمارة الإسلامية بجميع أنواعها تعتمد على المواد الأولية التي توفرها البيئة، ولم يشتهر في تاريخ العمارة أن الحكام كانوا يستوردون المواد البنائية، إلا في الحالات النادرة. وحين شرع النبي في بناء المسجد النبوي استعمل المواد المتوفرة في البيئة، وهي الطين والخشب المأخوذ من جنوع النخيل. وفي حالات كثيرة كان المسلمون يأخذون المواد البنائية من مبان تعود للفترات المتقدمة عنهم.

ونذكر هنا ملاحظة هامة، فمواد البناء مهما اختلفت البيئات، فإنها تبقى محصورة ومحددة، وهذه المواد هي في الغالب الحجر والمواد المشكلة من الطين كالأجر، ثم نجد الخشب على اختلاف وتنوع مصادره. والأمر الذي يختلف من بيئة إلى أخرى هو الاختلاف في استعمال هذه المواد، أو التفاوت في استخدامها تبعاً لندرتهما أو توفرهما في البيئة. فعلى سبيل المثال ينذر استعمال الخشب في المناطق الصحراوية، بينما نجده بوفرة في المناطق التلية، أو المناطق الغابية.

إن المواد المتوفرة في البيئة من شأنها أن تساهم في توفير الوقاية من الحرّ والبرد. لهذا قام البنّاءون باختيار المواد البنائية بعناية فائقة. والتي تلائم المناخ الحار، خاصة تلك المواد التي لها خصائص كبيرة في العزل الحراري.

أ. الطوب اللبن:

ويمثل الطوب مادة أولية بالغة الانتشار في البلاد الإسلامية، ويوجد حوالي عشرون طريقة في استعمال الطوب، وأهم هذه الطرق طريقتين شائعتين.
طريقة الطوب: ويتم من خلالها تشكيل الطوب في قوالب، ثم يتم تجفيفه في الشمس، ثم يستخدم في بناء الأسوار والقناطر والقباب.

Pise De Terre : ويتم به تشييد الجدران بسمك لا يقل عن 50 سم عن طريق

دكّ الطوب بين هياكل خشبية متوازية، لهذا فهو يسمّى أحياناً "الطوب المدكوك".

1- يحي وزير: مرجع سابق، ص 105.

ويتم اختيار المادة الأولية بعناية فائقة، ويخلط مع الماء أو التبن أو القش لتكوين خليط متماسك.

ويغلب استعمال الطوب في المناطق الحارة التي لا تتعرض بوفرة لمياه الأمطار، التي تؤثر سلباً على مادة الطوب.

ومع ذلك فقد اهتمدي المعماري إلى طريقة إنشائية لحماية جدران الطوب. فجعل من السقف وسيلة لحماية الجدران، كما اتخذ أحيانا الأساسات من الحجر.

والطوب مادة اقتصادية لا تكلف مستعملها الشيء الكثير، وهي متوفرة بالطبيعة، ويضاف إلى هذه الخصائص، كونها مادة مقاومة للحرارة، أي أنها عازل جيد لدرجة الحرارة.

ب. الأجر:

شاع استخدام الأجر في كل من إيران والعراق ومصر وبلاد المغرب، حيث ينذر وجود الحجر والخشب، ويعرف في بلاد العراق باسم "الطابوق"، وفي مصر باسم "الطوب الأحمر"، ويستخدم الأجر في بناء الحوائط Consols، وفي بناء القباب والأقبية، والمآذن وعند استعماله بسمك كبير فإنه يساهم في العزل الحراري¹.

ج. الحجر:

واستخدم الحجر في البناء منذ أقدم العصور، كما استخدم في العمارة الإسلامية، وهو يستخدم بسمك كبير، لتوفير العزل الحراري للفراغات الداخلية.

وفي أغلب المدن الإسلامية، فإن الطابق الأرضي من البيت يقام بالحجر بسمك 50سم، ونظراً للون الفاتح للحجارة فإنها تعكس أشعة الشمس، والحجر الجيري مادة ذات سعة حرارية كبيرة جداً، فلا تمر الحرارة من خلاله إلا بعد خمسة عشر ساعة². أما في الليل فإن سكان المنزل عادة لا يستعملون الطابق الأرضي لارتفاع درجة الحرارة فيه، الناتجة عن تخزين الحجر للحرارة.

1- وزيرى: مرجع سابق، ص 106.

2- نفسه، ص 107.

د. الخشب:

تفتقر أغلب مدن العالم الإسلامي لمادة الخشب، واستخدمت مادة الخشب في عمل الأسقف الأفقية المستوية، كما استخدم في إنشاء بعض القباب ومن أهمها قبة الصخرة.

والخشب كما هو معروف عازل جيّد للحرارة، وخاصة عند استخدامه في الأسقف بالمناطق الحارة.

ونظرا لنذرته، فإنه يقلّ استخدامه في كثير من البلاد الإسلامية، وتمّ استبداله بجذوع النخيل كأعمدة عند بناء المساجد، واستخدم كدعامات في سقوف المنازل والمساجد، بعد أن يتمّ شطرها إلى شطرين.

ويستعمل الخشب كمادة مساعدة في بناء الحوائط، كما يستخدم في صناعة الأبواب والنوافذ، وشاع استعمال الخشب في صناعة المشربيات في القاهرة.

2. المحور الثاني، الحلول الإنشائية

وعلى هذا المستوى حاول المعماري المسلم التفاعل مع عامل المناخ، فابتكر لذلك حولا إنشائية كان القصد منها تجاوز مشكلة المناخ، وقد تدرج المعمار المسلم في التعامل مع مشكلة المناخ، ليتم له ذلك على عدة مستويات.

المستوى الأول: مستوى المدينة.

المستوى الثاني: مستوى الشوارع والطرق.

المستوى الثالث: مستوى الوحدات المعمارية.

المستوى الأول: مستوى المدينة.

1- اعتبار العوامل البيئية في اختيار مواقع المدن:

أخذ مؤسسو المدن عامل البيئة في الاعتبار منذ اللحظة الأولى التي قرروا إنشاء المدن، فاخترتوا من المواقع ما يلائمهم بيئيا، فلا يؤثر على أجسامهم وعقولهم، فأرسلوا أشخاصا يرتادون لهم مواقع تصلح أن يتخذوها مدنا، وحين استأذن الناس عمر بن الخطاب في إقامة المدن أشار عليهم أن تكون مواقع هذه المدن على أطراف البادية، قريبا من الماء والمرعى. وعلى هذا الأساس تمّ اختيار موقع مدينة البصرة والكوفة.

وعندما أراد الحجّاج بن يوسف الثقفي إنشاء مدينة واسط، طلب من أهل العلم والمعرفة بالزراعة والريّ اختيار موقع مناسب وطلب منهم أن يكون موقعها مرتفعا وعلى ضفاف نهر، وأن يكون مناخ المنطقة جيّدا. وحين اختار المنصور موقع مدينة سامراء اختار لها موقعا مرتفعا على سطح النهر، هواءها منعش، وصحي.¹

أما المنصور العباسي فقد رأى أن يؤسس مدينته على أرض خصبة، تقع على نهر دجلة والفرات، فخرج إلى المكان المختار وأقام فيه يوما وليلة، وكان ذلك في فصل الصيف، فأعجبه هواءه، ثم دعا أهل هذه الناحية وسألهم عن المكان، وكيف هوفي الحر والبرد، فوقع اختيار المنصور على موضع بغداد.²

وتذكر الروايات التاريخية أن صلاح الدين الأيوبي، عندما أراد إنشاء القلعة بالقاهرة، أمر بتعليق قطع من اللحم في أماكن مختلفة، كان قد اختارها، واختار موقع قلعته في المكان الذي تأخر فيه فساد اللحم، لأنّ ذلك علامة على نقاء هواءه.³

وتعتبر جودة الهواء من أهم الخصائص التي يرى الجغرافيون أنها من محاسن المدن، فقد ذكر القزويني أن اللحم يبقى في صنعاء مدة أسبوع قبل فساده، أما في طليطلة فإن المحاصيل تبقى في المطامير مدة سبعين سنة لا يصيبها الفساد نتيجة لطيب هواءها، وفي أصفهان يبقى التفاح غضا سنة والحنطة لا تسوس واللحم لا يتغير.⁴

ويذكر ابن خلدون من شروط المدن، دفع المضار، ومما يراعي في حفظ المضار الحماية من الطّوارئ السّماوية، بأن يكون طبيبا هوائها، دفعا للأمراض، ويعلّل ذلك بأن الهواء إن كان راكدا خبيثا (فاسدا) أوقريبا من مستنقعات، صار فاسدا فتأذى بذلك الإنسان والحيوان على حدّ السّواء، ثم يذكر مدينة قابس بتونس كمثال عن المدن التي تشتهر بفساد هواءها، فهي ذات هواء فاسد، تكثر فيها الأمراض، ولا تكاد الحمى تفارق ساكنيها.⁵

1 يحي وزيري: نفسه، ص 94

2 محمد بن جرير الطبري: ج9، ص238، 239.

3 يحي وزيري: مرجع سابق، ص 94.

4 القزويني: مصدر سابق، ص 39، ج4.

5- ابن خلدون: مصدر سابق، ص 347.

فلم يكن بناء المدينة الإسلامية اعتباطياً، فكما خضعت لنظام اجتماعي وسياسي، فإنّه راعى عامل البيئة التي تقام فيها المدينة، لهذا فإنّ المدينة الإسلامية راعت في أدقّ تفاصيلها عامل البيئة.

فقد حاول منشئو المدن التكتيف مع عامل المناخ وقد تحقّق لهم ذلك بقدر كبير، وهذا ما يدل أن المدينة الإسلامية في أصل نشأتها لم تكن أمراً عشوائياً. فالأبنية داخل المدينة الإسلامية متلاصقة، ولا تتفصل عن بعضها البعض، بحيث تشكل كتلة واحدة، وهذه الكتلة المتراسة الأفقية، تتخلّلها دروب وأزقة ضيقة تعترضها أحيانا غرف مبنية فوق الشوارع أو فوق جزء منه.

ويحقّق لنا هذا التخطيط نوعاً من التعادل الحراري، بفعل تواجد الحارات خارج السكن، ووجود الأحواش السماوية داخله.

وبفضل هذه المساكن المتراسة، والشوارع الضيقة والأحواش المفتوحة، فإنّ الظل يسيطر ويجتمع الهواء الرطب الليلي، بحيث يصعب طرد الهواء المعتدل أثناء النهار لضيق الفراغات، كما لا تستطيع الرياح في النهار أن تأخذ الهواء الليلي من الأحواش والحارات.¹

المستوى الثاني: الشوارع والطرق.

الشوارع والمناخ:

يعتبر توجيه الشوارع من المعالجات المناخية التي برزت في تخطيط المدينة الإسلامية، فكثير من المدن قد وجهت شوارعها الرئيسية من الشمال إلى الجنوب حتى تكون عمودية مع أشعة الشمس، ممّا يوفر لها برودة ونسبة تظليل كبيرة. وأحسن مثال لهذا الحل التخطيطي وجد في مدينة القاهرة، وسارت عليه مدن صعيد مصر، وفي القصور الصحراوية بالجزائر توجه الشوارع باتجاه القبلة، من أجل أشعة الشمس وتوفر الهواء النقي الصحي،² وأغلب المدن الواقعة في المناطق الحارة من البلاد الإسلامية تتبع هذا الحل المناخي.

¹ - محي الدين سلقيني: "العمارة البيئية": دار قابس للطباعة والنشر، ط1، 1994، ص 98.

محمد التريكي وخالد بوزيد: مرجع سابق، ص 113

وفي المناطق الباردة تأخذ الشوارع شكلا عكسيا فيغلب عليها التوجّه إلى الجهة الشرقية الغربية، مما يجعلها معرضة لأشعة الشمس.

وهذا التخطيط يكثر في المدن الساحلية، حيث نجد الشوارع تكون موازية للبحر،

لتكون المباني بمثابة عامل صدّ ضدالرياح.1

وقد أثرت في تحديد مواضع الطرق الخاصة اعتبارات عديدة منها ما هو متّصل

بطبيعة حركة الشمس واتّجاه الريح، ومنها ما هو مرتبّط بظروف المساحة التي تؤثر في

طريقة تقسيمها وبالتالي اتجاه الشوارع فيها.

فمع حركة الشمس الظاهرة من الشرق إلى الغرب يتّجه التفصيل في توجيه

الشوارع في المناطق الحارة من الشمال إلى الجنوب لأنّ ذلك يساعد على عدم تعرّض

الطرق وواجهات البيوت المطّلة عليها فترة طويلة للشمس، بالإضافة إلى أنّ هذا

التوجيه يمكن من استقبال رياح الشمال المخفّفة للحرارة، والرغبة في الحصول على

هذه المميّزات في التخطيط تؤدّي إلى توجيه المنازل والطرق الخاصة توجيهها يحقق

تلك المميّزات، وينتج عن تكرار توازي الطرق الخاصة لتوازي الواجهات المطّلة

عليها.²

ضيق الشوارع:

يؤدّي ضيق الشوارع، إلى تعرّضها لأقلّ قدر ممكن من أشعة الشمس المباشرة.

يضاف إلى ذلك أنّ ضيق الشوارع داخل المدينة كان يناسب وسائل الانتقال في تلك

العصور.

وفي المناطق الحارة من البلاد الإسلامية توجّه الشوارع من الشمال إلى

الجنوب، لأنّ ذلك يجعل واجهات البيوت المطّلة على الشوارع معرضة لأشعة الشمس

لفترات قصيرة.³

فالشوارع الضيقة توفر لنا قدرا من الظل، نتيجة للعلاقة القوية بين عرض هذه

الشوارع وبين ارتفاع الوحدات المحيطة بها، وهذا ما يجعل منها خزانات حقيقية للهواء

1- عبد الستار: مرجع سابق، ص 88.

2- نفسه، ص 184-185.

3- وزير: مرجع سابق، ص 98.

البارد. وتلعب الظلال دورا هاما في التخفيف من درجة الحرارة الفراغات الداخلية، كما تقوم بتلطيف الجو عندما يعبر مسطحات الشوارع المظللة ذلك قبل عبوره إلى داخل الوحدات السكنية.

ويمكننا ان نلاحظ نوعين من المسطحات المظللة داخل شوارع المدينة الإسلامية؛ المسطحات التي تكون نتيجة لارتفاع المباني، ثم المسطحات المظللة التي تكون ناتجة عن بروزات الكرانيش والسقائف والسباطات.¹

ويعتبر نظام السباطات الذي شاع استعماله في المدن الإسلامية، كواحد من أهم الحلول الإنشائية التي لجأ إليها المعماري داخل المجمعات السكنية. فالسباطات بنيت من جذوع النخيل بطريقة تسمح بمرور الهواء من أسفله. ويستخدم السباط في المناطق الصحراوية لتخزين التمر، ويستخدمه الأطفال للعب، والنساء للمرور من منزل لآخر، حتى لا تخرجن للطريق العام.²

وزيادة على ذلك يعمل السباط كعامل ربط وتقوية للمباني داخل التجمعات السكنية. (أنظر اللوحة الحادية عشر)

ومن أطول السباطات وأكثرها تغطية للطريق، تلك التي في القرى على وادي ضرعة في جنوب المغرب، فهي أشبه بالنفق، فتجد طريقا طويلا مسقوفا، ثم فتحة صغيرة مربعة ثم سباطا آخر، ويوفر هذا النظام الرطوبة المطلوبة وخاصة في فصل الصيف، كم يمنع من تجمع الذباب الذي يكثر في المنطقة بسبب اعتماد الناس على التمر.³

تسقيف الشوارع: (أنظر اللوحة الأولى)

ومن أجل توفير المزيد من الظلال بشوارع المدينة الإسلامية، لجأ المعماري الإسلامي إلى تسقيف بعض الشوارع التجارية، كما اشتهر في المدينة الإسلامية

¹ عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية في العمارة، ص 420.

² جميل أكبر: مرجع سابق، ص 266.

³ نفسه، ص 267

استعمال السباطات، وعادة ما يلجأ التجار إلى تسقيف واجهات الدكاكين من أجل حماية سلعهم كالحرير وغيره من الأقمشة.

وفي مكة المكرمة غطيت الأسواق بكاملها لارتفاع درجة الحرارة.1
وفي المناطق الصحراوية شاع تسقيف الشوارع التي يتعرض مستعملها لأشعة الشمس المحرقة.

وفي الصحراء الجزائرية شاع النظام المعروف بالقصور، وأهم ما يميز هذه القصور: أن شوارعها المختلفة مغطاة كلياً، تتخللها بعض الفتحات المربعة أو المستطيلة. لتسمح بمرور الضوء والهواء ودرجة الحرارة بداخلها معتدلة وجوها منعش، ولا تكاد تشعر أنك في الصحراء.

جـ/ تلاصق المباني:

كلما تعددت أسطح البيت أو المبنى، المعرضة لأشعة الشمس، فإنه يزيد من احتمال ارتفاع درجة الحرارة داخل المبنى، فيتجه لامتصاص العدد الكبير من الأسطح لدرجة الحرارة.

فداخل المدينة الإسلامية نجد أن البيوت يلاصق بعضها بعضاً، بحيث لا يبقى إلا السطح معرضاً لأشعة الشمس إلا بمساحة صغيرة.

وتحول الدروب الضيقة والأزقة الملتوية دون تعرض لواجهات المنازل إلى أشعة الشمس.

إن أحياء المدينة لم يكن يوجد بها فاصل بينها، فالبيوت متلاصقة، فلا يوجد فراغ بين المنزل، وتظهر الأحياء المدينة من أعلى كأنها كتلة واحدة. وتلاصق هذه المنازل وضيق الشوارع وتعرّجها له ما يبرّره.

فقد ذكرنا سابقاً أن المدن الإسلامية أغلبها تمتد ما بين خطي 01 و35 درجة شمال خط الاستواء، وهي بيئته معظمها حار. اللجوء إلى تلاصق الوحدات البنائية المختلفة، والشوارع الضيقة، وانعدام الفراغات كالساحات العامة، فنسبة الفراغات

1- وزير ي: مرجع سابق، ص 100.

الخارجية المكشوفة يبلغ في المدينة الإسلامية 11%، فبينما يرتفع هذا الرقم إلى 27% في المدينة الإغريقية، و31% في المدينة الرومانية. وهذه النسبة الصغيرة تبين ملائمة نسبة الفراغات الخارجية بالمدينة الإسلامية¹.

المستوى الثالث: الوحدات السكنية.

الحماية من حر الصيف:

ذكرنا سابقا أن أغلب الدول الإسلامية تقع في منطقة جافة أو شبه جافة، وأمام ارتفاع درجة الحرارة في هذه المناطق وكثرة الرياح المحملة بالرمال والأتربة، فإنّ المعمار الإسلامي لجأ إلى حلول استثنائية، استطاع بفضلها التخفيف من هذه العوامل الطبيعية، مما أمكنه الاستقرار في الأماكن الأشدّ حرّاً بالمناطق الصحراوية. وتعتبر درجة الحرارة الملتهبة صيفا من أشدّ العوامل التي يواجهها ساكنوا المدن الإسلامية، إلى درجة أن المواطن اليوم في الصحراء لا يمكن الاستقرار في بيته دون مكيفات الهواء الحديثة.

ولنا أن نتساءل كيف أمكن للمعمار المسلم أن يتغلب على عامل الحرارة؟ حفاظا على درجة الحرارة داخل المنزل وضع المعمار عدّة حلول إنشائية، سنحاول التعرّض لها، وهي كالتالي:

الصّحن (أنظر الوحة الرابعة والخامسة والسابعة)

وقد يسمى الحوش أوالباحة، والصّحن نظام شائع في العمارة الإسلامية، لا يخلو منه مبنى سواء كان دينيا أو مدنيا، فالصّحن داخل الوحدة السكنية أو داخل أي منشأة أخرى يوفر فراغا مفتوحا محميا، فهو معرّض باستمرار لأشعة الشمس بما يوفر له المدفئ والنور، كما يحميه من الرياح الحارة والمحملة بالرمال.

1- وزيرى: مرجع سابق، ص 97.

يتم التبادل الحراري بين أقسام المنزل والفراغات المختلفة.

وفي منطقة "أمزروا"، بالجزائر، يتم بناء حوشين، أحدهما أكبر من الآخر، فحين تسقط أشعة الشمس في أحد الفناءين، فإن الفناء المعرض للشمس يصير الهواء فيه ساخنا فيرتفع الهواء فيه إلى الأعلى وتخرج خارج المبنى، أما الهواء البارد فيسحب من الفناء الآخر ليحل محلّ الهواء الساخن ويمرّ الهواء البارد عبر الغرف والفراغات الموجودة بين الفناءين، فيساعد على خلق جو مناسب داخل المنزل ونفس الظاهرة مستعملة في الشوارع في منطقة غرداية.¹

وفي دراسة لأفنية مجموعة منازل داخل القاهرة كانت النتيجة أنّ درجة الحرارة داخل الفناء كانت منخفضة مقارنة مع درجة الحرارة خارج المنزل صيفا، وتكون درجة حرارة الفناء أقلّ من درجة الحرارة في السطح. وكلما كانت جدران الفناء عالية كلما كان نسبة الظل عالية، ففي منزل السحيمي بالقاهرة تبلغ نسبة التظليل 45% صيفا و75% شتاء، وتزداد هذه النسبة في بيت الكريديية، لأنّ جدرانه أكثر ارتفاعا من بيت السحيمي.²

وبين الخارج ليلا عن طريق الانعكاس الحراري، والتبادل الحراري الانتقالي، وهذا يعني أنّ سطح الصّحن أو الحوش يبعث ما خزّته من حرارة طيلة ساعات النهار الطويلة على شكل أشعة منعكسة، فيفقد بذلك درجة حرارته. بحيث يصير سطح الصّحن أكثر أماكن البيت برودة، وحين يلامسه الهواء يبدأ في التبرّد تدريجيا، وعندما يتبرّد الهواء يصير ثقيلًا، وبالتالي فإنّ الهواء البارد ينزل إلى أدنى المستويات في المنزل، ويبقى على هذه الحالة طيلة الليل وإلى غاية ساعات النهار الأولى، قبل تلامسه أشعة الشمس ظهرا.

وحين تلامسه هذه الأشعة أرضية السطح قبل الزوال، فإنّ الأرضية تقوم بامتصاص الحرارة، وتعكسها على طبقات الهواء التي تزول على قدر من البرودة. وعندما تبدأ هذه الطبقات المتتالية من الهواء فإنها كثافتها تخفّ، تبدأ في الارتفاع لتحلّ

1- وزيرى: مرجع سابق، ص 112.

2- نفسه، ص 113.

محلها الطبقات الأخرى التي تخل محلها وهي أقل برودة منها. مما يوفر بعض الانعكاس، ويوفر لساكن البيت ارتفاع لحرارة سطح البيت.¹

ولجأ مستخدمي الصحن في كثير من الأحيان إلى تغطيته في أوقات الحر الشديد، من أجل توفير قدر من الرطوبة للصحن ومن خلاله للوحدات الأخرى. وكان الرومان يلجأون إلى هذه التقنية، فيقومون بتغطية مسارحهم صيفا بخيمة شدت بالحبال، أما دورهم فقد استعملوا الستائر الأفقية على نظام واسع. وهي شمال إفريقيا غطيت أفنية الدور بنفس الطريقة في أوقات اشتداد الحر.²

وفي الزيادة التي تمت في جامع القرويين بفاس سنة 583هـ، تم وضع أشرطة غليظة ركبها في قلاع من شقاق الكتان على قدر الصحن، ثم نصبت بأعلى الصحن، فإذا اشتدت الحرارة ظللت الصحن.³ وهذا من الأمثلة النادرة التي وصلتنا عن تغطية الصحن.

وفي غرداية يتم تغطية الصحن كلية، وتترك فتحة كبيرة من أجل الإضاءة والتهوية.⁴

وتحديد مساحة الصحن تتحكم فيها العوامل المناخية، الخاصة بكل إقليم، بحيث تقل مساحة الصحن في المناطق الباردة، كآسيا الصغرى والبلاد التركية، وفي المناطق العربية وإيران والهند نجد أنّ الصحن يكون أقل حجما،⁵ وفي غرب العالم الإسلامي فيشغل الصحن نصف مساحة المسجد وأكثر وهو خال عادة من الأروقة سواء كانت جانبية أو خلفية، فيظهر الصحن كأنه فناء فسيح في مؤخرة المسجد، وهذا الأمر راجع إلى وفرة الأمطار في بعض هذه المناطق، فيلجأ المعماري إلى تغطية أكبر مساحة ممكنة من المبنى.⁶

1- ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 232.

2 - عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفة، ص 418.

3 إبراهيم عامر: "تأثيرات معمارية وافدة على العمائر المملوكية" جمعية الأثاريين العرب، ج 2 ص 722.

4 André ravéreau : le m'zabp176

5 معروف بلحاج: مرجع سابق، ص 155.

6 حسن مؤنس: مرجع سابق، ص 78.

وأجرى بعض الباحثين قياسات لدرجة الحرارة في منزل ذي طابع إسلامي بالقاهرة، وهو المعروف ببيت السحيمي.

ولا يكاد يخلو بيت من النافورة، التي تلعب دورا هاما في تلطيف الجو، من خلال رذاذ الماء المنبعث من النافورة والذي يؤدي إلى تبريد طبقة الهواء الذي تلامسه، فيخف وزنه فيتصاعد إلى الطبقات العليا ليحل محله الهواء الساخن فتتكرر تبعا لذلك نفس العملية مما يساهم في تلطيف الجو.

الإيوان:

يستعمل الإيوان في الصيف عادة كغرفة للطعام، يستعمل في الليل كمكان لسمر العائلة والتمتع بالجو المنعش، والتمتع برؤية مياه النافورة واستنشاق الروائح الطيبة المنبعثة من الحديقة الموجودة بالصحن. كما يستعمل للقبولة في فترات الحر، وداخل بيوت الأغنياء قد يوجد أثر من إيوان، يستعمل الإيوان الأول للصيف والثاني للشتاء.¹

سمك الجدران:

وهو من الحلول البسيطة والهامة في التخفيف من درجة الحرارة، التي لجأ إليها المعماري المسلم.

فالجدران والأسقف السمكية، تساهم بشكل جيد في المحافظة على برودة المبنى نهارا، فهي تملك قدرة كبيرة في امتصاص حرارة أشعة الشمس الساقطة عليها. وتأخذ الحرارة زمتا للمرور عبر هذه الجدران، وبالتالي فإن الجدران السمكية تحول دون عملية تسخين الفراغات الداخلية للمنزل في فصل الصيف، لهذا فهي تحافظ على رطوبتها في هذه الفترات الحارة من الصيف.

وتساهم الأسطح السمكية وذات الطبقات المختلفة من مقاومة حر الصيف، كما يستعمل السطح كمجال للجلوس والنوم في الفصل الحار، والتمتع بنسيم الصيف.

¹ خالص الأشعب: مرجع سابق، ص 36.

وعادة ما يكون سقف البيت أوالمبنى مرتفعا، وهو حل معماري، اقتضته الظروف البيئية، فارتفاع السقف يسهل صعود الهواء الساخن إلى الأعلى، وترك مكانه لهواء أبرد منه وأثقل، مما يسمح للسكان بالحركة في المجال البارد.

السراديب:

وهي ما نصلح على تسميته اليوم "بالطابق تحت أرضي"، وهونظام كان متبعا منذ القدم وفي حضارات مختلفة، فقد أدرك الإنسان منذ القدم أنّ هناك تناسب عكسي بين تعرض كامل المبنى للشمس والهواء وبين ضعف درجة الحرارة بداخله، فكانت فكرة اتخاذ السراديب هي الحل الأمثل لتطبيق هذه الفكرة، وبالتالي يكون السرداب غير معرض لأشعة الشمس، مما يوفر نسبة عالية من الرطوبة بداخله. ولجأ المسلمون إلى تطبيق نفس الحل المعماري، فشيّدوا حجرات تحت الأرض لاستخدامها في فصل الصيف حين تشتد درجة الحرارة. وقد عثر الأثريون على نماذج لهذه السراديب في قصر الأخيضر، وأجريت حفائر في مدينة الفسطاط سنة 1969، تم العثور على سراديب، يتم النزول إليها عن طريق سلالم هابطة.¹ وقد يوجد في البيت الإسلامي أكثر من سرداب، وهو أمر مرتبط بالحالة الاجتماعية، فالبيوت الكبيرة قد يوجد بها أكثر من سرداب. وهو عادة ما يكون لديه فتحات صغيرة تفتح على الحوش لفي أغلب الأحيان وعلى الشارع أحيانا قليلة.²

التهوية الطبيعية:(أنظر اللوحة الثامنة والحادية عشر)

واجه المعماري المسلم مشكلة توفير التيارات الهوائية من خلال اتخاذ النوافذ. لاعتبارات اجتماعية وتخطيطية مثل التخطيط المتراص للأبنية وعامل الخصوصية والغيرة على النساء مما أدى إلى انعدام النوافذ باتجاه الخارج. باستثناء الأبواب التي تستخدم كممرات للسكان أو للوسائل التنقل المحلية. وفي الغالب نجد فتحات ذات أحجام محددة، لا تسمح إلا بمرور أشعة الشمس، أو من أجل التهوية. وفي مدن ميزاب نجد أن

¹ عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفة، ص 417.

² عبد الباقي إبراهيم: مرجع سابق، ص 37.

هذه النوافذ تضيق لتصل إلى سبعة سنتيمترات عرضاً، أما ارتفاعها فيتراوح بين 30 و60 سم.¹

أما النوافذ الكبرى فهي تفقد المنزل الخصوصية، فتسمع الأحاديث التي تجري داخله، ومن هذه الأحاديث الشجارات التي تجري بين أفراد الأسرة أوبين الزوج وزوجته، فتخرج أسرارهم إلى العامة. أم من الناحية التخطيطية فإنّ النوافذ تسمح بتسرب الحرارة من المنزل في الشتاء، كما تسمح بدخول الأتربة والرمال إلى المنزل عند هبوب الرياح. وتجعله معرضاً باستمرار إلى نظرات الفضولية من المارة.

ومن الحلول التي توصل إليها المعماري، اتّخاذ النوافذ المترابطة، أي المتواضعة فوق بعضها البعض، والتي كان تنفيذها سهلاً بسبب وجود الصّحن. ومن بين هذه الحلول، اعتماد الفتحات المترابطة، أو النوافذ المترابطة على صفوف والتي تفتح على الحوش وبفضل الواجهات المرتفعة للقاعات، تمكن المعماري من وضع ثلاثة صفوف من النوافذ.

صفاً أول يكون على نفس ارتفاع الباب، وتبدأ على ارتفاع يسير من سطحية البيت، ثم تليها نوافذ أقل حجماً، أما الثالث من النوافذ فقد عرف بالقمريات أو السمسيات. وقد ساهمت في إضاءة الغرف كما يدلّ على ذلك اسمها، وغالباً ما تزين هذه الفتحات بزجاج ملون ذي زخارف متعدّدة لإعطاء تأثيرات لونية لطيفة، ومتغيرة للضوء النافذ.²

التبريد:

والتبريد من العوامل الضرورية في تأمين الرّاحة المناخية لسكان البيت وخاصة في المناطق التي ترتفع فيها درجة الحرارة، لهذا قام المعماري ببناء الواحدات على ضفاف الأنهار أو البحيرات حين كان يعجز عن إيجاد هذه المسطحات المائية. فإنه كان يتّخذ النوافير والفسقيات داخل صحن البيت لتلطيف الجوداغل الصحن.

فالنافورة تقوم بإرسال الرذاذ على شكل خيوط، وهي تساهم بشكل كبير في ترطيب الجوداغل صحن الدار أو المسجد أو أي مبنى آخر، وكلما كان سطح الفسقية

¹ André Ravéreau : le m'zab..p176.

2- ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 239.

كبيراً ، كان ذلك أدى إلى سرعة التبخر وبالتالي الزيادة في عملية التبريد. لهذا نجد أن الفسقية في مختلف المباني يكون ارتفاعها صغيراً بالنسبة إلى سطحها.¹ كما ظهرت في كثير من المدن الإسلامية ظاهرة اتخاذ الأحواض المائية الكبيرة، من أجل تلطيف الجو والتمتع بمنظر الماء ومن هذه الأحواض؛ الحوض الذي اتخذ قرب قصر رقادة بتونس، وهو حوض اصطناعي كبير جداً لازال قائماً إلى يومنا هذا.² ومثله أيضاً الحوض الكبير الذي بناه أحد أمراء بني زيان بتلمسان.

تلاصق المباني:

كلما تعددت أسطح البيت أو المبنى، المعرضة لأشعة الشمس، فإنه يزيد من احتمال ارتفاع درجة الحرارة داخل المبنى، نتيجة لامتناع العدد الكبير من الأسطح لدرجة الحرارة.

فداخل المدينة الإسلامية نجد أن البيوت يلاصق بعضها بعضاً، بحيث لا يبقى إلا السطح معرضاً لأشعة الشمس إلا بمساحة صغيرة. وتحول الدروب الضيقة والأزقة الملتوية دون تعرض لواجهات المنازل إلى أشعة الشمس.

إن أحياء المدينة لم يكن يوجد بها فاصل بينها، فالبيوت متلاصقة، فلا يوجد فراغ بين المنزل والمنزل، وتظهر أحياء المدينة من أعلى كأنها كتلة واحدة، وتلاصق هذه المنازل وضيق الشوارع وتعرضها له ما يبرره.

فقد ذكرنا سابقاً أن المدن الإسلامية أغلبها تمتد ما بين خطي 01 و 35 درجة شمال خط الاستواء، وهي بيئة معظمها حار. أدى إلى اللجوء إلى تلاصق الوحدات البنائية المختلفة، والشوارع الضيقة، وانعدام الفراغات كالساحات العامة، فنسبة الفراغات الخارجية المكشوفة يبلغ في المدينة الإسلامية 11%، بينما يرتفع هذا الرقم إلى 27% في المدينة الإغريقية، و 31% في المدينة الرومانية.

وهذه النسبة الصغيرة تبين ملائمة نسبة الفراغات الخارجية بالمدينة الإسلامية.³

¹ ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 237

² عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفة، ص 418.

³ وزيري: نفسه، ص 97.

استعمال الألوان:

استخدم المعماري الألوان منذ القدم في البناء، فالألوان تعتبر من أهم العناصر المؤثرة في العمارة. ويختلف استخدام الألوان من منطقة إلى أخرى، فالألوان الباهتة تستخدم بوفرة في المناطق الصحراوية، بينما يفضل سكان المناطق الجبلية استعمال الألوان الزاهية، وليس من الضروري المفاضلة بينهما إذ يخضع الأمر إلى أمور نفسية وبيئية.¹

ويؤثر استخدام الألوان على الإضاءة، فاستخدام الألوان الفاتحة يعطينا قيمة ضوئية أكبر، أما استخدام الألوان القاتمة فيعطينا قيمة ضوئية أقل.

لهذا نجد أن من الحلول المناخية التي اهتدى إليها المعماري المسلم، استخدام الألوان للتخفيف من وطأة الشمس، فاستعمل في بعض المناطق كالشام، اللون الأبيض لطلاء جدران المنازل، واللون الأبيض يمتصّ حوالي 15% من الطاقة الشمسية المتساقطة عليه، في حين يمتصّ اللون الأسود حوالي 70%.² وأفادت بعض الدراسات أن سطح المبنى المكعب يتلقى 50% من أشعة الشمس الساقطة عليه، ومن هنا تظهر أهمية استعمال اللون الأبيض في الطلاء. وتبلغ درجة الحرارة داخل بيت مكعب مطلى باللون الأبيض، أقلّ بـ 9 درجات مئوية في غرفة تركت بلونها الطبيعي.³

واللون الأخضر المتشعب بالأصفر يكون أكثر دفئاً من الأخضر المزرق والبنفسجي المتشعب بالأحمر يكون أكثر دفئاً من اللون البنفسجي المزرق. والأرضية الملامسة للبرتقالي تكون أكثر برودة. فاللون الأحمر هو أكثر حرارة من اللون الأصفر واللون الأزرق أكثر برودة من غيره.⁴

الترحال الداخلي:

وفي هذه النقطة تلتقي جهود المعماري، مع اجتهادات أهل البيت في محاولة للتجاوب مع الظروف المناخية داخل الوحدات السكنية، وإذا كنت جهود المعماري

¹ جاسم الدباغ: أوليات في العمارة،^{ط1}، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ص 166، 167.

ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 235

³ ناصر الرباط: نفسه، ص 236.

⁴ جاسم الدباغ: مرجع سابق، ص 171، 172.

إنشائية فإن جهود أهل البيت تأخذ طابعا حركيا، بحيث يجتهد أهل البيت في استغلال البيت في فترات زمنية مختلفة من السنة، مما يوفر لهم راحة مناخية، وهو الأمر الذي نصطح على تسميته: "الترحال الداخلي"

يساعد طراز البيت ذوالصحن المحاط بأجنحة، تنفيذ نظام الترحال الداخلي بدقة متناسبة، وقد ساهم إتساع البيت وتعدد طوابقه في تطور وبلورة نظام الترحال فيتناوب أهل البيت في استخدام الطوابق والغرف في اوقات مختلفة من النهار أو السنة.

فحياة الأسرة في الصيف عادة ما تتم بين الإيوان والصحن والسطح، من خلال استغلالها في كل فترة من فترات اليوم والليل، الصحن في الصباح والمساء، والإيوان في فترة الظهيرة، لتنتقل العائلة في الليل إلى السطح للتمتع بنسمات الهواء، كما يستعمل السطح غالبا للنوم.

وفي فصل الشتاء ينتقل أفراد الأسرة إلى الطابق الثاني الأصغر بيتا، مما يسمح بتدفئتها بسرعة، ويقلل السكان فتح وغلق الأبواب إلا للضرورة للحفاظ على درجة هذه الغرف.¹

ثانيا: الأسس الاجتماعية

1. الممارسة الاجتماعية داخل المدينة الإسلامية:

لا شك أن لكل فئة اجتماعية داخل أي تجمع حضاري مجموعة من الممارسات الثقافية والدينية والاقتصادية والمناخية.

¹ - ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 242.

والإنتاج هذه المجموعات في الغالب ما يكون خاضعا لهذه الممارسات،
أوخاضعا لمجموعة منظومة فكرية توطرها العوامل التي ذكرناها، والعمارة من
اللاإنتاج الإنشائي الذي يكون خاضعا لهذه الممارسات ذات الأبعاد المتعددة.
فالعمارة في أي مكان هي نتيجة لتفاعل بينها وبين المحيط الذي وجدت فيه من
جهة وبينها وبين ثقافة المجتمع التي أنتجها.

وبعد إنتاج أي نموذج معماري والذي يكون أسيرا لمنظومة القيم الثقافية فإن
المسألة تصير متعددة، بحيث يأسر هذا النموذج بأساليبه وإنشاءاته الأفراد والجماعات.
فمن خلال الإنتاج المعماري لأي مجتمع ما يمكن أن نتعرف على الملامح
العامة لهذا المجتمع؛ عاداته وتقاليد ومعتقداته، غير أن الأمر لا يكون بسيطا إذا كان
هذا الإنتاج المعماري خاضعا لممارسات ثقافية دخلية عليه، وغريبة عن دينه وعاداته
وتقاليد، وهذا ما حدث بالفعل لكثير من المجتمعات الإسلامية حين داهمتها موجات
الاستعمار الأوروبي الغربي.

ففرضت عليها ثقافتها وأساليبيها في البناء فصار عمارته عمارة هجينة هجانة
ثقافية، وتصدع منظومتها الفكرية بأبعادهما المختلفة، ومن هذا المنطلق فإنه من الصعب
أن تساؤلات تأثير الممارسات الاجتماعية على العمارة الإسلامية في هذه الفترات التي
خضعت لنموذج غربي حاولت فرض مناهجه وممارساته على هذا المجتمع، ويمكن
القول أنه نجح بالفعل، فقد قضى على النموذج البنائي الذي تبنته هذه المجتمعات بما
يتماشى مع منظومتها الفكرية، فصعب علينا إمكانية دراسة هذه العلاقة بين المجتمع
والبناء في مدننا الحالية، ومع ذلك فالأمل قائم وموجود، ذلك أن النموذج الغربي لم
يستطع التأثير على بعض المجتمعات السكانية بفضل صرامة نظامها الاجتماعي،
وبفضل انغلاقها على نفسها، وبفضل ابتعادها على المناطق المدنية الكبرى.

وتعتبر مدن ميزاب السبعة نموذجا جديرا بالدراسة، من عدة أوجه، لعل أهمها
أن هذه المدن لا زالت تحافظ على شكلها العام الذي خطت عليه منذ العصور الغابرة،
والأمر الثاني أن هذه المجتمعات لا زالت تخضع إلى منظومة فكرية اجتماعية
صارمة، لم تؤثر فيها حملات الغزو والتغريب.

لهذه المبررات ارتأيت أن تكون هذه الدراسة قائمة بشبه معتبرة على ما يحدث في هذه المدن من تأثر وتأثير بين النشاط الاجتماعي والفعل البنائي، واعتقد أن الأمر قد لا يختلف كثيرا في المدن الإسلامية الأولى والتي بنيت في فترات لاحقة باعتبار أن المدينة الإسلامية تحكمها نفس المنظومة الاجتماعية تقريبا .
وإيجاد العلاقة بين الفعل المعماري والممارسة الاجتماعية يقتضي منا تحديد النموذج المعماري والاجتماعي المناسب الذي يمكن من خلاله أن نظهر - نبين - العلاقة بين هذين البعدين.

واختيار النموذج يمر بمرحلتين.

الأولى: هو اختيار النموذج العام أو الدائرة الكبرى التي تدور في فلكها النشاطات الاجتماعية والدينية، وهذه الدائرة قد حددناها سابقا وهي المدينة الإسلامية وأخذنا له نموذجا مدن وادي ميزاب.

الثاني: هو اختبار النموذج المضيق أو المصغر لهذه الممارسة، وهو بطبيعة الحال لا يمكن أن يكون إلا الوحدات المعمارية المكونة للدائرة الأم وهي المدينة.
أما على المستوى الاجتماعي فإن الأمر يقتضي منا التعرف على الطبيعة العقدية والفكرية والتاريخية لهذا المجتمع، والمجتمعات الإسلامية تكاد تشترك في هذه العوامل وهي لا تختلف إلا في العادات والتقاليد، ومهما اتسعت دائرة الخلاف بين الفئات المسيطرة على النسيج العمراني داخل المدينة فهي لا تخرج عن دائرة الإسلام.

2. تعريف الممارسات الاجتماعية:

هي كل النشاطات الحياتية، المعنوية والمادية، الفردية أو الجماعية التي تخضع لمجموعة علاقات.

- علاقة الإنسان بربه.
- علاقة الإنسان بالكون.
- علاقة الإنسان بالإنسان.
- علاقة الإنسان بالطبيعة.

وهذه العلاقات تخضع لنظم اجتماعية محددة، وهي تعرف بأنها كليات ثقافية أساسية منظمة وهادفة تتكون من قوانين وقواعد ومثل عليا مدونة وغير مدونة، وتتكون من الأدوات والوسائل التنظيمية، وتحقق نفسها اجتماعيا، في الممارسات الموحدة والمقننة والشرعية، وفرديا، في الاتجاهات والسلوك التعودي للأفراد ويقوم الرأي العام على دعمها وتنفيذها بصفة رسمية وغير رسمية عن طريق الهيئات الخاصة التي ترعاها.¹

3. علاقة العمارة والممارسة الاجتماعية في الإسلام:

لقد وضعت الشريعة الإسلامية قيما اجتماعيا وسلوكية وألزمت على الفرد داخل الجماعة الإسلامية أن يلتزم هذه القواعد وأن لا يخرج عليها، ومن هذه القواعد التي وضعتها الشريعة والتي أخرجت في مجال المعمار تأثيرا بالغا حقوق الجوار، وحق الجوار يكاد يكون شاملا لكل أحكام البناء، ذلك أن الجوار لا يحدد بالأفراد بل يحدد بالعقار فالجار هو الذي يجاور عقاره عقارات فإذا انتقل الفرد إلى مكان آخر وحل مكانه فرد آخر صار جارك .
والفرد حين يقدم على البناء فهو ملزم بإتباع أحكام الشريعة الإسلامية منذ اللحظات الأولى التي يتبع فيها معوله في قطعة بنائه إلى آخر مرحلة من البناء، وهذا الإلزام يكون حتميا في مواضع وهو غير ذلك في مواضع أخرى.

¹ - محمد التريكي وخالد بوزيد: مرجع سابق، ص 10.

فالفرد المسلم ملزم أن لا يظلم من الأرض شيئاً، فلا يعتدي على عقار جاره، فيأخذ من فئاته، أو يغير بحائطه أو يحجب عليه الشمس والرياح، وهو في كثير من الأحيان ليس ملزماً بالالتزام ما جاء في أحكام الشريعة وخاصة في السنة النبوية، فله أن يبني ما شاء من الغرف، وله أن يرفع في بنائه ما شاء، مع أن السنة الإسلامية تدعو إلى الاقتصاد وعدم التبذير والإسراف في البناء.

ومع ذلك فالأفضل للمسلم أم يتوسط في البناء مراعاة لتعاليم الشريعة، واحتراماً لشعور جيرانه من الفقراء والمساكين، فالقصد في البناء مطلب شرعي عبر عنه عمر أصدق فعبر، فقال: " ما لا يقرب إلى السرف ولا يخرج عن القصد " ¹.

فالشريعة دعت إلى التكافل بين أفراد المجتمع الإسلامي في مناسبات كثيرة، من خلال نصوص القرآن والسنة، وهي تشمل بذلك جانب العمارة فشكل العمارة يجب أن يوحي بأن أفراد المجتمع لا يفرقهم الفوارق الاجتماعية المعروفة فالزائر للمدن الإسلامية القديمة، يدرك هذا الأمر دون أن نحته عليه، فالمباني والوحدات مترابطة ومتلاصقة، وهي متجانسة في استخدام مواد البناء والألوان، فداخل المدينة الإسلامية لا يظهر لك أن هذا بيت فقير وهذا بيت غني، فواجهاتها واحدة، ولا يكاد يعلو بعضها على بعض لأن الرسول الكريم نهى المسلم أن يمنع جيرانه الهواء والشمس ونهاه أن يتناول عليهم في البنيان، وجعل هذا الأمر من علامات الساعة ومن علامات الفساد الاجتماعي. ²

فالشكل العام للوحدات السكنية تحدده قيم الإسلام الداعية إلى التساوي والتآخي، أما الشكل الداخلي للوحدات السكنية فتحده القيم الخاصة، فللفرد أن يزيد في منزله ما شاء من الغرف.

ففي مدينة دمشق القديمة مثلاً تتشابه واجهات المنازل، وتتشابه الأبواب وأغلب الواجهات والأبواب خالية من أي نوع من أنواع الزخرفة، وبالتالي فإن المدخل لا

¹ ابن الأثير: مصدر سابق، ص 368.

² - ينظر حديث جيريل المشهور، فتح الباري، 1 ص 114.

يعكس بالضرورة أهمية المسكن ولا يبرز طبقته الاجتماعية، وهونفس الأمر بالنسبة للقاهرة فجميع الأبواب والواجهات متشابهة، دون اعتبار لمكانة صاحب البيت.¹ والباب والواجهة هما ما يراه المراه من المنزل، وكأن الوحدات المعمارية تتكرر في انسياب وظيفي.

وهذا لا يعني بالضرورة أن البيت العربي لا يمكن من خلال معرفة الصف أو الرتبة الاجتماعية لمالكه، لأن هذا الأمر يظهر بمجرد تعدي المدخل المنكسر للبيت، فبيوت الأغنياء عادة ما تحتوي صحنًا واسعة، تتوسطه الفسقية المبلطة بأنواع المزاييك، وتحفها عادة حديقة صغيرة، وقد يوجد في مثل هذه البيوت أكثر من حوش، وأكثر من باب، وتختلف زخارف البيت وتتميزه باختلاف الرتبة الاجتماعية للمالك.²

تأثير الممارسات الاجتماعية على العمران:

- أ- في تقسيم وتوزيع الخطط.
- ب- في هيكل المدينة الإسلامية.
- ت- في موضع المسجد.
- ث- في المسكن.
- ج- في الطرقات.
- ح- في المرافق العامة.

تقسيم وتوزيع الخطط

ويمكننا أن نقسم المدينة الإسلامية إلى مجموعة فضاءات متباينة، وهي تعكس وسائل التعبير الاجتماعي، وتكون هوية المجتمع، وهذه الفضاءات هي إنتاج اجتماعي، وانعكاس لكثير من الظواهر الاجتماعية، وهي أيضا نتيجة لمجموعة الحاجات اليومية التي يحتاجها سكان هذه المدن، فحاجات العائلة تقتضي وجود المسكن واحتواءه على

¹ - Bernard. Maury. obcid . p 26 .

² - خالص الأشعب: مرجع سابق، ص 35.

العناصر الضرورية قصد توفير الراحة النفسية لمستعمله، والحاجة إلى المرور تقتضي وجود الأزقة والطرقات. ¹ والحاجة إلى السلع تقتضي وجود الأسواق. تقسيم الأرض، يخضع تقسيم الأرض إلى معايير اجتماعية أساسها التكافل الاجتماعي والتعاون بين أفراد المجتمع، فالأرض في الأصل هي ملك لله، وما للإنسان إلا مستخلف فيها، وهو مالك لما تحت يده منها، يتصرف فيه بحرية بشرط أن لا يضر بالآخرين.

لهذا نجد أن أراضي مدن الإسلام قد قسمت على القبائل العربية على شكل خطط، بحيث يتم تجميع كل قبيلة في خطه واحدة، وتركت لها حرية تقسيم الأراضي بينها تبعا لظروفها وإمكانياتها في التعمير والإنشاء.

ويظهر من هذا العمل الذي قام به رسول الله في المدينة، ثم سار على نهجه مؤسسوا الأمصار، انه انعكاسا لنظرة الإسلام لفكرة العائلة، والتأكيد على صلة رابطة الرحم، ضمن إطار التآخي الذي دعا إليه النبي عند نزوله المدينة.

فالمجتمع الإسلامي يقسم إلى عدة دوائر، تمثل هذه الدوائر نظام العائلة الكبرى، لتتفرع عنها عائلة أصغر وهكذا، حتى نصل إلى العائلة النوواة، فالإسلام هو العائلة الكبرى، يؤكد هذا التوجه حديث النبي (المسلم أخو المسلم)، ² وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. ³

وهذه العائلة التي تتفرع إلى مجموعات عائلات متمثلة في نظام القبيلة تختص بسكنى حيز محدد من المدينة دون غيرها نسميه الحي، ثم تتفرع هذه العائلة إلى بطون والتي عادة ما نجدها تسكن دربا واحدا أو جهة واحدة، ثم تأتي العائلة النوواة التي تسكن دارا واحدة.

وهذا التقسيم هو أيضا انعكاس لما كان سائدا قبل الإسلام إذ كانت كل قبيلة تسكن حيا من الأحياء سواء داخل التجمعات الحضرية أو خارجها.

¹ - عبد الحميد ديلمي: الواقع والظواهر الحضرية، منشورات جامعة منتوري، ص 34.

²

³ الحجرات، الآية 10

وهذا التجمع على أساس الانتماء قد يوطد العلاقة بين أفراد القبيلة الواحدة ويؤكد رابطة التكافل بينهم بسبب نقاط اشتراكهم المتعددة في مجال سكناهم. فتتكون المدينة الإسلامية نتيجة لذلك من عدة خطط أو أحياء وهذه الأحياء تتكون بدورها من الوحدات السكنية والمرافق العامة، وتذكر كتب التاريخ أن كل أصحاب خطة كان لهم مسجدهم الخاص ورحبتهم ومقبرتهم.

صورة المدينة:

المدينة إطار حياتي، إنتاج اجتماعي تاريخي، عمل فني تحمل جمالا وأدبا، تنتج إيديولوجية في النمط الحياتي وفي إعادة إنتاج العلاقات.¹ المدينة منطقة مفتوحة بخلق فيها الإنسان الحديث، فهي وسط إنساني، ملتقى الغرباء، وهي مصنع اجتماعي، ورشة لتغيير الإنسان. كيف نتحدث عن العلاقات بين المدينة والمجتمع من حيث إننا نشاهد تبادل الفكريين.² والوحدات الأساسية التي تتكون منها المدينة هي هذه العناصر.

المسجد:

والمسجد عادة ما يشغل وسط المدينة، وإن كان مسجد حي شغل وسط الحي، وبالنسبة للمسلم فإن المسجد هو المحور الذي تدور حوله كل النشاطات اليومية، وهو المبنى الوحيد الذي يملك القدسية دون سواه من الوحدات الأخرى داخل التجمع السكني. وهو بذلك يحظى باحترام وتقديس السكان.

ويقوم المسجد بدور هام في استمرار الحياة الاجتماعية، والحفاظ على العلاقات الاجتماعية بين الأفراد أوحى الجماعات لهذا نجد المسجد أوكلت له جملة من النشاطات الاجتماعية داخل المدينة، ومن أهم هذه النشاطات نذكر:

أ- إبرام عقود الزواج والطلاق.

ب- عقد الصلح بين الفئات المتنازعة.

¹ - عبد الحميد ديلمي: مرجع سابق، ص 34.

² نفسه، ص 35.

ت- الاحتفال بالمناسبات الدينية.

ث- القضاء بين المختصين.

والمسجد يمثل أقدس مكان في المدينة بالنسبة للمسلم له، ثم تأتي الفضاءات الأخرى، وهي الثنائية التي نصطلح على تسميتها بالمقدس والمدنس. وهو الفضاء العام الوحيد داخل المدينة الذي تشترك فيه النساء مع الرجال حيث يخصص لهن جزءا منه لأداء الصلوات.

ويلتق الموحدات المعمارية حواء المسجد، إما فيشكل مربع أو مستطيل أو دائري أوفي شكل هرمي كم هو الحال في مدن ميزاب.

ويلعب المسجد دورا هاما في تفعيل العلاقات الاجتماعية بين سكان الحي الواحد، كما يقوم بمراقبة هذه النشاطات، ويسهر على اتفاقها مع العادات والتقاليد المحلية. ولا يقتصر دور المسجد على تأطير النشاطات الاجتماعية لأهل المدينة فقط، فكثيرا ما تتعدى أدواره إلى رعاية الغرباء. فقد كان الرحالة من أمثال المقدسي وابن جبير وابن بطوطة، إذا نزلوا بلدا لا يعرفون فيه أحد، نزلوا المساجد فيسألون عن الفنادق والأسعار، وربما استضافهم أهل البلد، أو يتحمل الحاكم أو القاضي أعباء نفقتهم. وكان العلماء وطلبة العلم لا ينزلون إلا بالمساجد فإذا عرف الناس منزلتهم أكرمهم. وحكى ابوبكر بن العربي أن المركب الذي كانت تحمله إلا الإسكندرية عصفت بها الريح، فرمتهم الأمواج إلى الشاطئ، فأخذهم الناس إلى المسجد، فأسرع الناس إليهم بالكسوة والطعام.¹

المسكن:

والمسكن من أولوية الحاجات عند الأفراد والجماعات وهذا لا يعني بالضرورة أن المسكن هو مجرد مأوى، فالمسكن يمثل حاجات فيزيولوجية واجتماعية، سيكولوجية وثقافية، ويفترض في المنزل أن يوفر لكل عنصر من عناصر العائلة ما يطلبه من راحة.

¹ حسين مؤنس: مرجع سابق، ص 33، 34.

إن المكان الذي يسكن فيه الفرد يعد أمرا حيويا في تكوين شخصية وعاملا مؤثرا على الصحة النفسية والجسدية أو الاجتماعية.

فظروف الإسكان الرديئة من أهم الأسباب المباشرة لهذه الأمراض الاجتماعية، كما أن النظافة لا تعد شرطا لازما ضروريا لتحقيق ضمان الصحة الجسدية فحسب بل هي شرط ضروري لاحترام الذات وأساس الأخلاق الحميدة والسلوك الرفق.¹ وهو مكان تواجد العائلة التي تجمعها ارتباطات بيولوجية وقانونية، واجتماعية تنشأ بين مجموع الأفراد المكونين للأسرة، ومخطط السكن يعبر عن وظائف محددة، ومستندة إلى ما يحتاج إليه الفرد والمجتمع وكل عنصر مبني يجب أن يحقق منافع مرجوة به، ويجب أن يخضع أثناء بناءه للأدوار الاجتماعية، حسب التشكيلات العائلية والأسرية، وحسب المعتقدات. فالعمارة مرتبطة ارتباطا وثيقا بأي حركة ولو كانت بسيطة داخل أو خارج المسكن.²

فالبيت الإسلامي كما ذكرنا ليس مجرد مأوى، بل يمثل المكان الذي طور فيه الإنسان المسلم كل أفكاره،³ التي قد تتعدى في أحيان كثيرة، مجرد توفير السكن وإن كانت هذه الحاجة من مقاصد وجود البيوت.

والمنزل هو فضاء المرأة، فالرجل غالبا ما يضطر لإعلان دخوله، وفي حالة وجود النساء فإنه يضطر للانتظار أو الدخول إلى إحدى الحجرات.⁴

إن المعماري المسلم قد جعل البيت مغلقا على نفسه، فهو خال من كل فتحة إلى الخارج صونا وحفظا لحريمه حتى لا يراهن أحد ولا يسمعهن أحد، وهذا تماشيا مع دعوة الإسلام المرأة المسلمة إلى التستر عن أعين الناس.

وكان لزاما على المعماري وقد أغلق منافذ النور والهواء أن يفتح حوش الدار على السماء ليسمح بمرور الضوء والهواء، وليسمح للمرأة بالتمتع بأشعة الشمس زمن الشتاء وبالظل والرطوبة زمن الصيف.

¹ عبد الحميد ديلمى: مرجع سابق، ص 52.

² - نفسه، ص 52.

³ - خالص الأشعب: مرجع سابق، ص 25.

⁴ - Brahim Benyoucef : Le MZAB, espace et société, imprimerie Abou Daoud, Alger p 63

وزيادة على المنزل فإن المرأة تستغل سطح البيت، إما للشمس أو للمرور من دار إلى دارن، تاركة بذلك الشارع للرجال.

ويعتبر الصحن هو الفضاء الحيوي للمنزل، والذي يتم من خلاله توزيع الفضاءات الأخرى، وهو يعتبر بحث محور مفصلي يجمع بين مختلف الوحدات الموجودة داخل البيت.

لقد استطاع مصمم البيت بفضل إيجاده للصحن، أن يوجد لنا تخطيطاً، يعتبر بحق من أكثر التخطيطات مطاطية وملائمة لسكانه، ويتوفر على إمكانيات ضخمة في توجيه الاستعمال اليومي، وهو أكثر النماذج السكنية ملائمة وربطاً بين الفلسفة الإسلامية والعادات والتقاليد، فهو يعكس بحق المنظومة الإسلامية بكل أبعادها.

والمسكن عبارة عن وحدة فضائية واحدة ومتعددة في نفس الوقت فهو وحدة واحدة باعتبارها ملكاً للعائلة الكبيرة، "Mononucléaire".¹

وهو بهذا قد توجد فيه أكثر من عائلة، تجمعهم رابطة الدم، فيظم المنزل بذلك الجد (وهو صاحب البيت) والجدة، ثم الأبناء المتزوجين وأبناءهم ونساءهم.

ونتيجة لتكرار الزواج داخل البيت الكبير، تنشأ فكرة الوحدات المتعددة، ومع نشوء هذه الوحدات تنشأ فكرة الفضاءات الممنوعة، وهي إن كانت موجودة منذ الأول داخل المنزل، إلا أنه في حالة تكرار الزواج تتعدد هذه الفضاءات الممنوعة، وتنشأ هذه الفضاءات بسبب العادات أو التقاليد فالدين الإسلامي يمنع أن يطلع الرجل على زوجة أخيه أو زوجة ابن أخيه، لأنهم ليسوا من المحارم.

وعلى هذا الأساس فإننا نقسم المنزل إلى مجموعة فضاءات:

- أ- فضاء رجالي.
- ب- فضاء نسائي.
- ت- فضاء مشترك: 1/ ممنوع.

2/ غير ممنوع.

وقد يقسم المنزل وفق اعتبارات أخرى؛ كاعتبار الجنس، والسن، والسيد والعبيد والخدم، واعتبار الضيوف والمدعوين.¹

¹ - Denis grandet. Op.cit. P64 .

والفضاء الرجالي قليل وضيق في البيت الإسلامي، وهو عادة ما يقتصر على غرفة الإستقبال، لأن الرجل يمضي اغلب وقته في الخارج. والفضاء النسائي وهو الأكبر، يمثل المطبخ والحوش الذي تمارس فيه المرأة أغلب نشاطاتها اليومية. أما الفضاء المشترك فهو غرفة الزوج والزوجة ويمكن أن نصطلح على تسميته بالفضاء الممنوع.

فالبيت العربي مثل القوقعة، تقي مستغليه من التلصص بكل أنواعه ونتيجة لذلك فلا نعثر في المدينة الإسلامية على مداخل متقابلة، ولا على مداخل بيوت تقابلها مداخل حمامات أودكاكين، ولا نعثر على بيت يتم الدخول إليه مباشرة، دون المرور بالخوخة أو تلك الزاوية القائمة التي تحجب الأنظار، ومراعاة لهذه الخصوصية ظهرت عدة نمازعات بين الفرق المتجاورة، وهي متعلقة أساسا بمنع الضرر البصري، مثل فتح الكوات والنوافذ، أو فتح الحوانيت مقابلة لمداخل الوحدات السكنية.

فلاحظ أنه نتيجة للتقاليد الاجتماعية الصارمة، فرض على المعماري أن يوقع مدخل البيت عند إحدى زواياه وأن يجعل مدخله منكسرا.²

ومن التأثيرات الاجتماعية في عمارة المسكن، ظاهرة انعدام الفتحات إلى الخارج، لتوفير الخصوصية، ولكن الفتحات لا تتعدم إلا في الطابق الأرضي الذي يمكن للإنسان أن ينظر من خلالها إلى داخل البيت، أما الطابق الأول فإن الأمر مختلف.

فأغلب المنازل في المدينة الإسلامية لها شبابيك تطل على الزقاق ولكن هذه الشبابيك ليست مفتوحة كلية لأنها حينئذ ستكون مقابلة لشبابيك المنزل المقابل، فإذا كان الزقاق ضيقا، فستكون متلاصقة مع بعضها البعض، وبالتالي فإن النظر والإطلاع يكون متبادلين بين المنزلين ولهذا ظهرت المشربيات كحل معماري ومعالجة اجتماعية، وبالتالي يحافظ البيت على حرمة وخصوصيته.

¹ - Demis grandet. p 64.

² - خالص الأشعب: مرجع سابق، ص 36.

وتسمح هذه المشربيات للنساء بمراقبة ما يجري داخل الزقاق، وإشباع فضولهن، دون أن يستطيع من في الزقاق النظر إليهن.¹

وحفاظا على الخصوصية وحماية المرأة من نظرات الغرباء والجيران فإن الأسطح عرفت ظاهرة الأسيجة العالية، التي تحيط بكل سطوح البيوت القديمة داخل المدينة الإسلامية.

حاجات العائلة داخل المسكن

والعائلة عبارة عن ارتباطات بيولوجية وقانونية تنشأ بين الأفراد في المجتمع وهي وحدة اقتصادية مستهلكة ومنتجة تتميز ببعض أنماط العلاقات بين أعضائها وتعرض استمرارية من خلال الأجيال.²

ولهذا فالمدينة هي العنصر الأساسي في مجموع التشكيلات الاجتماعية، ومهما كان شكلها فلا يمكن أن إغرامها عن الأفراد والجماعات لأنهم تحرمهم وتتفاعل في العمارة.

والواقع أن مخطط السكن، وشكل الحي من الواجب أن يعبرا عن وظائف محددة ومستندة على ما يحتاجه الفرد في المجتمع، وإن كل عنصر نم عناصر الإطار المبني من الضروري أن يلبي منفعة وكل قسم منه يلبي وظيفة.

1. الحاجة إلى المجال وامتلاكه.
2. الحاجة للاستقلالية داخل المسكن.
3. الحاجة إلى الراحة.
4. الحاجة إلى الرفاهية والحرية.
5. الحاجة إلى الحياة الخافتة.
6. الحاجة إلى مساكن ذات وظائف واضحة.
7. الحاجة إلى الألفة بين أفراد العائلة.
8. الحاجة إلى العلاقات الاجتماعية خارج المسكن.¹

¹ - خالص الأشعب: نفسه، ص 39.

² - عبد الحميد ديلمى: مرجع سابق، ص 52.

وبشكل أوضح يستحسن أن تتفرد هذه العناصر والأقسام استنادا للأدوار الاجتماعية وحسب التشكيلات العائلية والأسرية حسب المعتقدات وأن أي حركة يقوم بها الفرد خارج المسكن مرتبطة بالحياة الاجتماعية، سلوكات المرأة والرجل، بألعاب الأطفال، بالحياة العاطفية للروحين، المرتبطة بالمكان.

إن المكان الذي سكن فيه الفرد يعد أمرا حيويا في تكوين شخصية وعاملا مؤثرا على الصحة النفسية والجسدية أو الاجتماعية. فظروف الإسكان الرديئة من أهم الأسباب المباشرة لهذه الأمراض الاجتماعية، كما أن النظافة لا تعد شرطا لازما ضروريا لتحقيق ضمان الصحة الجسدية فحسب بل هي شرط ضروري لاحترام الذات وأساس الأخلاق الحميدة والسلوك الرفق.

والازدحام السكاني يرتبط بانتشار الأراضى، في الوقت الذي يكون فيه عاملا أكثر تأثيرا في المشكلات الأخلاقية نظرا لانعدام الخصوصية بين أفراد الأسرة. والمسكن - من الداخل - هو صورة واضحة وعلامة بارزة للتمييز بين الطبقات الاجتماعية لأن السكن المبني بالعمارة يشير إلى رفاة عالية ويعبر عن نجاح الأغنياء.

وظائف الإسكان:

- 1- يحمي السكن الفرد من العالم الخارجي: " لايران أحد" إلا في الحالة التي أريد له أن يران فيها.
- 2- وظائف حفظ الأثاث في المجال الذي تعيش فيه مع العائلة فلا بد أن يوفر لكل فرد من أفراد العائلة الاستقلالية.
- 3- وظائف الضمانات الاجتماعية: فهي - على المسكن أن يؤخذ مجالا يلعب

الأطفال

وظائف الاستقبال، الحياة الاجتماعية.

الشوارع والطرق:

¹ - عبد الحميد ديلمي: مرجع سابق، ص 40.

يمكن تقسيم الشوارع داخل المدينة الإسلامية إلى قسمين قسم عام وهو يمثل الشوارع والطرق الكبيرة والتي عادة، تحفها الدكاكين والمتاجر، فتنحرف بذلك إلى شبه أسواق، وهذه الشوارع تقل في المدن الإسلامية بالنظر إلى غيرها من الشوارع الضيقة، التي نصلح على تسميتها بالأزقة والدروب، وهي القسم الثاني من الشوارع وهي بدورها يمكن ان نقسمها إلى قسمين:

أ- الأزقة والدروب النافذة: وهي أقل اتساعا من الشوارع والطرق التجارية وهي مثل الشوارع العامة إلا أنها أقل خصوصية منها أي أنها حكرًا على سكان المدينة أو سكان الأحياء.

ب- الأزقة والدروب غير النافذة: وهي فضاءات شبه خاصة وهي مقصورة على السكان ويمنع التواجد بها عادة للغرباء كما أن حرية التصرف تقل بها بل تكاد تنعدم فيمنع الساكن الدرب غير النافذ الذات الفتحات والنوافذ والكوات على هذه الفضاءات وهي عادة ماتجمع أفراد عائلة كبيرة.

وعند الخروج من البيت نمر إلى الزقاق غير النافذ ثم الزقاق النافذ لندخل إلى الشارع الأعظم، وهذا التسلسل الفضائي يمثل تسلسلا في الحركة الاجتماعية فيؤطر هذا التسلسل حركة الفرد وخصوصيته فكلما ابتعد الإنسان عن بيته ودخل الأزقة كلما ضاقت حريته لصالح الشارع حتى يصل قلب المدينة.¹

ويساعد ضيق الشوارع على خلق الكثير من الروابط الاجتماعية، بين سكان الأحياء ويساهم في تنشيط الحركة التجارية، ويظهر هذا الترابط في معرفة السكان ببعضهم البعض، وتجمعاتهم المختلفة سواء عند المسجد أوفي أحد الحوانيت، أوفي الفناء التحية المستمرة على بعضهم البعض.²

وفي مدن ميزاب تتم الحركة داخل هذه المدن من خلال أزقة ضيقة ومتعرجة، ولا تكاد نعثر على طريق مستقيم وباستمرارية وهذه الأزقة عادة ما تقطعها الحواجز المختلفة كالمداخل وانحرافات المساكن.³

¹ - خالص الأشعب: مرجع سابق، ص 24.

² - إبراهيم عبد الباقي: مرجع سابق، ص 40.

³ - Brahim Benyoucef. Opcit p 70.

السوق:

والسوق من أهم الخصائص التي ميزت المدينة الإسلامية، وهي خاصة تميزها عن كل المدن القديمة على رأي "eugen" الذي يرى أن السوق يعتبر من مظاهر القوة الثقافية للمدينة الإسلامية.¹

زيادة على كون السوق مركزاً للتبادلات التجارية فإنه يعتبر ملتقى ثقافياً هاماً خاصة إذا كان هذا السوق يقصده أناس من خارج المدينة، أو من المدن الأجنبية الذين يقدمون المدينة الإسلامية للتسوق كالنصارى واليهود وغيرهم، فسمح السوق بتلاقح هذه الثقافات فيما بينها.

وفي المدينة العربية الإسلامية تقام الأسواق في أماكن خاصة عادة ما تكون في أطراف المدينة أو خارجها، وكانت هناك أسواق متخصصة في تجارة مواد معينة، كما ظهرت القيساريات فسميت هذه الأسواق بأسماء ما يباع فيها، فنجد تسميات مثل سوق العيارين وسوق البز² ...

فإذا ازدحمت هذه الأسواق ونشطت الحركة والتبادل التجاري، أدى هذه الحركة النشطة في ظهور مرافق عامة جديدة، أو على الأقل الزيادة في إعدادها، فبنيت تبعاً لذلك الخانات والفنادق.

تحتل السوق داخل المدينة الشارع الرئيسي أو الرحبة وسط المدينة بحيث يلتقي الناس من داخل المدينة وخارجها، وهو مركز نشاط المدينة ... وفي المدينة الإسلامية القديمة، وكما هو الشأن في مدن ميزاب إلى يومنا هذا، يعتبر السوق فضاء حكرًا على الرجال.

فلا تدخله النسوة، ولا تعبر من خلاله، ويقوم السوق بوظيفة استقبال الغرباء الذين يغدون إلى المدينة إما للتسوق أو زيادة معارفهم وهوبهذا يمثل فضاء استقبال وتوصية للزائرين.

¹ - Denis Grandet. Op.cit. P 62.

² - عبد الباقي إبراهيم: مرجع سابق، ص 36.

فهو بمثابة المصفاة، إذ لا يسمح بمرور الغرباء إلى شوارع المدينة وأزقتها، وتجاوز هذا الفضاء دون دعوة أحد أو من فقه قريب نعتبر تغلبا على خصوصية المدينة.¹

وفي مدن ميزاب لا يوجد إلا سوقا واحدا، وهذا السوق يخضع لسلطة المسجد في التسيير والتنظيم والمراقبة، فيسهل أعضاء العزابة على مراقبة مجموع الممارسات التجارية المختلفة، وفي السوق تنعكس جملة من الممارسات التي تحكمها القيم والمبادئ الدينية والاجتماعية للمجتمع، وتبرز هذه الممارسات على موقع السوق وشكله ومكوناته.²

وهناك جملة من الأمور تؤثر في توزيع الأسواق على مختلف مناطق المدينة، ابتداء من مركزها إلى أطرافها.

وأول هذه العوامل: حاجة السكان المتكررة لبعض السلع، مما يقتضي وجود الأسواق في جميع قطاعات المدينة المختلفة، ومن هذا المنطلق نجد حوانيت الخبازين وأسواق العطارين والصناعة وأهل البز... في وسط المدينة، وعلى امتداد شارعها الأعظم.

وهناك صنف آخر من التجارات يقتضي الأمر وجودهم على أحواف المدينة، وهذا راجع لطبيعة تجارتهم كالقصابين، لأن تواجدهم مرتبط بالمذبح، وهولا يكون إلا خارج المدينة لأن تواجده في المدينة قد يسبب انتشار الذباب والحشرات المؤذية.³ ويقاس عليهم الفخارين والحطابين وممن في تجارتهم إزاء الطريق العام وإزاء الناس إما بالروائح الكريهة أوبالضجيج.

ومن المعايير التي يجب مراعاتها في تواجد الأسواق، معيار الخصوصية وكشف الحرمات، لأن الأسواق بمحالها التجارية، تمثل أقصى درجات الضرر من حيث الخصوصية. فهي تمثل مراكز خدمات عامة، يتجمع فيها الناس، ووجود هذه المحلات في مواجهة المنازل بعرض سكان المنزل لعيون المتعاملين. وتجنبنا لهذا

¹ - Brahim Benyoucef. Op.cit P 67, 68.

² محمد التريكي وخالد بوزيد: مرجع سابق، ص 78.

³ - خالد عزب: مرجع سابق، ص 98.

الضرر فإن الأسواق في المدن الإسلامية تتوزع على طول الشارع الرئيسي وهي تتعدم في الشوارع الفرعية الضيقة.

ونظرا لتتوع الأسواق داخل المدينة الإسلامية، وازدهارها عجت بالصناع والحرفيين فأخذ أصحاب الحرف المختلفة النقابات.

فكان لكل حرفة نقابتها، لها قوانين خاصة بها، وكان لكل نقابة شيخ يرجع إليه أصحاب الحرف لحل المشاكل العالقة بينهم. فكان شيخ البنائين يسمى مثلا المعلم أو الأسين أو الشيخ أو العريف.¹

الحي:

توجد صلة وثيقة بين هيكله الحي المعمارية وبين البنية الاجتماعية، وتتكون الأحياء عادة من جماعات من الأفراد تجمعهم روابط مختلفة فقد تكون هذه الروابط أسرية، بحيث يجمع الحي عائلات من أسرة واحدة، وقد يكون للعامل الديني دوره في تركيبته الاجتماعية للسكان، فنجد داخل المدينة الإسلامية، حارة أوحى اليهود وحي النصارى.

ويمكن أن يتدخل العامل العرقي في تجمع السكان ففي مدينة دمشق يوجد حي للأرمن المسيحيين أوحى للأكراد المسلمين، الذين قام صلاح الدين الأيوبي بإسكانهم بأحد أحياء دمشق.²

ويلعب عامل الهجرة دورا هاما في تكوين المجموعات السكانية لحي ما. كهجرة الأندلسيين لشمال إفريقيا.

ولا شك أن لكل فئة من هذه الفئات عاداتها وتقاليدها الخاصة التي تفرضها على الحي، من ناحية الإنشاء فلا يسمح لليهودي مثلا يسكن أحياء المسلمين، وإن كان ساكنا فيمنع من إعلاء بنيانه حتى لا يطلع على عورات المسلمين، ولا يسمح للنصارى واليهود بفتح محلات القصابة، لهذا غلب على هذه الفئات التجارة في الذهب والفضة وبيع القماش والحريير.

¹ - سعيد ناصف: مرجع سابق، ص 110.

² - ناصر الرباط: مرجع سابق، ص 206.

وفي كثير من الأحيان تنشأ داخل الحي والحارة مجموعة من الروابط الاجتماعية فنتعزز مظاهر التكافل الاجتماعي والتعاون بين السكان وينعكس هذا التكافل في الأحزان والأفراح والأعياد والاحتفالات.

وقد يتجمع داخل الحي وفقاً للمعيار الطبقي أو الوظيفي فيجمع الأغنياء وأهل النقود في مناطق محددة وهي عادة ما تكون قريبة من قصر الحاكم أو من مراكز السلطة. ويجمع أصحاب الحرف في أحياء خاصة لهم.

فكان المسيحيون في جميع المدن يشتغلون في الصيرفة، وكان اليهود يمارسون التجارة والصرافة والصياغة والحياسة.¹

وتكون كل هذه الفضاءات ما يعرف في علم الاجتماع بالمجال، والمجال وسيلة من وسائل التعبير الاجتماعي، يكون هوية المجتمع عن طريق عالم الرموز، ويشارك المجال في تعريف الفعل الاجتماعي للموضوع الاجتماعي وإمكانية التعبير من خلال العملية التاريخية والنظرة التي يستخدمها علم الاجتماع عمل للبعد الرمزي والثقافي.²

¹ - سعيد ناصف: مرجع سابق، ص 106.

² - عبد الحميد ديلمي: مرجع سابق، ص 34.

الخاتمة

كانت النظريات المعمارية على عهد رسول الله بدائية تقوم على أسس معمارية بسيطة جداً، وكان الغالب على الظاهرة المعمارية البساطة والميل إلى التقشف، ويعطينا المسجد النبوي عي المدينة المنورة مثالا واضحا عن هذه المرحلة، أما المباني السكنية فكان يغلب عليها الجانب الوظيفي، فهي معدة أساسا لحماية أصحابها من التقلبات الجوية، ويدل على هذا الأمر الكثير من النصوص النبوية.

واستمر الأمر على هذا النحو مدة خلافة أبي بكر الصديق وخلافة عمر بن الخطاب، وفي خلافة عمر بدأت تتبلور بعض الأفكار العمرانية، خاصة فيما يتعلق بإنشاء المدن الإسلامية، فقد وضع عمر أهم النظريات الإسلامية في بناء المدن، أو ابتكار المؤسسات العمرانية كالديوان والسجن ونظام العسس وتدعيم نظام الحسبة والقضاء وظل عمر متمسكا بمنهج النبي عي البناء والاقتصار على الضروري منه فقط، ولم يكن ذلك عن فقر، فقد امتلأت خزائن الدولة في خلافة عمر.

وهذا الانفراج الذي بدأ مع خلافة عمر، بدأ يتوسع مع خلافة عثمان، وأول مظاهر هذا التغيير ما رواه المؤرخون أن عثمان أنشا دورا فخمة، وكذلك فعل الكثير من الصحابة، وشرع في توسعة المسجد النبوي، مع معرضة بعض الصحابة، وادخل في بناءه موادا إنشائية لم تستعمل في العهود السابقة. ويمكن أن نرجع هذه التحولات إلى عدة أسباب منها شخصية عثمان، فهو من أثرياء قريش، وكثرة الأموال الناتجة عن الفتوحات، والأمر الثالث هو اختلاط المسلمين بأمم كثيرة دخلت الإسلام.

من خلال تتبع مراحل نمو المدن الإسلامية الأولى وتطورها، يمكن أن نحدد الكثير من معالم الفكر المعماري في الإسلام، و التعرف على أهم التحولات التي طرأت عليه. فأهم ما يميز المدن الإسلامية الأولى هو مراعاة مجموعة من المعايير، كاعتبار العامل البيئي، فاخترت مواقعها بعناية شديدة، وبعد اختيار موقع المدينة يتم اختطاط المسجد، و هو أول وحدة معمارية يتم بناءها داخا المدينة الإسلامية، وهو عي الغالب يتوسط المدينة، تجاوره دار الإمارة، ثم تتابع الوحدات المعمارية الأخرى في الظهور الواحدة تلو الأخرى.

ومن خلال هذه الدراسة تعرفنا عن وضعية الأسواق، إنشاءها و القوانين التي تحكمها والمؤسسات التي تسيروها، وتعرفنا عن الشوارع والطرق، اتساعها وأنواعها واستعمالاتها اليومية، وما يجب أن تكون عليه من نظافة.

ويمكن ان نلاحظ ظهور وحدات معمارية جديدة لم تكن معروفة في بداية الإسلام ومن أهم هذه الوحدات المدارس والبيمارستان والخانات.

إنّ العمارة الإسلامية شأنها في ذلك شأن كل عمارة، قد تأثرت بعمارات التي سبقتها وأفادت منها إفادة بالغة. وهذا الأمر تكده الكثير من الشواهد المادية، وهذا الأمر لا ينقص من العمارة الإسلامية شيئاً، بل لعله يمثل نقطة قوة في العمارة الإسلامية، و دليلاً على مرونة الفكر المعماري الإسلامي، فلقد استطاع المعماري المسلم أن يكيف نماذج العمارة مع نموذج كل أرض دخلها الإسلام، فأخذ من كل عمارة ما يتناسب مع عقيدته و دينه وثقافته وطرح جانبا كل أر يتناقض مع مبادئ الإسلام وعقيدة التوحيد. ولم يكتف المعماري المسلم بتبني هذه النماذج فقط، بل قام بتطويرها حتى فارقت أصلها الأول وصارت إسلامية مخضة لا يدرك أصلها وجذورها إلا أهل الاختصاص.

وقد حاولنا جهدنا رد ادعاءات المستشرقين، فقد حاول الكثير منهم تجريد الفن المعماري الإسلامي من كل ابتكار وتجريد، وزعموا أنّ العمارة الإسلامية ما هي إلا تقليد وإتباع، تارة للعمارة الفارسية وتارة أخرى للعمارة البيزنطية. والعمارة الإسلامية و إن إستفادت من تجارب الأمم السابقة، فلا نشك أنّ الدين الإسلامي بمقوماته الحضارية، قد أسهم بشكل وافر في تطورها وأضفى عليها لمسته الخاصة التي قلما نجدها في أي حضارة أخرى!

ويمكن أن نعتبر أحكام الشريعة الإسلامية من أهم مصادر العمارة الإسلامية، فقد صاغت أحكام البناء منظومة معمارية خاصة، تؤطرها مجموعة من القوانين، وتسيروها مؤسسات نافذة، مثل مؤسسة القضاء ومؤسسة الحسبة. ولم تؤثر أحكام الشريعة على المستوى التطويري فقط بل تعدته لتؤثر في البناء، فكثيراً من الأحيان نجد البناء في شكله يخضع للمنظومة الفكرية الإسلامية بأبعادها المختلفة.

وتؤثر المصادر التشريعية المختلفة (العرف، المصلحة، المقاصد)، بدورها هي مجال العمران، فيعتمد رجال القضاء و الحسبة على هذه المصادر لحل النزاعات العالقة بين

الفرق المتجاورة، أو دفع الضرر الواقع على الجيران نتيجة تصرف أحد الجيران في ملكيته الخاصة.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر

1. القرآن الكريم
2. ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، مجلد 1، 1985.
3. ابن تيمية، (أحمد تقي الدين): الحسبة، ط1، الطريق للنشر والتوزيع، الجزائر.
4. ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد): رحلة ابن جبير، منشورات الأنيس.
5. ابن حجر (أحمد بن علي): فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الفكر، ج1 إلى ج10.
6. ابن خلدون (عبد الرحمان): المقدمة، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة
7. ابن دقماق (إبراهيم بن محمد): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، تحقيق لجنة إحياء التراث، بيروت، منشورات دار الأفاق الجديدة.
8. ابن الرامي (محمد اللخمي البناء): "الإعلان بأحكام البنيان"، تحقيق ودراسة عبد الرحمان الأطرم، مركز الدراسات الإعلام، الرياض، ط1، 1995.
9. ابن رجب الحنبلي (أبو الفرج عبد الرحمان): القواعد الفقهية، ط1، 1993، مكتبة الخانجي، مصر.
10. ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم،
11. ابن رشد: "مسائل أبي الوليد ابن رشد"، تحقيق محمد الحبيب، دار الأفاق الجديدة،
12. ابن مازة (برهان الأئمة حسام الدين عمر بن عبد العزيز): كتاب الحيطان دراسة فقهية لأحكام البناء و الارتفاق، تحقيق عبد الله نذير أحمد، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ط1، 1996.
13. ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمان): فتوح مصر وأخبارها، تحقيق عيسى إبراهيم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001.
12. ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، حققه ج.س. كولان وليفي بر فنسال، دار الثقافة، بيروت، 1998، ج 2.
13. ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، طبعة إلكترونية، مكتبة الوراق.

14. ابن فرحون المالكي: تبصرة الحكام في أصول الأفضية و مناهج الأحكام، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ج2.
15. ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، ج4
- 16 أبو إسحاق الشاطبي: "الموافقات في أصول الشريعة"، تحقيق محمد عبد القادر الفاصلي، ط1، المطبعة العصرية، القاهرة، 2000، ج2.
17. الفرستائي(أبو العباس أحمد بن بكر): القسمة وأصول الأراضي، تحقيق محمد صالح ناصرو بكر بن محمد الشيخ بلحاج، ط1، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، 1992.
18. القرطبي (أحمد بن عبد الله): آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق فاطمة الإدريسي، دار ابن حزم.
19. البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز): المعرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، تحقيق مريا خيصوص، تقديم محمود بوعيادة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1981.
20. البلاذري(أبو الحسن أحمد بن يحيى): فتوح البلدان، لبنان، دار الكتب العلمية، 1978.
- 21 التسولي(أبي الحسن علي بن عبد السلام): البهجة في شرح التحفة على الأرجوزة المسماة بتحفة الحكام لابن عالم الأندلسي، دار الفكر، بيروت، 1994، المجلد2.
22. ثغري بردي(جمال الدين أبي المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة، ج1.
23. الونشريسي(أحمد بن يحيى): المعيار المعرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، مجلد8 و9.
- الونشريسي: كتاب الولايات.
24. الزركشي (بدر الدين محمد بن بهادر): إعلام الساجد بأحكام المساجد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995.
25. القرافي(شهاب الدين أبو العباس): الفروق، مطبعة دار إحياء الكتب، ط1، 1346، مجلد3

26. الفزويني (زكريا بن محمد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ط1.
27. الفراء (أبو يعلى محمد بن الحسين): الأحكام السلطانية، صححه محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، لبنان، 1983.
28. الفيروز آبا دي: القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ج1.
29. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج5.
30. مالك بن أنس: الموطأ، ط1، منشورات دار الأفاق الجديدة، 1992.
31. القرشي (محمد بن أحمد): "معالم القرية في أحكام الحسبة"، صححه روبن ليون، مطبعة دار الفنون كمبريج. 1937.
32. محمد بن أحمد كنعان: خلاصة تاريخ ابن كثير، ط1 مؤسسة المعارف، بيروت، سنة 1997.
33. ابن فرحون (محمد المالكي): تبصرة الحكام في أصول الأفضية، ط1، ج4، مكتبة الكليات الأزهرية، راجعه وقدم له، طه عبد الرزاق سعد، 198.
- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. 34.
35. المقرئزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي): كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2، 1987، ج1.
36. المسعودي (أبو الحسن بن علي): مروج الذهب و معادن الجواهر، سلسلة الأنيس، ج1.
37. السمهودي (علي بن عبد الله): خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى، طبعة إلكترونية، شبكة الوراق.
38. السيوطي (جلال الدين): الحاوي للفتاوى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، 1990، ط1، ج1.
- 39.....تتوير الحوا لك، شرح على موطأ مالك، لبنان: دار الندوة الجديدة، بيروت.
40. الشوكاني: نيل الأوطار
41. عبد الرحمان الفاسي: خطة الحسبة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب.

قائمة المراجع

1. إبراهيم حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ط5..200
2. أحمد بن حموش: فقه العمران الإسلامي من خلال الأرشيف العثماني الجزائري، دار البحوث للدراسات الإسلامية.
3. أحمد بن حموش: المدينة والسلطة، ط1، دار البشائر، دمشق، 1999.
4. أحمد عادل كامل: الطريق إلى المدائن، ط4، لبنان: دار النفائس، بيروت، 1982.
5. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستان في الإسلام
6. آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن 4هـ تعريب محمد عبد الهادي، دار الكتاب العربي ، ج1.
7. آرثر كريستينس: إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، لبنان: دار النهضة العربية، بيروت).
8. أرنست كونل: الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، ط1، لبنان: دار صادر، بيروت.
9. إدوارد بروي: تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغرو فريد داعر، لبنان: عويدان للطباعة والنشر، بيروت.
10. أنور الرفاعي: تاريخ الفن عند العرب، ط2، لبنان: دار الفكر، 1977.
11. إسماعيل التومي: العمارة والعمران في ظلال القرآن، بيت المعماريين العرب، طبعة الكترونية، www.arch.arab.org
12. إسماعيل العربي: المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
13. ثروت عكاشة: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعرفة، القاهرة.

14. جبر محمود الفضيلات: القضاء في الإسلام، الجزائر: شركة الشهاب.
15. جميل عبد القادر أكبر: عمارة الأرض في الإسلام، ط3، لبنان: مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998.
16. حسن جبر: أسس الحضارة العربية الإسلامية، ط2، لبنان: دار الكتاب الحديث، 99.
17. حسن مؤنس: المساجد، عالم المعرفة، وزارة الثقافة والفنون، الكويت، عدد37، سنة 1988.
18. حسن عبد الوهاب: "تاريخ المساجد الأثرية في القاهرة"، ط2، لبنان: أوراق ثقافية، بيروت، ج1.
19. حسين الحاج حسن: حضارة العرب في صدر الإسلام، ط1 لبنان: المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، 1991.
20. حمادي العبيدي: "الشاطبي ومقاصد الشريعة"، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1992.
21. خالد عزب: فقه العمارة الإسلامية، ط1، مصر: دار النشر للجامعات، 1997.
22. خالد عزب: تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، كتاب الأمة وزارة الأوقاف، ط1، 1997.
23. خالص الأشعب: المدينة العربية، التطور، الوظائف، البنية والتخطيط، ط1، بغداد: كلية الآداب.
24. ديفيد تالبوت رايس: الفن الإسلامي، ترجمة فخري خليل، ط1، لبنان 2002.
25. زكي حامد قادوس: تاريخ عام الفنون، ط2، مطبعة الحضري، الإسكندرية.
26. الطاهر بن عاشور: التحزير والتنوير، المؤسسة الوطنية للكتاب، ج13.
27. الطاهر بن عاشور: مقاصد الشريعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر والشركة التونسية للنشر، تونس.
28. كريزويل: الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبد الهادي عبلة، نشر وتوزيع دار قتيبة، دمشق. ط. 1984.

29. كمال السيد أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية، والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، 1996.
30. مانويل جوميث مورينو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة عبد العزيز سالم و لطفى عبد البديع، مؤسسة شباب الجامعة.
31. محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، الرسالة، الكويت، 1988.
32. محمد علي الصابوني: "صفوة التفاسير"، ج 2، قصر الكتاب، البلدية وشركة شهاب، الجزائر.
33. محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، ط6، دار الشروق، 1983.
34. محمد التريكي وخالد بوزيد: المعمار و الممارسة الاجتماعية، المعهد التكنولوجي للفنون و الهندسة المعمارية، تونس، 1989.
35. محمود عبد العزيز مرزوق: الفنون الإسلامية في بلاد المغرب و الأندلس، دار الثقافة، بيروت.
36. محمود زكي حسن: فنون الإسلام، المجلد 1.
37. محمود سعيد عمران: الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، ط1، دار النهضة العربية، بيروت.
38. محمد السيد غلاب: البيئة والمجتمع، ط7، مطبعة الإشعاع الفنية، مصر، 1997.
39. مصطفى الشكعة: الأئمة الأربعة، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط3، 1991.
40. موسى لقبال: المغرب الإسلامي، ط2 SNED، الجزائر، 1981.
41. صالح بن قربة: المئذنة المغربية في العصور الوسطى، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.
42. صالح لمعي مصطفى: المدينة المنورة تطورها العمراني، وتراثها المعماري، دار النهضة العربية، لبنان، 1981.
43. صفى الدين المباركفوري: الرحيق المختوم، دار إحياء التراث، القاهرة.
44. عبد الحميد ديلمي: الواقع و الظواهر الحضريّة، منشورات جامعة منتوري.

60. سعيد ناصف: المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة التحضر، ط1، القاهرة مكتبة
زهراء الشرق.
61. سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، منشأة المعارف،
الإسكندرية.
62. سيد قطب: في ظلال القرآن، ط، 11 دار الشروق، مجلد 6.
63. شاخت و بوزورت: تراث الإسلام، المعرفة، القسم الثاني، تراث الإسلام،
ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي، عالم المعرفة.
64. يحيى وزير: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، مطابع السياسات
الكويت، وزارة الثقافة والفنون، الكويت، 1990.

الرسائل الجامعية:

1. بلحاج معروف: العمارة الدينية في وادي ميزاب. رسالة دكتوراة دولة، كلية الآداب،
جامعة تلمسان. 2001.
2. عبد العزيز لعرج: المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، رسالة دكتوراة،
جامعة الجزائر، 1999.
3. محمد بن سنوسي: الأصول العميقة لمعايير التناسق العمارة الدينية الإسلامية
بالمغرب العربي، رسالة دكتوراه دولة، قسم الثقافة الشعبية، كلية الآداب، جامعة أبي
بكر بلقايدي، تلمسان 2000.

المجلات:

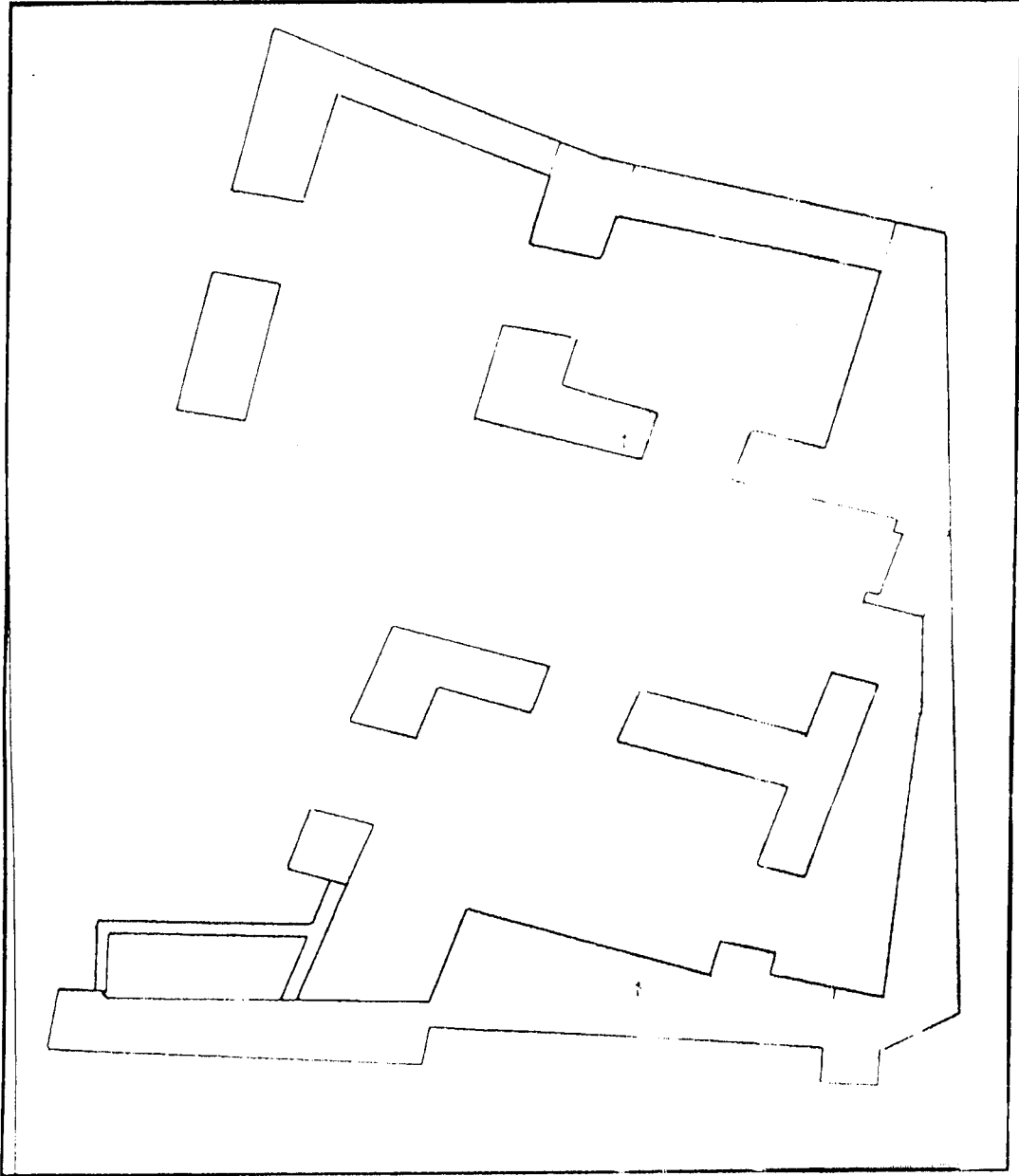
1. محمد العودات: "تجميل الشوارع في المدينة الإسلامية"، مجلة المدينة العربية،
ع97، أوت 2000، الكويت، ص 85.
2. العربي بوعياد: "العمران والبنيان عند المسلمين"، مجلة الأمة، ع6، السنة
الثالثة، أكتوبر 1998، ص 18.

3. وليد عبد الله المنسي: "أوجه التشابه بين قرارات البلدية و نصوص الحسبة وآثارهما في الضبط الحضري، لمدينة الكويت، حتى بداية الخمسينات"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع56.
4. عامر ابراهيم: "تأثيرات معمارية وافدة على العمائر المملوكية بمدينة القاهرة"، المجلس العربي للدراسات العليا والبحث العلمي، جمعية الآثاريين العرب. ج. 2.

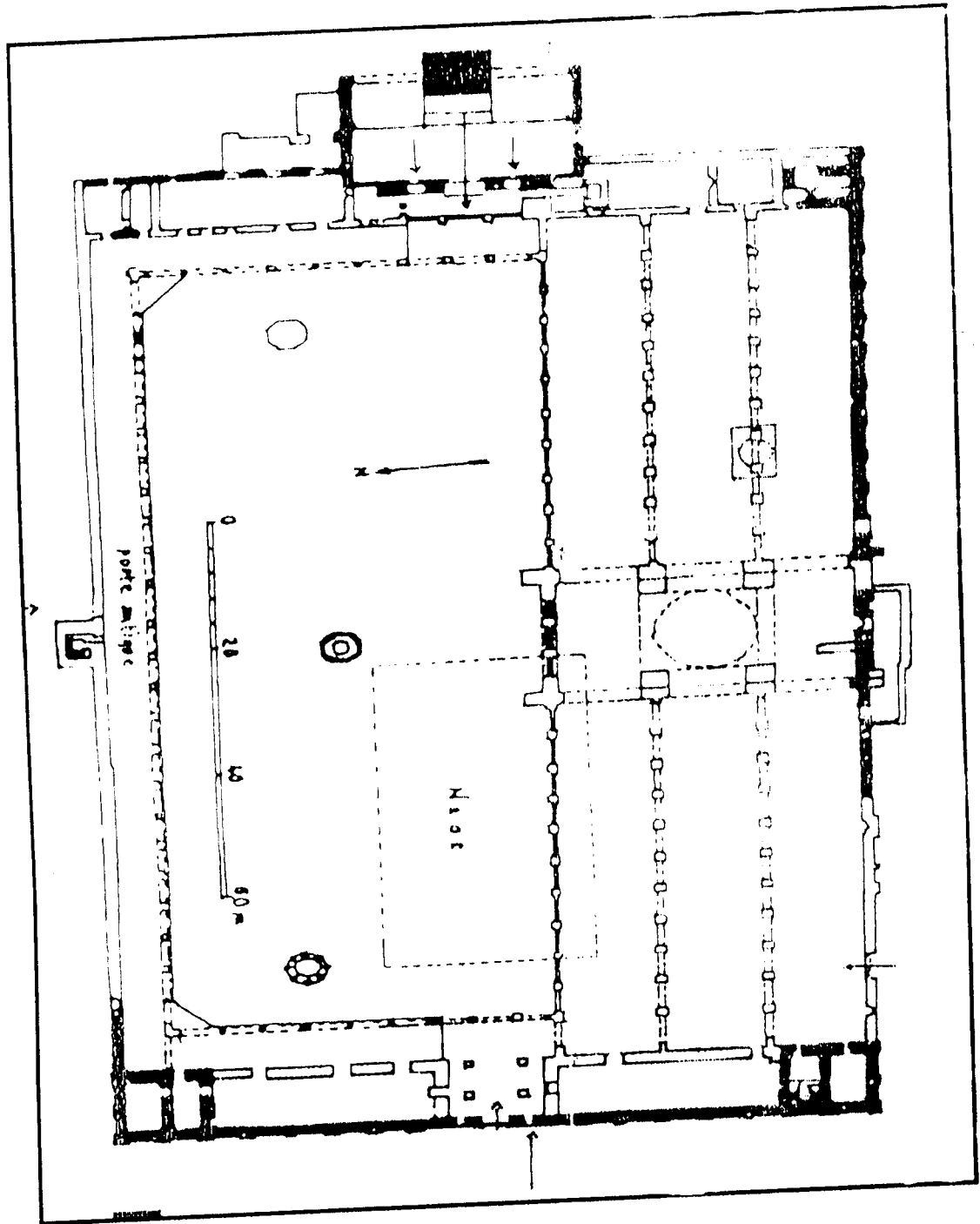
المراجع باللغة الفرنسية:

1. André Ravéreau :le m'zab une leçon d'architecture, édition sindbad, Paris 1981.
2. Bernard maury : Habitat traditionnel, institut français d'archéologie orientale.
3. Elie Lambert : L'art musulman d'occident des origines à la fin du 17siècle, société d'édiction d'enseignement, Paris 1966.
4. Gorges marçais : L'art musulman, 1ere édition, presse universitaire de France. Paris 1962.
5. Gorges marçais : Manuel d'art musulman, l'architecture, Paris 1926.
6. Henri sterlin : l'architecture de l'islam, office de livre, fibourg1979.
7. Lucien golvin : Essai sur l'architecture religieuse Musulmane, t3, édition klincksiek, Paris 1974.
8. Lucien golvin : La mosquée, institut des études islamiques à Alger, Alger 1960.
9. Rachid Bourouiba : Apport de l'Algérie à l'architecture religieuse Arabo- Islamique, O.P.U, Alger1986.
10. Rachid Bourouiba : L'art religieux musulman en Algérie, sned, Alger, 1973.
11. Gustav lebon : la civilisation des arabes, sned, Alger,1969.
12. Denis Grandet : architecture et urbanisme islamique, O.P.U.Alger.1992.

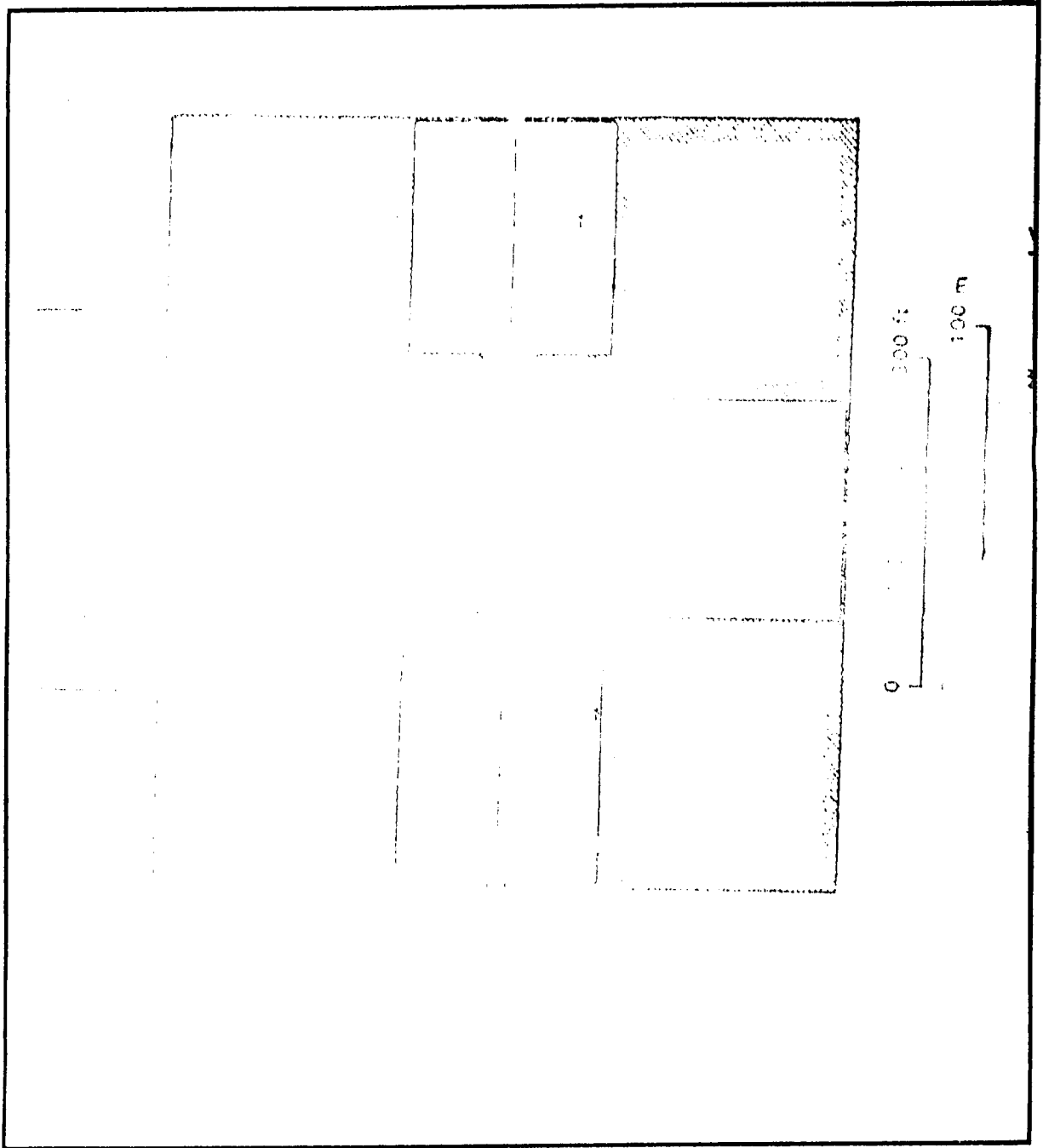
الملاحق



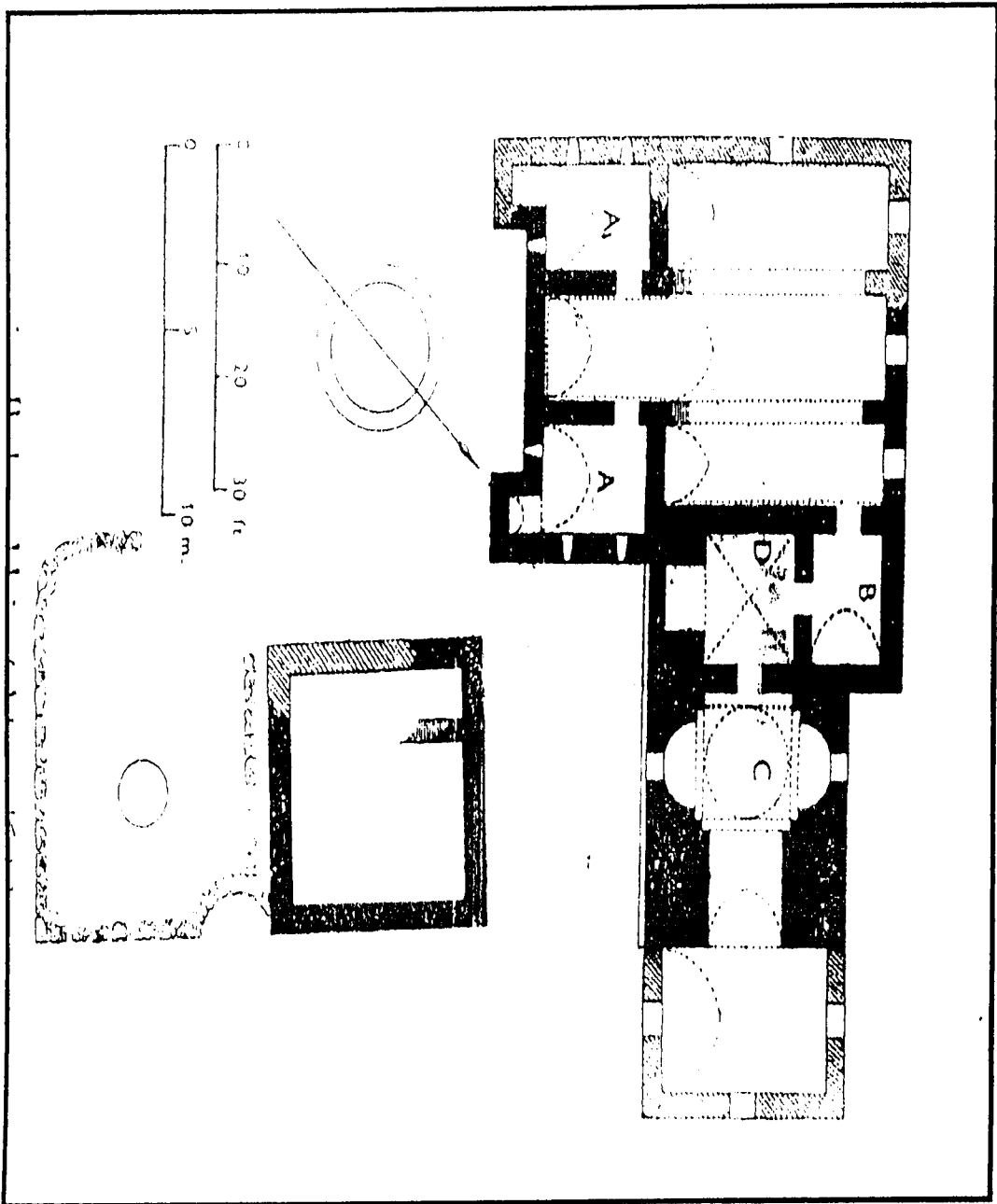
الشكل الأول
البيت الطولوني، القرن 3هـ
عن أطلس العمارة القبطية



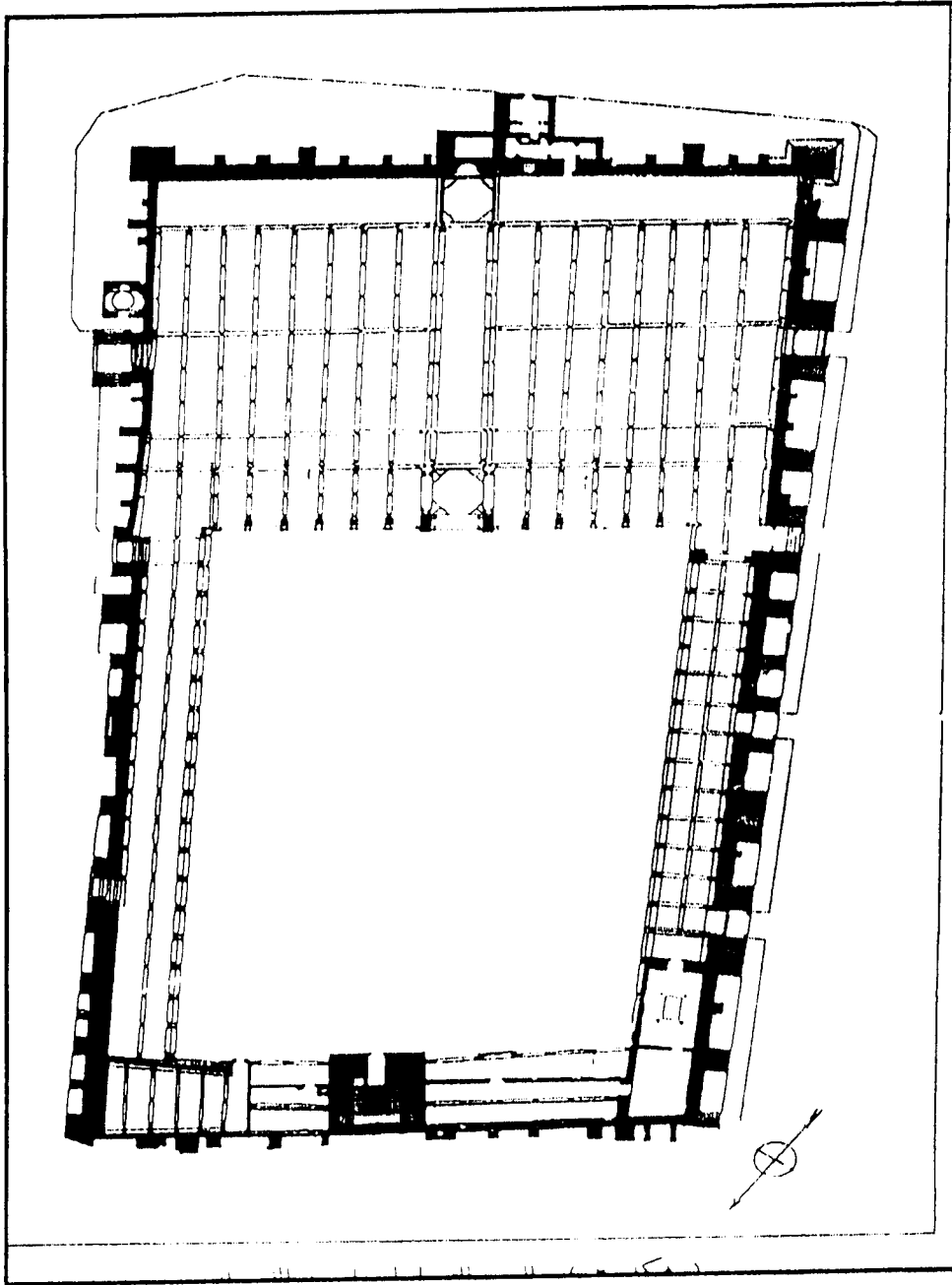
الشكل الثاني
 المسجد الأموي — عن كريبويل



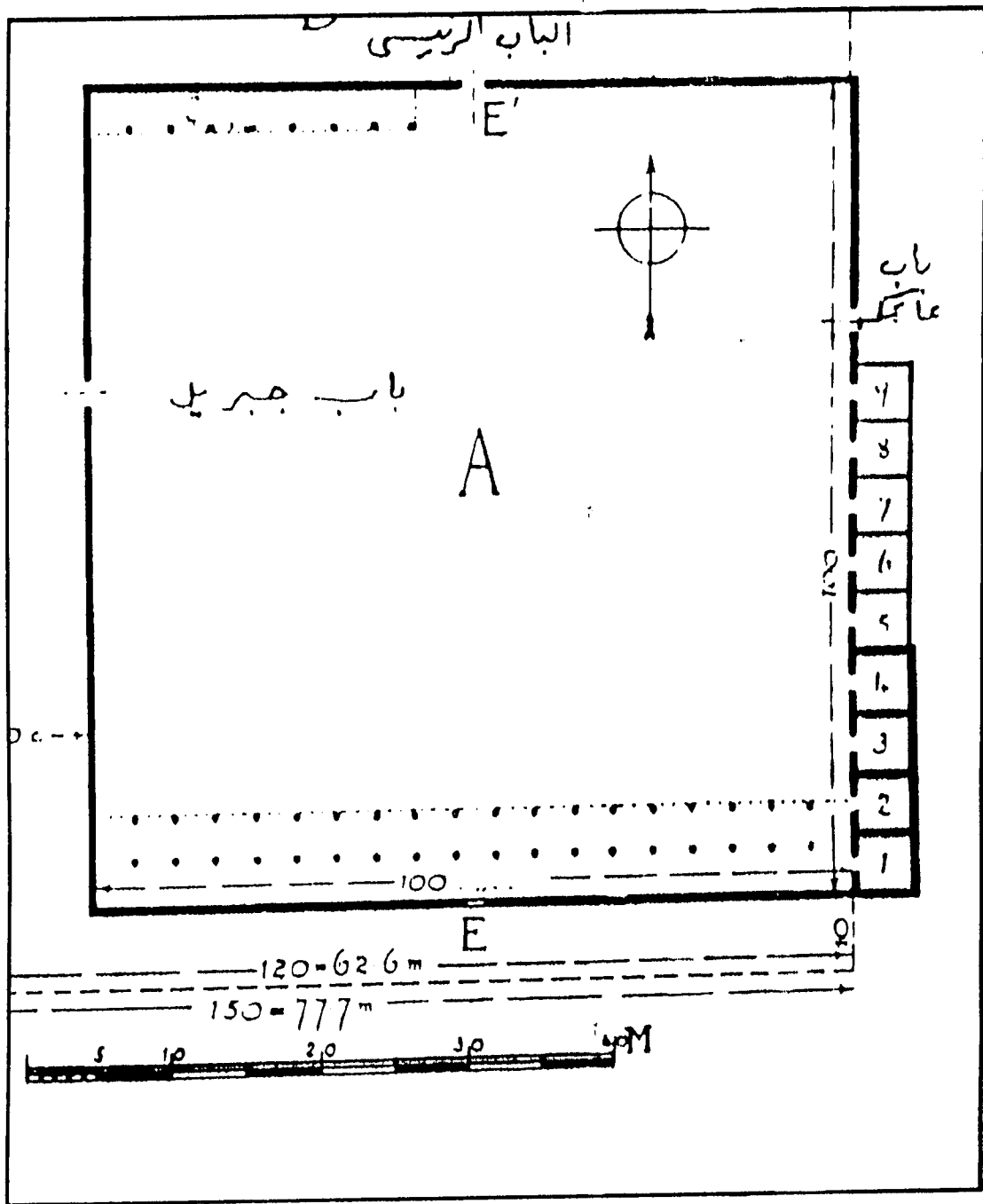
الشكل الثالث:
دار الإمارة — بغداد عن كرزويل



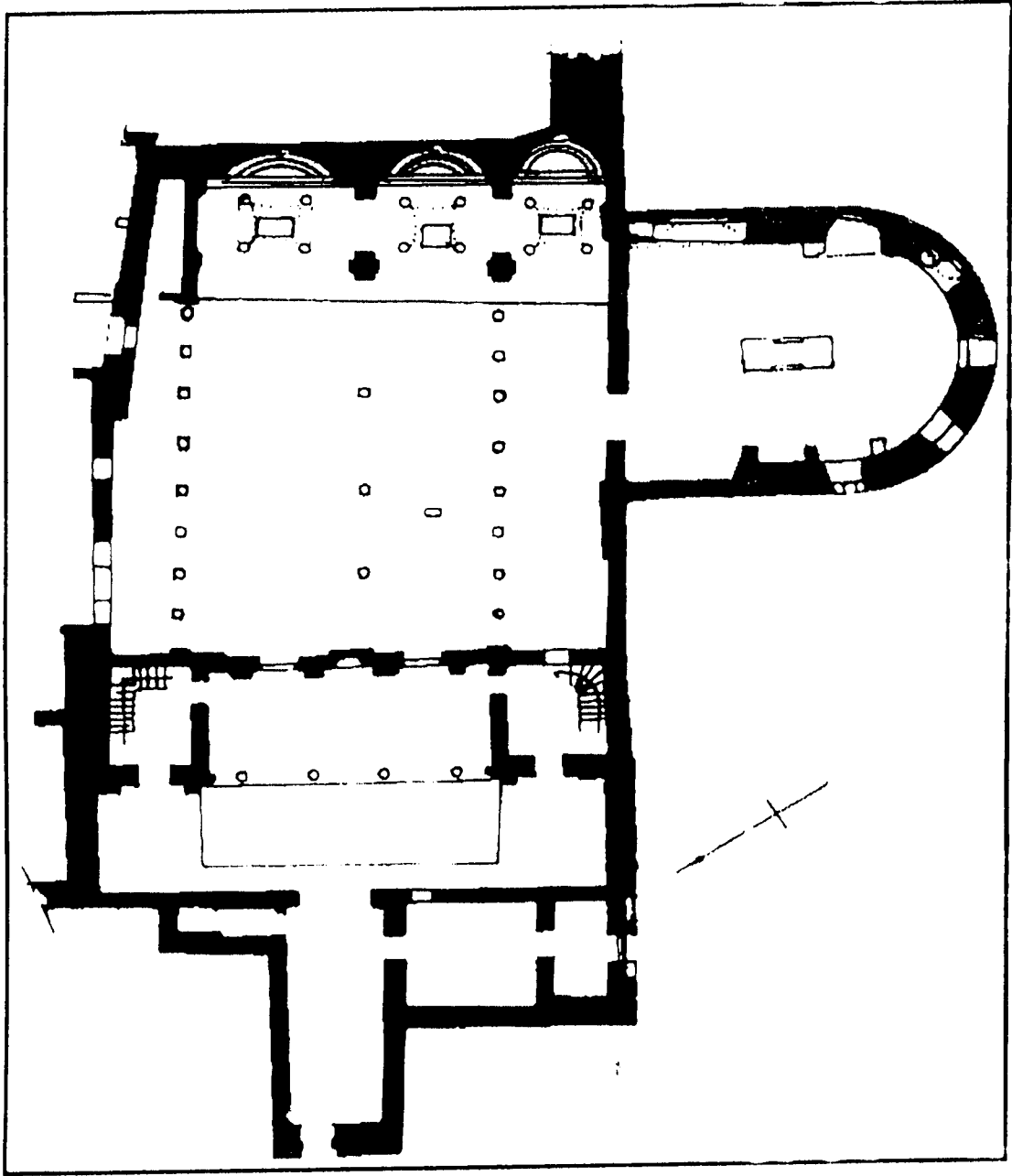
الشكل الرابع:
حمام الصرخ، عن عفيف بنسي



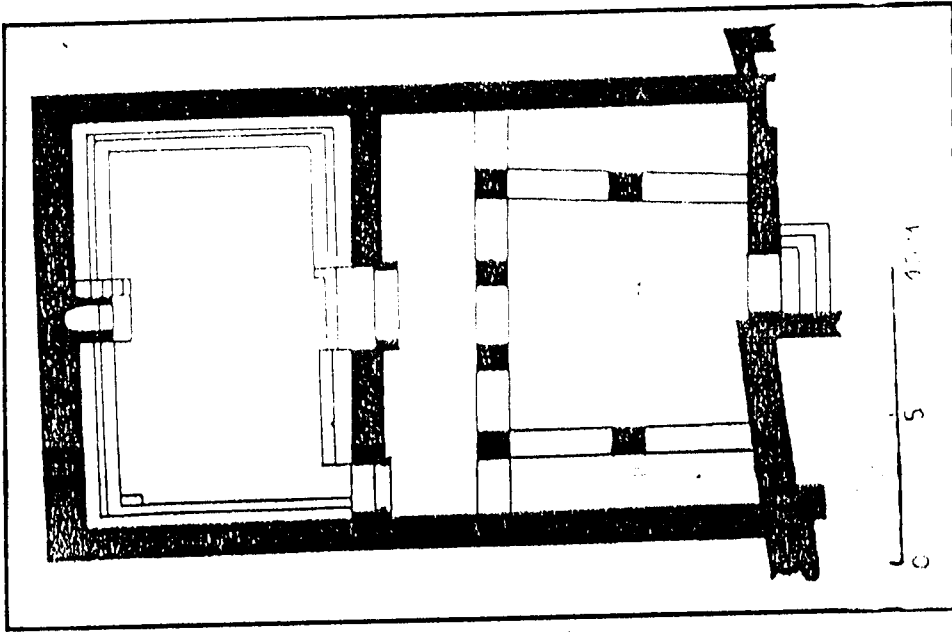
الشكل الخامس:
مسجد القيروان عن عفيف بنسي



الشكل السادس:
مسجد الرسول عن عقيف بنسي

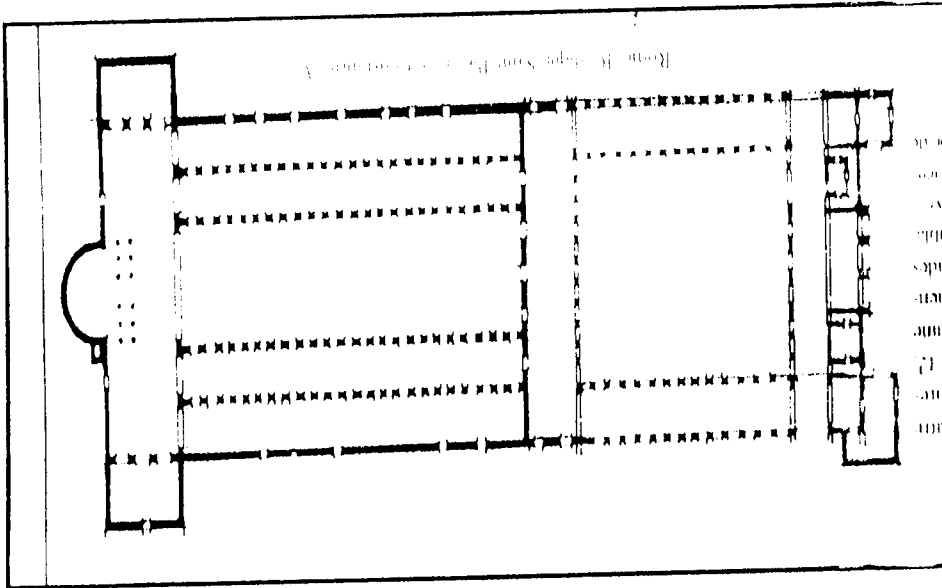


الشكل السابع:
كنيسة سرجيوس، مصر



الشكل الثامن:

دورا اوروبوس - عن golving

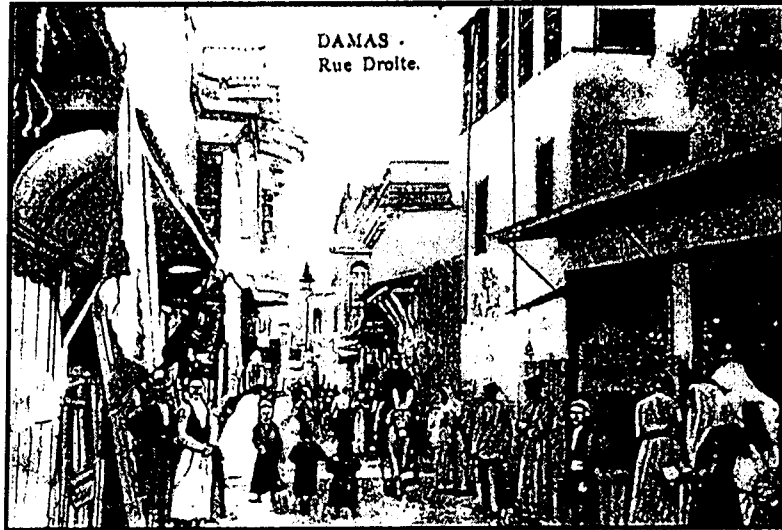


الشكل التاسع

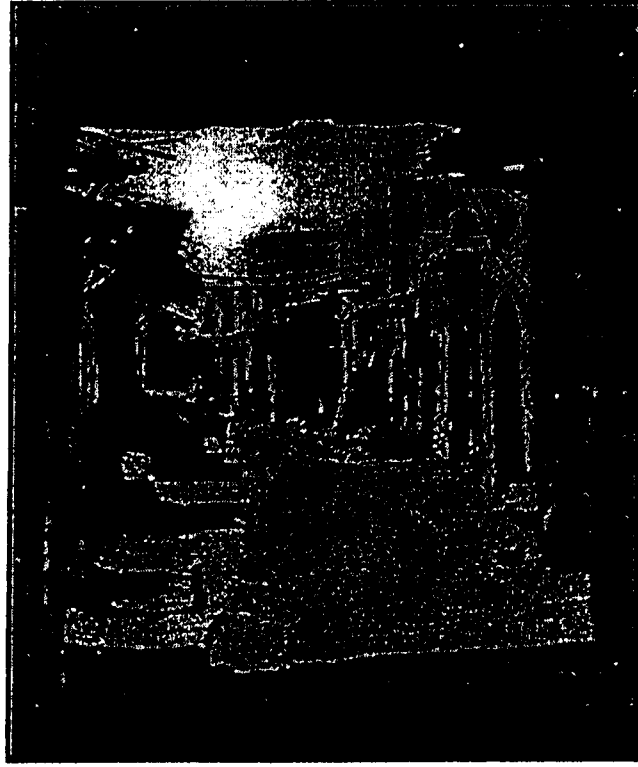
البارليكا، القسطنطينيه - عن



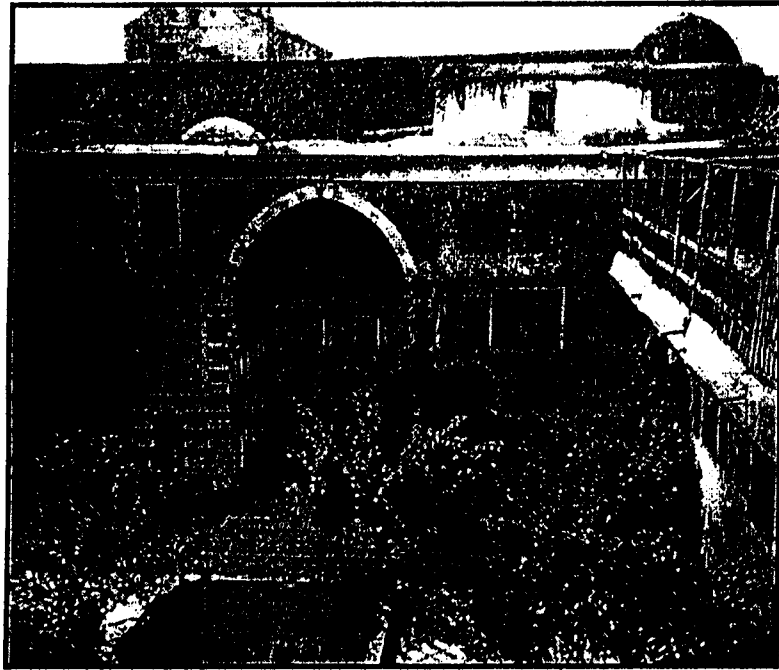
اللوحة الأولى: تمثل شارعاً مسقفاً بدمشق



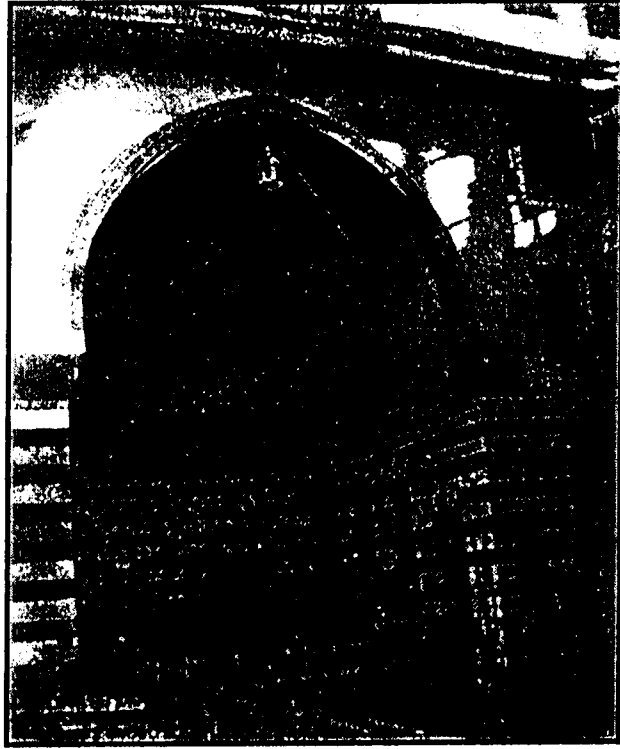
اللوحة الثانية: السوق المستقيم بدمشق



اللوحة الثالثة : أحد شوارع دمشق القديمة



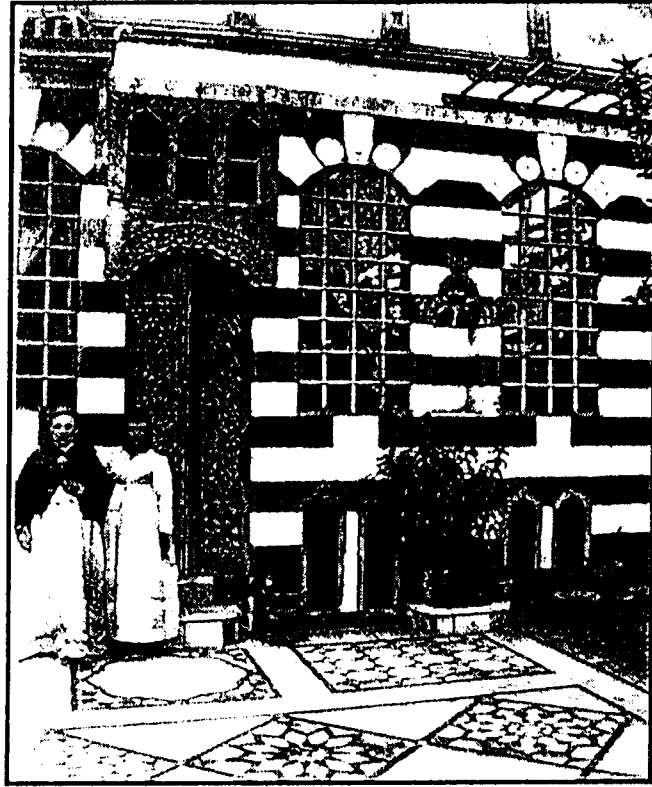
اللوحة الرابعة: يظهر في الصورة الإيوان والحوش في بين دمشقي



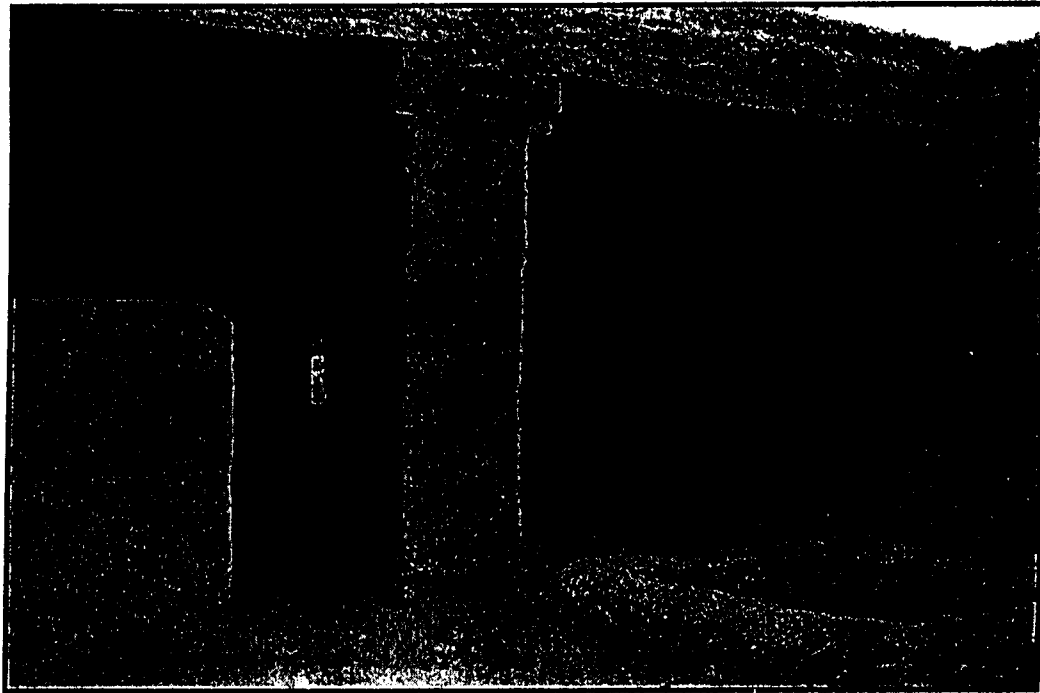
اللوحة الخامسة: إيوان



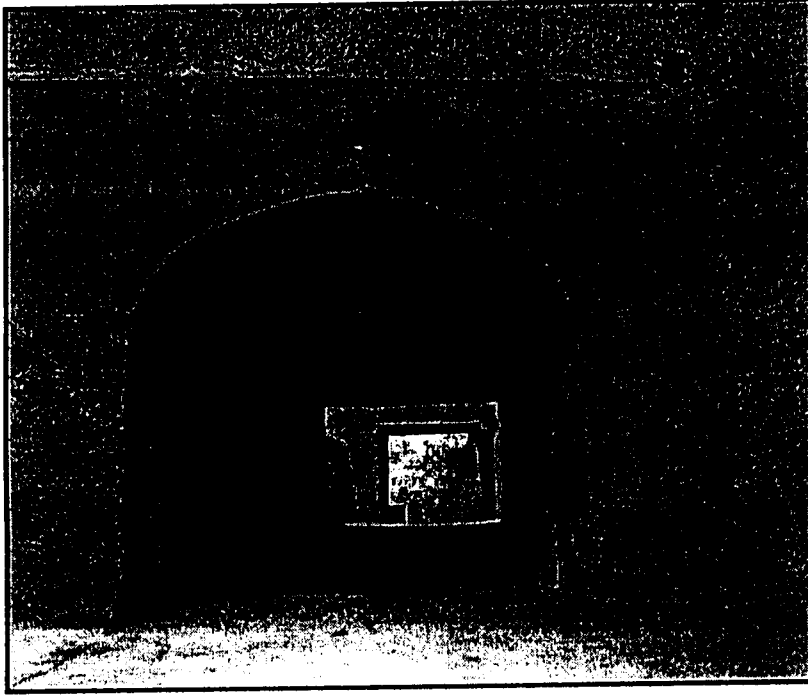
اللوحة السادسة: صالة في بيت دمشقي



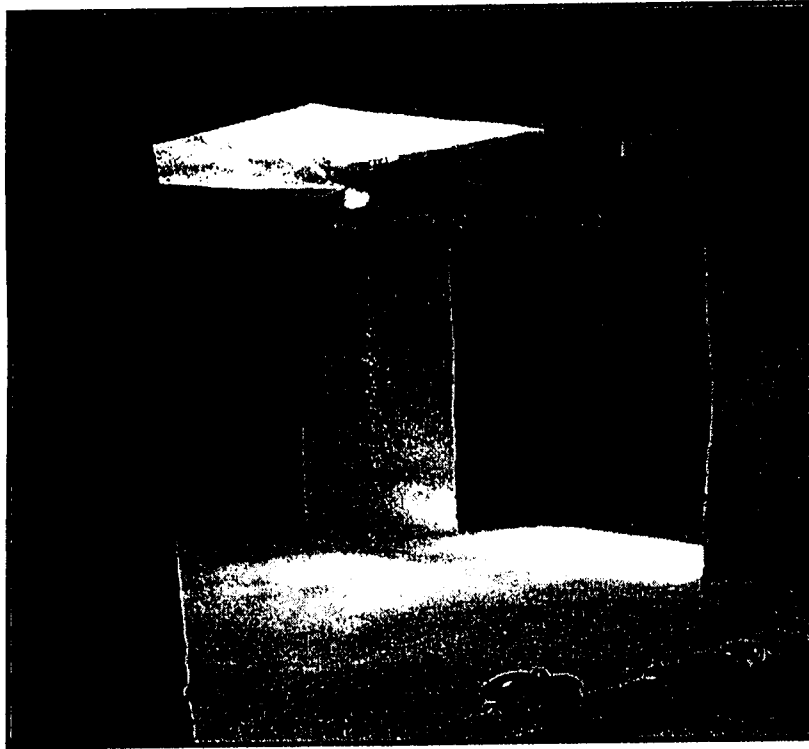
اللوحة السابعة: الصحن في بيت دمشقي



اللوحة الثامنة: الطابق الأول من بيت في قصر بوسمغون - الجزائر - وتظهر فيه فتحة التهوية والإضاءة



اللوحة الحادية عشر: مدخل أحد الدروب المغطاة في بوسمغون
تصوير: بلحاج معروف



اللوحة الثانية عشر: صحن بيت في الصحراء الجزائرية
تصوير: بلحاج معروف

الفن رسم

الفهرس

| | |
|----|---|
| أ | المقدمة |
| 1 | المدخل |
| | الباب الأول العمارة الإسلامية ومظاهرها |
| | الفصل الأول: العمارة الدينية |
| 9 | أولا المسجد |
| 20 | ثانيا: المدرسة |
| | الفصل الثاني: العمارة المدنية |
| 25 | أولا: البيت الإسلامي |
| 33 | ثانيا: البيمارستان |
| 37 | ثالثا: دار الإمارة |
| 39 | رابعا: الأسواق |
| 41 | خامسا: الحمامات |
| 48 | سادسا: الشوارع |
| | الباب الثاني: نشأة المدن الإسلامية الأولى وتطورها |
| | الفصل الأول: عوامل نشأة المدن |
| 54 | تعريف المدينة |
| 56 | عوامل نشأة المدينة |
| 61 | مدينة الرسول |
| 63 | الخصائص المعمارية لمدينة المنورة |
| 63 | المسجد |
| 67 | الأسواق |
| 68 | الشوارع والطرق |
| 69 | الدور والمنازل |
| | الفصل الثاني: المدن الإسلامية الأولى |
| 77 | أولا: البصرة |
| 79 | الخصائص المعمارية لمدينة البصرة |

| | |
|-----|---------------------------------------|
| 81 | دار الإمارة |
| 83 | الأسواق |
| 84 | خط الأهالي |
| 85 | ثانياً: القيروان |
| 89 | الخصائص المعمارية لمدينة القيروان |
| 89 | دار الإمارة |
| 91 | المسجد |
| 93 | الأسواق |
| 94 | خط الأهالي |
| 95 | الشوارع والطرق |
| 96 | ثالثاً: بغداد |
| 103 | الخصائص المعمارية لمدينة بغداد |
| 103 | المسجد |
| 104 | القصر |
| 104 | القطائع والأرباض |
| 105 | الأسواق |
| | الباب الثالث: مصادر العمارة الإسلامية |
| | الفصل الأول: المصادر الخارجية |
| 107 | أولاً: العمارة البيزنطية |
| 107 | نشأة الدولة البيزنطية |
| 108 | الإعتراف بالمسيحية |
| 109 | الفن البيزنطي |
| 111 | نماذج من العمارة البيزنطية |
| 112 | عمارة الكنيسة |
| 113 | القبة البيزنطية |
| 115 | الفسيفساء البيزنطي |
| 115 | تأثر الفن الإسلامي بالفن البيزنطي |
| 117 | قبة الصخرة |

| | |
|--------------------------------|---------------------------------------|
| 120 | المسجد الأموي |
| 122 | الفسيفساء |
| 125 | ثانياً: العمارة الفارسية |
| 125 | نشأة الدولة الفارسية |
| 126 | العمارة الفارسية |
| 126 | أ. العمارة الدينية |
| 127 | ب. العمارة المدنية |
| 130 | العناصر المعمارية الفارسية |
| 132 | تأثير الفن الإسلامي بالفن الفارسي |
| 134 | المسجد ذي الأربع إيوانات |
| 135 | القبّة الفارسية |
| الفصل الثاني: المصادر الداخلية | |
| 138 | أولاً: العمارة في القرآن |
| 140 | المدينة في القرآن |
| 149 | ارتباط العمارة بالأخلاق |
| 153 | بناء المساجد |
| 154 | عملية البناء |
| 157 | مواد البناء |
| 158 | أثر القبلة في العمارة الإسلامية |
| 161 | ثانياً: العمارة في السنة النبوية |
| 162 | تأثير حديث الضرر على البيئة العمرانية |
| 164 | أنواع الضرر |
| 169 | بماذج من الضرر |
| 172 | التحايل على الضرر |
| 174 | أحكام الطريق |
| 179 | زخرفة المساجد |
| 182 | البناء قدر الحاجة |

| | |
|-----|-------------------------|
| 261 | المسجد |
| 262 | المسكن |
| 267 | الشوارع والطرق |
| 269 | السوق |
| 271 | الحي |
| 273 | الخاتمة |
| 276 | قائمة المصادر والمراجع. |
| 285 | ملحق الأشكال واللوحات. |
| 299 | الفهرس |